

NOVEL

يوكيو ميشيما

اعترافات قناع

9.2.2016

ترجمة: كامل يوسف حسين



يوكيو ميشيما

اعترافات قناع

ترجمة: كامل يوسف حسين



اعترافات قناع

اعترافات قناع / رواية يابانيّة
يوكيو ميشيما / مؤلّف من اليابان
ترجمة : كامل يوسف حسين / مصر
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب :٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali @ nets. com. jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®
لوحة الغلاف :
مارك شاغال / فرنسا
الصفّ الضوئيّ :
الشروق / عمّان ، الأردنّ
التنفيذ الطباعيّ :
رشاد برس / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-36-622-5

مقدمة المترجم

هذا كتاب وحشي ،

إن ميشيما يتدافع كقطع الليل ، يتدفق مثل قافلة مسرعة ، في الطريق من الجحيم إلى الجحيم ، وأولئك الذين تتحصل فكرتهم عن مطالعة أدب الاعترافات في أنها تشبه ، من قريب أو بعيد ، تناول الحلوى عقب طعام العشاء عليهم أن يسارعوا بتنحية كتابه هذا ، وإلا فإن عسر الهضم في إنتظارهم!

الصفحات الناصعةُ ، الماثلة بين يدي القارئ ، ليست إلا جمرات تفحمت ، السطور الرشيقة ملكات ، في لحظة الانتحار ، والغلاف يضم شرائح من انتفاء الأمل ، وفي الوقت نفسه من رفض الاشفاق على عالم ينهار ، دون أن تتكامل مقومات عالم آخر ينهض .

إنه كتاب يتصدى لليأس والموت والدمار ، من خلال محاولة اجتراح فهم أفضل للحياة ، ولم يكن من قبيل المصادفة رفض الناشرين الامريكيين لسنوات طوال اصداره ، وإصرار الناشرين الإنجليز والفرنسيين على تصدير طبعاتهم بكلمة تحذر من أثره الكلي المعتم ، القابض ، والغارق في التعاسة والرعب واليأس .

في 25 نوفمبر 1970 حزم كيميثاكي هيراوكا ، الشهير بيوكيو ميشيما أشهر أدباء اليابان في القرن العشرين ، كليتيه بقطعة من النسيج القطني ، وانتضى سيفه التقليدي القصير ، ودون تردد أو وهن أغمده في أحشائه ، منتزعا إياها في إنتحار علني . الكثيرون تساءلوا عما إذا لم يكن الرجل- في تضحيته بحياته ليلفت انتباه مواطنيه إلى عمق خسارتهم بإهدارهم لتراث اليابان التقليدي- يحقق هاجسا راوده طوال عمره ، بأكثر مما يضحى بمبادئ آمن بها طويلا وعميقا . الكثيرون قالوا إنه - على أية حال- ما كان ليستطيع تجاوز نفسه ، وكتابة شيء يفوق رباعيته «بحر الخصب» ، التي وصل فيها إلى أعلى قممه ، حتى ولو عاش ربع قرن آخر . الكثيرون- أيضا- تساءلوا : ترى أهذه هي النهاية أم أنها البوابة حقاً؟ .

في 14 يناير 1925 ولد ميشيما ، في طوكيو ، إبناً لعائلة تعبر مسيرتها عن الحراك الاجتماعي النسبي ، في مجتمع يفتقر بصرامة للمرونة الاجتماعية ، كان أبوه أحد العاملين بالدولة وجده هو الحاكم العام السابق لمقاطعة كارافوتو . ورغم اعتزاز ميشيما بجده ذاك ، فإنه كان يلتزم الصمت بالنسبة للأصول الفلاحية التي انحدر منها ، ويؤثر الحديث عن جدته ، التي كانت تنتمي إلى طبقة الساموراى ، وربما كانت غرابة أطوار تلك الجدة ونوباتها العصبية هي السبب في تزويجها من رجل يتدنى عنها في السلم الاجتماعي .

بضغط من هذه الجدة ، ألحق ميشيما- «الجاكوسهوين» أو «معهد الأعيان» ، الذي كان الطلاب الذين لا ينحدرون من أصول نبيلة يعاملون فيه معاملة الغرباء ، وفي رحابه عرف آداب اليابان التقليدية ، وتعلق بها إلى حدّ الافتتان ، الذي رافقه طوال عمره .

في 1941 ، أي السادسة عشرة من عمره ، كتب أول عمل أدبي مهم ، وهو «هانازا كارى نوموري» أو«غابة مزهرة» ، ويدور موضوعه الرئيسي حول التواصل بين الأجيال ، فقد كانت قناعة ميشيما قوية بأن لنا عددا هائلا من الأجداد ، يرقدون في أعماقنا أحيانا ، كحنين رائع ، ولكنهم قد يبقون على بعد مؤلم منا ، ويحافظون على بعدهم هذا بصرامة . يقول :

«يأتي الينا أجدادنا بطرق غريبة ، يشك الناس في ذلك ، لكنه حقيقي» .
ومن الجلي أن هذه الموضوعة سائدة في الأدب العالمي ، وقد عبر عنها الكثيرون من الكتاب المعروفين ، والذين طالعوا بحب وتعاطف مذكرات العملاق اليوناني نيكوس كازانتزاكيس سيجدون هذه الموضوعة التي فصلت في صدر الفصول الأولى من المذكرات قادرة على العودة بحيوية وتألق ، لكنها عند ميشيما ترتفع إلى مستوى المتغير الأصيل ، الذي يؤثر في كل ما عداه .

في أكتوبر 1944 ظهرت «غابة مزهرة» في مجلد صغير ، مع مجموعة من القصص القصيرة ، ربما يرجع ما لاقته من إقبال إلى رغبة الجمهور الياباني في مطالعة أعمال لاتتناول الحرب ، بأكثر مما يرجع إلى جاذبية تألق ميشيما اللفظي في كتابتها .

لم تظهر رواية ميشيما الكبرى الأولى إلا في عام 1949 بعنوان «ثوزوكي» أو «السارقون» ، وتدور حول نشوة الموت البالغة الحضور التي يحسها فتى وفتاة من أصول ارستقراطية ، فيقرران الزواج ، لينتحرا معا في ليلة زفافهما .

في العام التالي ، ظهر الكتاب الماثل بين أيدينا هنا ، بعنوان «كامن نوكوكو هاكو» أو «اعترافات قناع» ، وإذا كانت رباعية «بحر الخصب» تعد أرقى القمم التي وصل إليها عالم ميشيما الأدبي ، فإن الاعترافات تقدم ، في الحقيقة ، المفاتيح التي يستحيل دونها فهم أسرار ومغاليق هذا العالم .

لكن مأساة هذا العمل ، أو بالأحرى مأساتنا معه- وربما كان هذا أيضا أعظم ما فيه- هو قابليته الفذة للتفسير على أكثر من صعيد واحد ، وعلى عمق كبير داخل كل مستوى على حدة .

كان ميشيما نفسه ينظر إلى هذا العمل باعتباره «تدريبا اسبرطياً للانضباط الذاتي» ، إنه هنا يتحدث في تدفق وعفوية ، متخلصا من ولعه بالتراكيب الأدبية المغرقة في الخيال والاستعارات المحوّمة ، ثم أنه يجالد الحقيقة عارية لأنها- ببساطة- الحقيقة ، ولا مهرب منها ، والمنهاج الافضل هو فهمها ومواجهتها ، وهذا هو ما تضمه الاعترافات بين دفتيها .

والكثيرون من النقاد يرون في «الاعترافات» شكلاً شديد الخصوصية من أدب الاعترافات ، فهم ينظرون إليه باعتباره تقليداً ساخراً للاعتراف ، ويعدونه الكتاب الأكثر تعبيراً عن ميشيما ، لا لأنه صنع شهرته المدوية ، أو لأنه قمة شامخة في أعماله ، التي تبلغ حوالي 100 عمل ، يضمها حوالي 40 مجلدا ، وإنما لأنه الكتاب الأكثر إيغالاً في فهم العالم الداخلي لمؤلفه . وإذا قبلنا تفسير «الاعترافات» على هذا المستوى ، فإن هذا الكتاب يجعل اعترافات أندريه جيد ، التي صدمت العالم لدى صدورها ، تبدو تأملات تلميذ برئ في سيرته الذاتية ، وللذين قد تصدمهم صراحة ميشيما الدامية ربما يصح أن يقال إن أندريه جيد هو نفسه الذي قال في دراسة له عن دستويفسكي- الذي صدّر ميشيما اعترافاته بمقتطف مطول من أشهر رواياته- قال جيد :«إن المشاعر الجميلة تفرز فناً رديئا ودون مساعدة من الشيطان لن يتم إبداع الفن» .

وهناك فريق من الدارسين يميلون إلى تصور أن البطل الحقيقي للاعترافات هو يابان ما بعد الحرب نفسها ، اليابان في عجزها عن الانفصال عن ماضيها ، ولكن في الوقت نفسه في افتقارها العنين للقدرة على التواصل مع المستقبل .

وثمة من يميل إلى النظر للاعترافات باعتبار أنها محاولة لتفسير الكل من خلال الجزء، ورحلة تستهدف التوصل إلى تفسير كلي للوجود، من خلال دراسة العلاقة بين البطل وقدره، وتحديد هامش الحركة الإنسانية الذي يتيحه هذا القدر للبطل، في حين يصادر شريحة ظالمة من وجوده. ويشير المتحمسون لهذا الفهم إلى أنه في هذه الفترة بشكل خاص بدأ ميشيما يهتم بتعاليم «الزن»، وبمجمل التأملات الفلسفية التي قدر لها أن تلقى أرقى تعبير عنها في الرباعية.

ومن المحقق أن عملاً يقبل التفسير على مثل هذه الجبهة العريضة، وبمثل هذا العمق، جدير بمزيد من الاهتمام، لكنه لم يكن بالنسبة لميشيما نهاية المسيرة، وإنما بداية المرحلة الواثقة الخطى منها.

النجاح المدوى الذي حققته الاعترافات لم يغر ميشيما بالتوقع في إطارها، وإنما قدم في 1950 «أي نوكواكي» أو «عطش الحب»، وهو عمل أدار فيه ظهره تماما للاعترافات والتجارب الشخصية.

«شيوزي» أو «هدير الأمواج» الصادرة في 1954 كانت ثمرة استلهام مصدر مختلف تماماً، هو الأساطير اليونانية، وبرهانا جديدا قدمه ميشيما على أن العمل الكلاسيكي ليس مطروداً- كمن حلت به لعنة- من رحاب الاهتمام الجماهيري، وإنما المسألة تتعلق في الأساس بالأسلوب الذي يتم تبنيه لتقديم هذا العمل.

في 1956 خاض الكاتب الياباني مغامرة جديدة في روايته «الخيمة

الذهبية» ، التي يرى بعض النقاد أنها أفضل أعماله ، فهو يتعرض لحريق معبد كيوتو الشهير ، وإذا كانت الخاتمة معروفة ، وجانب يعتد به من تيارات الموضوع معروف كذلك ، فقد كان التحدي متمثلا في إمكانية تقديم عناصر درامية في ركن من الدنيا تنتفي فيه الإمكانية الدرامية ، وقد اجتذب ميشيما هذه العناصر من رحم بحثه عن «السبب» الذي دفع الراهب الذي أشعل النار إلى اقتراف فعلته تلك .

ولم تكن المسيرة الأدبية ناعمة دائما بالنسبة لميشيما ، فقد منى عمله الموسوم «كيوكو نواى» أو «دار كيوكو» والصادر في 1959 بفشل مدو ، رغم ما بذله فيه من جهد ، وما سخر له من موهبة .

تلك هي فترة الانهيار عند ميشيما ، غادر مكتبه ، محاولا النسيان في خضم الحياة الواسع وعلى صدرها العريض ، لعب دوراً في أحد الأفلام ، غنى أغنيات البحر ، أمطر قنوات الإعلام ووسائط الكتابة السريعة الاستهلاكية ، غير أنه ما كان لكاتب في مثل عبقريته إلا أن يفيق .

في يناير 1960 ، ووفقاً للتقاليد الأدبية اليابانية ، بدأ ينشر حلقات «أوتاج نواتو» أو «بعد الوليمة» . وفي يناير من العام التالي نشر «يوكوكو» أو «وطنية» عن شباب الثلاثينيات وتضحياتهم . وفي 1963 أصدر واحداً من أكثر مؤلفاته إتقاناً ، هو «جوجو نوايكو» أو «البحار الذي لفظه البحر» . وفي 1965 قدم درة مسرحياته الطويلة «سادو كوشاكوفوجين» أو «السيدة دى ساد» وأقصر هذه المسرحيات في 1967 «واجاتوموهينورا» أو «صديقي هتلر» .

لكنه كان منذ سبتمبر 1965 ، وحتى اليوم الأخير من حياته ، قد راح يدفع للمطبعة بعمل عمره :«هوجونو أوبى» أو «بحر الخصب» .

كان يؤمن بأن هذا العمل هو المحيط الذي يصب فيه نهر عمره ، والمشكاة التي تتوهج منها معارفه جميعا وخبراته ، ككاتب وكإنسان وكمفكر كافة ، وقد لفت انتباه أصدقائه إلى أنه عندما ينتهى من الرباعية لن يبقى له سوى عمل واحد : الانتحار ، وفي ذلك اليوم من أخريات نوفمبر 1970 كان قد قال كل ما عنده ، فسطر النهاية بسيفه .

في تواز صارم مع هذه المسيرة ، كان تطوره السياسي ، ومن ثم الفكرى ، كان قد انضم في وقت مبكر من تطوره إلى المجموعة التي تنشر مجلة «كندي بوكاجو» أو «الأدب الحديث» وغالبية أعضائها من الكتاب اليساريين ، لكنه في الواقع ظل بعيدا عنهم ، وحينما عرض عليه الانتماء إلى الحزب الشيوعي بدا له ذلك شيئا «سخيفاً» وإن كان طريفاً! وكانت المجموعة بالنسبة له أداة تواصل مع العالم- وهو الخجول المنطوى- لكنها أبدا لم تؤثر في أفكاره السياسية .

ورغم ميوله المحافظة ، التي لم يخفها ، فإنه ظل بعيدا عن الجماعة الرجعية المشبوهة ، بل كتب عنها بصراحة نادرة في الرباعية وشارك كتاب اليابان اليساريين في إلهاب ظهور السياسيين ورجال الأعمال بسياط النقد ، إلا أن الدوافع كانت مختلفة .

حين أعلن إيمانه بأن الامبراطور معصوم من الخطأ ، كان ذلك لأنه يرى فيه الرمز المجرد لليابان ، وفي منتصف الستينيات ، حين شدد على المفاهيم التي عدّها البعض فاشية ، كان جوهر ما يدعو إليه ، في الحقيقة ، هو المحافظة على التقاليد اليابانية المحضة والروح الكامنة وراء هذه التقاليد .

من المدهش حقاً أن تلك هي الفترة التي شرعت فيها أفكاره السياسية في الإغراق في التجريد ، حتى أصبحت إمتدادا لجماليته ، لكنها الفترة ذاتها التي تدرب فهيا سراً مع القوات اليابانية ، وكوّن جيشا خاصا ، من مائة رجل ، عرف باسم «تات نوكى» أو «جماعة الدرع» وهدفها المعلن خدمة الامبراطور! .

وأيا كان الأمر ، فليس المقام مقام دفاع عن ميشيما ، أو تهجم عليه ، وإنما المجال لتعرفه ، لفهمه ، ولاستيعاب العالم الذي صدر عنه .

ورغم الأسماء الضخمة التي لمعت في مرحلة تالية ، مثل شوساكو إندو وكوبوآبى وكينزابورو وغيرهم ، فإن ميشيما يظل الكاتب الياباني الأكثر موهبة ، والأعمق عبقرية ، في النصف الثاني من القرن العشرين ، لقد تعذب طويلا وعميقا ، ثم عرف كيف يخلق من عذاباته فنا رفيع المستوى .

ولعل كاتب هذه الكلمات يعد ، الآن وهنا ، أولئك الذين عرفوا العذاب والرحيل بعيدا عنه ، من خلال الخلق ، والابداع ، بأن يرحل معهم في القريب عبر عالم «بحر الخصب» .

المترجم

. . . رهيب هو الجمال ومروع ، رهيب لأنه لم يسبر له أبداً غور ، ولا يمكن أن يعرف له قط قرار ، ذلك أن الله لا يطرح علينا إلا أحجيات ، وفي الجمال يلتقي الشاطئان ، وتتجاوز المتناقضات . لست رجلاً صقله الفكر ، أيها الأخ ، لكنني أمعنت التفكير في هذا ، حقا أن هناك أحجيات بلا انتهاء! عديدة هي الأحجيات التي تثقل كاهل الإنسان على الأرض ، ونحن نفكر فيها ما وسعنا التفكير ، فنصدر عن الماء والجفاف يعلونا ، الجمال! ليس بمقدوري تحمل فكرة أن إنسانا نبيل الفؤاد شامخ العقل ينطلق بمثال العذراء ، وينتهي بسدوم مثالا أعلى ، أما ما هو أشد إثارة للفزع فيكمن في أن من يحمل مثال سدوم في أعماق روحه لا ينبذ مثال العذراء ، وربما كان في أغوار فؤاده يتقلب على جمر الغضا ، وقد شفّه الحنين إلى المثال الجميل ، على نحو ما كان أيام براءته اليافعة . أجل ، رحب هو فؤاد الإنسان ، بالغ الرحابة حقا ، وددت لو كان أكثر ضيقا ، الشيطان وحده يعلم ماذا يصنع به! لكن ما ينظر إليه العقل بحسبانه مبعثا للشعور بالعار غالبا ما يبدو للفؤاد بهي الحسن . أثمة جمال في سدوم ، صدقني ، إن معظم الرجال يجدون جمالهم في سدوم أتراك اطلعت على هذا السر؟ الأمر المروع هو أن الجمال ليس رهيبا فحسب ، وإنما هو غامض أيضاً ، فالله والشيطان يتجالدان هناك ، وساحة عراكهما هي قلب الإنسان . لكن قلب الإنسان إنما ينشد الحديث عن وجعه فحسب . أصغ الآن سأحدثك بما يقول . . .

دستويفسكي- الأخوة كرامازوف



الفصل الأول

لسنوات عديدة ، زعمت أن بمقدوري تذكر أمور تراءت لي وقت مولدي ، وحينما كنت أقول هذا ، وكان الكبار يضحكون في بادئ الأمر ، ولكنهم بعدئذ ، وفي غمارِ تساؤلهم عما إذا لم يكونوا قد وقعوا ضحية حيلة ما ، ولكنهم كانوا يتطلعون باستياء إلى الوجه الشاحب لذلك الطفل البعيد عن روح الطفولة ، وكان يتصادف في بعض الأحيان أن نقول ذلك في حضرة بعض الزوار الذين لم يكونوا على صلة وثيقة بالعائلة . عندئذ كانت جدتي ، في غمار خوفها من أن تظن البلاهة بي ، تقاطعني بصوت حاد ، وتبلغني بأن عليّ أن أمضي إلى مكان آخر وأن ألهو هناك .

كان الكبار عادة يشرعون ، وما زالوا على ابتسامهم إثر ضحكهم ، في محاولة إفحامي بضرب من التفسير العلمي ، ومجربين اختراع تفسيرات يمكن لعقل الطفل استيعابها ، كانوا دائما يبدءون بالثرثرة في غير قليل من الحماسة المفعمة بالتظاهر ، فيقولون إن عيني الطفل الوليد لا تكونان مفتوحتين بعد لدى الميلاد ، أو إن الطفل الوليد لا يحتمل أن يكون بمقدوره حتى وإن كانت عيناه مفتوحتين تماما- أن يرى الأشياء بوضوح يكفي لتذكرها .

«أليس هذا صحيحا» كانوا يقولونها ، وهم يهزون الكتف الصغير للطفل ، الذي ما كان الاقتناع قد سيطر عليه . ولكنهم عندئذ ، على وجه الدقة ، تخطر لهم فكرة أن حيل الطفل كانت على وشك استدراجهم ، فحتى إذا كنا نظنه طفلا علينا ألا نتخلى عن حذرنا ، مؤكد أن الوغد الصغير يحاول استدراجنا

لنحدثه عن «ذلك» ثم عندئذ ما الذي يحول بينه وبين التساؤل بمزيد من البراءة الطفولية :«من أين جئت؟ وكيف ولدت؟» . وفي النهاية كانوا يمعنون النظر فيّ من جديد صامتين ، وقد تجمدت ابتسامة ، واهنة على شفاههم . مفصحين لسبب ما- لم يكن بمقدوري أبدا أن أعرفه- عن أن مشاعرهم قد جرحت بعمق .

لكن مخاوفهم كانت بلا أساس ، فلم تكن لديّ أدنى رغبة في التساؤل عن «ذلك» ، وحتى لو كنت أرغب في التساؤل ، فقد كان خوفي من جرح مشاعر الكبار بالغا ، بحيث أن فكرة استخدام الخديعة ما كانت لتطرأ لي على بال قط .

ما كان بوسعى الاعتقاد إلا أنني أتذكر مولدى ، أيا كانت كيفية إيضاحهم للأمر ، وبغض النظر عن إبعادهم لي وهم يضحكون . وربما كان أساس ذاكرتي شيئا سمعته من شخص كان حاضرا في ذلك الوقت ، أو ربما لم يتجاوز الأمر خيالي التواق . وأيا كان الأمر ، فقد كان هناك شيء واحد اقتنعت بأنني رأيته بوضوح بعيني رأسي ، هو حافة الحوض ، الذي تلقيت فيه حمامي الأول . كان حوضا جديدا تماما ، تموج سطحه الخشبي برهافة حريرية غضة . وحينما تطلعت من داخله ، كان شعاع من نور يطلم بقعة واحدة على حافته ، التمع الخشب في تلك البقعة وحدها ، بدا كأنه صيغ من نضار ، راحت أطراف ألسنة الماء تتراطم متموجة ، كزنها ستلعق البقعة ، لكنها لم تصلها أبدا ، وسواء كان الأمر يرجع إلى الانعكاس ، أو لأن شعاع النور انساب إلى الحوض كذلك ، فإن الماء تحت تلك النقطة على الحافة راح يلتمع في رقة ، وبدت موجات رقيقة وهاجة وكأنها ترتطم برءوسها معاً هناك . .

كان أقوى تنفيد لهذه الذكرى هو أنني ولدت لا في نور النهار ، وإنما في التاسعة مساء ، وما كان يمكن أن يتدفق شعاع من الشمس وقتها ، ورغم الضيق الذي كان ينتابني لسماع قولهم :«هكذا إذن ، لابد أنه كان ضواءا كهربيا» كان لا يزال بمقدوري أن أمضى إلى عبث الاعتقاد بأنه حتى و إن كان الوقت منتصف الليل ، فمن المؤكد أن شعاعا من ألق الشمس كان يلطم تلك البقعة الواحدة على الأقل في الحوض ، وعلى هذا النحو تأرجحت حافة ذلك الحوض ونورها المتقد في ذاكرتى ، بحسبانها شيئا من المؤكد أنه قد تراءى لي وقت حمامي الأول .

ولدت بعد الزلزال الكبير بعامين . قبل ذلك بعقد من الزمان ، حمل جدى على كاهله عبء آثام أحد مرءوسيه ، واستقال من منصبه كمحافظ بالمستعمرات ، وذلك كنتيجة لفضيحة وقعت آنذاك (لست أتحدث بلطف عن شيء مقيت ، فحتى الآن لم أر مثل هذه الثقة البالغة الحماقة بالبشر التي كان جدى يتمتع بها) . شرعت عائلتي ، عقب ذلك في التهاوى عبر منحدر بسرعة تمازجها اللامبالاة ، حتى ليمكنني القول بأن أفرادها كانوا يصفرون في مرح ، وهم يعانون وقر الديون الهائلة ، فحرمانهم حق استرجاع مرهوناتهم ، ثم بيع ضيعة العائلة ، عقب ذلك تفاقمت الصعوبات المالية ، وتعاظم تأجج لهيب الغرور المريض ، مثلما يتفاقم دافع شرير . .

ولدت ، كنتيجة لهذا ، في حي بعيد عن الفخامة من أحياء مدينة طوكيو ، في دار عتيقة مؤجرة ، كانت دارا تحمل من الادعاء أكثر مما تعكس من الأصالة ، تقع عند ملتقى شارعين ، ذات مظهر بالغ الاختلاط ، تولد إحساسا كابيا وقاتما . كانت لها بوابة جديدية فخيمة ، وحديقة عند مدخلها ، وغرفة

استقبال ذات طراز غربي ، في ضخامة مدخل كنيسة بالضواحي ، كان هناك طابقان في المنحدر الأعلى وثلاثة طوابق في المنحدر الأسفل ، وغرف عديدة كئيبة وست خادمات . وفي هذه الدار ، التي كانت تقعقع مثل خزانة ملابس عتيقة ، كان عشرة أشخاص ينهضون صباحا ، ويخلدون للنوم مساء ، هم جدي وجدتي ، أبي وأمي ، والخادمات .

في غور متاعب العائلة كمن عشق جدي للمشروعات ، ومرض جدتي ، وأفانين إسرافها . وغالبا ما كان جدي يمضي راحلا إلى بقاع نائية ، وقد راودته أحلام ذهبية ، بعد أن تغريه مشروعات يجلبها أصدقاء يثيرون الارتياب . كانت جدتي تنحدر من عائلة عريقة ، وتمقت جدي ، وتشبعه سخرية . كانت روحها ضيقة الأفق ، لا تقهر ، وحشية في شاعريتها ، وعلى نحو غير مباشر وباضطراد راحت حالة مزمنة من الألم العصبي بالجمجمة تلتهم أعصابها ، وتضيف في الوقت نفسه حدة لا جدوى منها إلى ذهنها ، ومن يدري ، أترى نوبات الاكتئاب تلك ، التي واصلت التعرض لها حتى لقيت حتفها ، لا تعدو أن تكون تذكارا للرذائل التي انغمس فيها جدي في ريعان شبابه؟ .

إلى هذه الدار أحضر أبي أمي ، عروسا هشة وفاتنة . في صبيحة الرابع من يناير 1925 هاجمت آلام المخاض أمي ، وفي التاسعة من مساء ذلك اليوم أنجبت وليدا صغيرا ، يزن خمسة أرطال وست أوقيات .

في مساء اليوم السابع لف الطفل في أردية داخلية من الصوف الناعم والحرير الشاحب الصفرة . ألبس كيمونو من الكريب الحريري ذي الزخارف اللامعة . بحضور أهل الدار المجتمعين ، رسمت جدتي اسمي على شريحة مراسيمية من الورق ، وضعتها على منصة التقدمة في ركن الصلاة .

كان شعري يميل إلى الشقرة ، ظل كذلك لوقت طويل ، لكنهم دأبوا على وضع زيت الزيتون عليه ، حتى تحول إلى اللون الأسود أخيرا .

كان والداي يقيمان في الطابق الثاني من الدار ، وبدعوى أنه مما ينطوي على مخاطرة أن تتم تربية طفل في طابق علوي ، انتزعتني جدتي من أحضان أمي في اليوم التاسع والأربعين لمولدي . وضع فراشي في غرفة مرض جدتي الموصدة الأبواب دائما ، والمفعمة بروائح المرض والشيخوخة ، فنشأت هناك إلى جانب فراش مرضها .

حينما أوشكت على إتمام العام الأول من عمري ، سقطت من الدرجة الثالثة في السلم ، فشج جبيني ، كانت جدتي قد ارتادت المسرح ، وكانت بنات عم أبي وأمي يستمتعن على نحو صاخب بهذه الاستراحة ، وانتهزت أمي المناسبة لتصعد بشيء ما إلى الطابق الثاني ، فيما كنت اتبعها ، تعثرت بذيل الكيمونو الذي كانت ترتديه ، فهويت على الدرج .

استدعيت جدتي هاتفيا من مسرح كابوكي ، حينما وصلت ، مضى جدي ليلقاها ، وقفت عند المدخل دون أن تخلع نعليها . منحنية على العصا ، التي تحملها في يدها اليمني ، راحت تحدق في جدي بنظرة ثابتة ، عندما تحدثت تناهي صوتها هادئا على نحو غريب ، كأنما تنحت كل كلمة تلفظها :

- أمات؟

- لا .

عندئذ نزعت نعليها ، اجتازت المدخل ، عبرت البهو بخطى واثقة ، تحاكي خطى راهبة . . .

صبيحة العام الجديد ، وقبيل عيد ميلادي الرابع ، لفظت شيئا في لون القهوة ، فاستدعى طبيب العائلة ، بعد أن فحصني قال بأنه ليس على يقين من أني سأسترد عافيتي ، حقنت بالكافور وسكر العنب حتى غدوت كوسادة الدبابيس ، أصبحت النبضات عند رسغي وفي أعلى ذراعي غير محسوسة .

انقضت ساعتان ، فوقفوا يحدقون في جثماني .

أعد كفن ، لملمت لعبي الأثيرة ، اجتمع الأقارب كلهم ، انقضت ساعة أخرى تقريبا ، ثم فجأة ظهر البول ، قال خالي ، وكان طبيبا :«إنه حي!» أضاف :إن ذلك يوضح أن القلب استأنف الخفقان .

بعد قليل ، عاود البول الظهور ، تدريجيا استرد خداي نور الحياة .

أصبح ذلك المرض- التسمم التلقائي-مزمنا عندي ، يداهمني مرة كل شهر ، برفق حينا ، وفي خطورة حينا آخر ، واجهت أزمات عديدة قادرا على استشعار ما إذا كانت نوبة ما سترقى بي إلى الموت من عدمه ، من خلال دبيب أقدام المرض ، فيما هو يدنو .

إلى هذا الوقت على وجه التقريب تعود أقدام ذكرياتي ، ذكرى لا يعلق بها تساؤل . ما انفكت تطاردني بصورة نابضة بالحياة ، ومتوهجة على نحو غريب .

لست أدرى ما إذا كانت أمي هي التي تمضي بي ممسكة بيدي ، ممرضة ، خادم ، أو إحدى عماتي ، لم يكن الفصل محددا كذلك ، تساقطت أشعة شمس الأصيل كابية على الدور المتناثرة على المنحدر ، رحت أتسلق المنحدر ، نحو الدار ، ويد امرأة غائمة الذكرى تمسك بي . أحدهم كان يقبل هابطا

المنحـدر ، فـثنت المرأة ذراعي ، تنحـينا عن الطريق ، ومكثنا ننظر على أحـد الجانبين .

ما من شك في أن صورة ما رأيته آنذاك قد اكتست معنى من جديد ، في كل مرة من المرات التي لا حصر لها ، والتي أعدت النظر فيها من خلالها ، تكاثف زخمها ، وتركزت في بؤرة النظر ، لأنه عبر المنظور الغامض والضبابي لذلك المشهد لم ينتصب شيء في جلاء يختل تناسبه مع باقي مكونات المشهد بقدر ما بدا ذلك الشخص المقبل منحدرا عبر التل ، ولم يكن ذلك دونما سبب ، فقد كانت هذه الصورة ذاتها أولى الصور التي قدر لها أن تواصل تعذيبي وبعث الذعر في نفسي طوال عمري .

كان فتى شابا ذلك الذي أقبل منحدرا نحونا . متورد الخدين ، لامع العينين ، يعتمر لفافة قذرة من القماش ، ليحول دون انسياب العرق إلى عينيه ، أقبل عبر المنحدر حاملا على أحد كتفيه نيراً مثقلا بدلوين حفلا بسماد بشرى ، راح يوازن ثقلهما في اقتدار بخطواته . كان جامعا للسماد البشري ، ملتقطا للبقايا ، يرتدي ملابس كادح ، ينتعل فردتي حذاء ، تطل منهما أصابع قدميه ، لهما نعلان من المطاط وأعلاهما من قماش القنب الأسود ، يكتسي سراويل من القطن . قاتم الزرقة ، من النوع الضيق الذي يدعى بالشداد .

كانت النظرة التي حدجته بها شيئا غير مألوف من طفل في الرابعة ،وعلى الرغم من أنني لم أدرك الامر بجلاء في ذلك الوقت ، فقد مثل هذا الشاب لي كشفى الأول لقوة معينة ، النداء الأول الذي وجهه لي صوت غريب وسرى . ومما له مغزاه أن يتجلى لي هذا في صورة ملتقط للبقايا ، فالبراز رمز للأرض ، كان العشق الحارق للأرض الأم هو دونما شك الذي يناديني .

راودني ، عندئذ ، شعور يستبق الأحداث بأن هناك في هذا العالم لونا من الرغبات يحاكي ألما لاذعا . فيما كنت أحدق في ذلك الشاب القذر خنقتني الرغبة ، رحت أفكر :«أريد أن أتغير فأصبح إياه» وأمعن التفكير «أريد أن أكونه» بوسعي أن أتذكر بجلاء أن رغبتي كانت لها نقطتان بؤريتان ، الأولى هي «شداده» القاتم الزرقة ، والأخرى هي مهنته ، كانت السراويل الضيقة تحدد في وضوح معالم النصف الأسفل من بدنه ، الذي كان ينساب لدنا . بدا لي كما لو كان يسير مباشرة نحوى ، ولد بأعماقي هيام يستعصي على الإفصاح بتلك السراويل ، ولم أفقه لذلك سببا .

أما مهنته . . . في تلك اللحظة ، وعلى النحو ذاته الذي تتملك فيه الأطفال الآخرين بمجرد تلقيهم هبة التذكر الرغبة في أن يصبحوا قادة عسكريين ، قبض على ناصيتي طموح لأن أغدو جامع بقايا ، ربما يضرب هذا الطموح جذوره إلى حد ما في السراويل القاتمة الزرقة ، لكن الأمر بالتأكيد لايقتصر على ذلك حصرا . مع مرور الوقت غدا هذا الطموح أكثر عتوا وايغالا في أعماقي ، وشهد تطورا غريبا .

ما أقصده هو أنني شعرت حيال مهنته بشيء يحاكي أسى نفاذا ، أسى يهصر البدن ، منحتنى مهنته الشعور بالمأساة بأكثر معاني الكلمة حسية ، شعور معين بالتخلى عن الذات ، إحساس محدد باللامبالاة ، شعور بعينه بالحميمية مع الخطر . شعور يحاكي مزيجا متميزا من العدم وقوة حيوية ، إندفعت هذه المشاعر كافة من ندائه ، انقضت عليّ ، فأسرتني في الرابعة من عمري ، لربما كان فهمي لمهنة جامع البقايا يجانبه الصواب ، ربما حدثوني عن مهنة أخرى مختلفة ، ربما ضللني رداؤه ، فأرغمت على أن أضع عمله في إطار النموذج الذي

سمعت عنه ، لا يسعنى فيما عدا ذلك إيضاح الأمر .

لا بد أن الأمر كان كذلك ، لأن طموحي حولته تلك الانفعالات ذاتها إلى سائقى الهانا- دينشا ، تلك العربات المرحة الزخارف والمثقلة بالزهور لأيام الاحتفالات ، أو إلى عمال بطاقات القطارات الأرضية ، فقد أثارت المهنتان فيّ انطباعا قويا بحيوات مأساوية أجهلها ، بدت لي وكأنما حجبت للأبد عني ، كان هذا صحيحا بصفة خاصة في حالة عمال البطاقات ، فاختلطت في ذهني صفوف الأزرار الذهبية على سترات أردية عملهم الزرقاء بالروائح المتدفقة عبر الانفاق في تلك الأيام ، كانت تحاكي رائحة المطاط أو النعناع ، وتستدعي ما يرتبط في الذهن بالأمور المأساوية ، شعرت على نحو ما بأنه أمر مأساوي بالنسبة لشخص ما أن يكسب ما يقيم أوده وسط مثل هذه الرائحة ، شكلت ضروب الوجود والأحداث التي تقع دون أن يكون لها علاقة بي ، والتي تحدث في أماكن لم تكن تخاطب حواسي فحسب ، وإنما كانت فضلا عن هذا محظورة عليّ ، بالاضافة إلى الأشخاص المنغمسين فيها ، تعريفي للأمور المأساوية ، بيد أن حزني إزاء الحيلولة بيني وبينها قد تحول في أحلامي إلى حزن على أولئك الأشخاص وطرق حياتهم ، وأنه من خلال حزني وحده كنت قادرا على مشاركتهم ضروب وجودهم .

إذا كان الامر كذلك ، فان ما يدعى بالامور المأساوية ، والتي شرعت في إدراكها ، ربما لم تتجاوز كونها ظلالا ألقاها التجلي العابر للحزن ، والذي سيتعاظم في المستقبل . والنابع من انعزال أكثر اتساما بالوحدة ، كان لا يزال في انتظاري .

هناك ذكرى باكرة أخرى ، ، تدورحول كتاب مصور ، ورغم أنني تعلمت

القراءة والكتابة في الخامسة من عمري ، فإنني لم أستطع قراءة الكلمات في ذلك الكتاب ، من هنا فلابد أن هذه الذكرى بدورها تعود إلى سن الرابعة .

كان لدى عديد من الكتب المصورة ، لكن خيالي لم ينفرد بالسيطرة عليه تماما إلا هذا الكتاب ، إلا صورة واحدة فيه ، كانت تجعل عينيّ مفتوحتين عليها دائما ، استطعت أن اقضى أصائل طويلة ومضجرة أحدق فيها ، ومع ذلك فما أن يقبل أحد حتى يراودني شعور بالذنب ، دونما سبب ، فأهرع إلى تقليب الكتاب إلى صفحة مختلفة ، كانت يقظة الممرضة أو الخادم في مراقبتي تضايقني ، على نحو لايطاق ، فساورني الحنين إلى حياة تسمح لي بالتحديق في الصورة طوال اليوم ، ما إن كنت التفت إلى هذه الصفحة حتى يتسارع وجيب قلبي ، وما من صفحة أخرى عنت شيئا لي .

كانت الصورة تمثل فارسا نبيلا يمتطي صهوة جواد أبيض ويمتشق حساما . كان الجواد ، وقد اتسعت خياشيمه ، يفحص الأرض بقوائم عفية ، وثمة شعار بديع للنبالة يوشى الدرع الفضى الذي يسبغه الفارس على بدنه ، ويطل وجه النبيل الفاتن عبر مقدمة النموذج ، فيما يلوح بسيفه المسلول على نحو مخيف في السماء الزرقاء ، مواجها الموت ، أو على الأقل شيء مندفع ينضح قوة شريرة ، كنت أعتقد أنه سيلقى مصرعه في اللحظة التالية ، فإذا ما سارعت بتقليب الصفحة فيقينا سأراه هناك يلقى مصرعه يقينا ثمة ترتيب يمكن بمقتضاه ، وقبل أن يعرف المرء الأمر ، تحويل الصور في الكتب المصورة لتمثل «اللحظة التالية» .

لكن المصادفة جعلت ممرضتي تفتح الكتاب على تلك الصفحة ، فيما كنت أختلس نظرات جانبية سريعة إليها ، قالت :

- أيعرف السيد الصغير حكاية هذه الصورة؟

-لا ، لا أعرفها .

إنها تبدو كالرجل ، لكنها امرأة ، صحيح ، واسمها جان دارك ، تقول القصة إنها انطلقت للحرب في رداء الرجال ، وعلت بشأن بلادها .

- امرأة . . .؟

أحسست كما لو أن ضربة أصابتني ، فألقتني صريعا ، كان الشخص الذي ظننته رجلا امرأة ، فإذا كان هذا النبيل بهى الطلعة امرأة فما الذي يبقى؟ (لا زالت حتى اليوم استشعر اشمئزازا ضارب الجذور عصى التفسير حيال النساء اللاتي يرتدين ملابس الذكور) كان هذا هو أول «انتقام من خلال الواقع» ألقاه في الحياة ، بدا لي انتقاما قاسيا ، خاصة عقب التصورات العذبة التي راودتني حول موته . منذ ذلك اليوم لم ألق بالا إلى ذلك الكتاب المصور ، لم أحمله بين يدي أبدا مرة أخرى . وقدر لي أن اكتشف ، بعد سنوات ، تمجيدا لموت نبيل بهى الطلعة في مقطع شعرى لأوسكار وايلد يقول :

بهى هو الفارس الذي يرقد ذبيحا

وسط الأسل والقصب . . .

في روايته بعنوان «السفح» يناقش يوسمان شخصية جى ديرى ، حارس جان دارك الخاص ، بمقتضى الأمر الملكي الذي أصدره شارل السابع ، فيقول إن الدافع الأصلى لنزعته الصوفية قد انبعث من مشاهدته بعيني رأسه الأعمال التي اجترحتها جان دارك ، وذلك على الرغم من أن هذا الدافع سرعان ما ارتكس إلى «أكثر ضروب القسوة تعقيدا وأفظع الجرائم» وعلى الرغم من أنها

كان لها تأثير مناقض بالنسبة لي ، حيث كانت تثير فيَّ شعوراً بالاشمئزاز ، فإن عذراء أوليان لعبت كذلك دورا مهما في حالتي .

ثمة ذكرى أخرى أيضا ، هي رائحة العرق ، وهي رائحة كانت تدفعني إلى أعماقي ، وتثير أشواقي ، فتقهرني . . .

منصتا أسمع صوت جلبة مكتومة وبالغة التهافت ، تبدو كما لو كانت وعيدا ، هنيهة ويشارك بوق في الضجيج ، يتناهي صوت غناء بسيط حزين على نحو غريب ، أجذب يد الخادم ، أحثها لتسرع الخطى أتوهج رغبة في الوقوف عند البوابة ، وقد شبكت ذراعيها حولي .

كان الجنود يمرون ببوابتنا عائدين من التدريب ، وهم مولعون بالأطفال . كنت أتوق دوما إلى تلقى بعض الطلقات الفارغة منهم ، ولما كان جدي قد منعني من قبول هذه الهدايا ، قائلا إنها خطرة ، فقد شحذت مباهج الاختلاس ترقبي ، في الوطء الثقيل لأحذية الجيش والأزياء العسكرية الملطخة وغابة البنادق التي تعلو الكواهل الكفاية ليفتتن أي طفل تماما ، لكن رائحة عرقهم التي كانت تفتنني ، مشكلة مثيرا يقبع خفيا في أغوار أملى في أن أتلقى منهم الطلقات الفارغة .

رائحة عرق الجنود ، تلك الرائحة التي تحاكي نسيم البحر ، كالهواء وقد احترق فاستحال نضارا فوق الشاطئ ، كانت تلطم خياشيمي ، وتسمم دمي . لربما كانت تلك أولى ذكرياتي عن الروائح ، ومن الغنى عن البيان أن الرائحة ما كان يمكن أن تكون لها في ذلك الوقت علاقة مباشرة بالأحاسيس الجنسية ، لكنها تدريجيا وفي عناد أثارت فيَّ توقا حسيا إلى أمور من نوعية مصير الجنود

والطبيعة المأساوية لندائهم ، والأصقاع النائية التي يرونها ، والطرق التي يلقون حتفهم بها . . .

هذه الصور الغريبة كانت أول الأشياء التي واجهتها في الحياة ، منذ البداية انتصبت أمامي في صمت اكتمالها المهيمن ، لا ينقصها شيء واحد ، وفيما بعد كنت أنظر إليها بحسبانها ينابيع مشاعري وتصرفاتي ، ومجددا ما كان ينقص شيء .

أبدا لم تنحرف أفكاري عن الوجود الإنساني . منذ الطفولة مرة واحدة عن نظرية القديس أوجستين في القضاء والقدر . عذبتني شكوك لا طائل وراءها مرارا وتكرارا- على نحو ما تواصل تعذيبي اليوم- لكنني نظرت إلى مثل هذه الشكوك باعتبارها نوعا آخر من الاغراء باقتراف الخطيئة ، وظللت على يقيني بأرائي الجبرية . لقد أعطيت ، وما زلت أصغر من أن أطالع ما منحت ، ما يمكن أن يدعى بقائمة كاملة تضم كافة المتاعب في حياتي ، بل دون في هذه القائمة قيامي بتدبيج كتاب غريب كهذا على وجه الدقة ، وكان هناك أمامي ناظري منذ البداية .

مرحلة الطفولة ساحة يتشابك فيها الزمان والمكان ، فهناك على سبيل المثال الأنباء التي أتلقاها عن الكبار حول وقائع تجرى في أصقاع شتى- ثورة ، بركان ، أو لنقل انتفاضة جيش- والأمور التي تحدث أمام عيني- نوبات مرض جدتي ، أو منازعات العائلة الصغيرة- والأحداث الخيالية لعالم الأقاصيص الخرافية ، الذي شرعت وقتذاك في الانغماس فيه . بدت لي هذه الأمور الثلاثة دائما متكافئة القيمة كأنها الكل في واحد . لم يكن بمقدوري تصديق أن العالم يفوق في التعقيد بناء سكنيا ، أو أن ما يسمى بالكيان الاجتماعي الذي يتعين

عليّ في التو أن أجده يمكن أن يكون أكثر إبهارا من عالم الأقاصيص الخرافية ، هكذا شرعت إحدى القوى التي قررت حياتي تمارس عملها دون أن أدري ، وبسبب صراعي معها منذ البداية ، امتزجت كافة تصوراتي باليأس ، الذي كان غريبا في إطباقة ، ويحاكى في ذاته رغبة مفعمة بالعاطفة .

ذات ليلة ، رأيت وأنا أطل من فراشي مدينة متألقة ، تطفو عبر رحاب الظلام ، الذي يجثم حولي ، بدت غريبة لا تزال ، ومع ذلك تتدفق بريقا وغموضا استطعت أن ألمح بوضوح لمسة صوفية ترتسم على ملامح الأشخاص في تلك المدينة ، كانوا كبارا ، يعودون إلى الدور في قلب الليل ، ومازالوا يحملون في الحديث أو الإيماء آثار شيء كالإشارات السرية وردودها ، شيء يقطر سرية فضلا عن هذا برق في ملامحهم وهن ألاق ، جعلهم يخشون أن يحدق فيهم أحد ملء عينيه ، كما هو شأن الأقنعة التي توضع على الوجوه في مسرح العطلات ، والتي تخلف مسحوقا فضيا على أطراف الأصابع حين يلمسها المرء ، بدا لي أنني لو استطعت فحسب أن ألمس وجوههم ، لكان بمقدوري أن أكتشف لون الأصابع التي طلتهم بها المدينة الليلية .

في التو ، رفع الليل أمام عيني مباشرة ستارا كشف النقاب عن خشبة المسرح التي كانت شوكوكيوساى تنكاتسو تؤدي فوقها ألعابها السحرية (كانت آنئذ في واحدة من مرات ظهورها النادرة على المسرح في مقاطعة شنجوكو ، وعلى الرغم من أن استعراض الساحر دانتي ، الذي شاهدته في المسرح ذاته عقب ذلك بسنوات كان على نطاق يفوق عرضها بكثير ، فإن أيا من دانتى أو العرض الشامل لسيرك هاجنبيك لم يفلح في ادهاشى ، على نحو ما نجحت مشاهدتي الأولى لتنكاتسو) .

كانت تتكئ في تكاسل على خشبة المسرح ، وقد ألتف بدنها الوافر في أثواب كأثواب البغى الكبرى يوم الدينونة ، وعلى ذراعيها التمعت أساور تكومت فوقها الأحجار الكريمة الزائفة ، كانت زينتها ثقيلة ، مثل زينة مغنيات الاهازيج الشعبية ، بطبقة من المسحوق الأبيض تمتد حتى أطراف أظافر قدميها ، وانسدل عليها رداء مبهرج ، أسلمها إلى ضرب من الرونق الحيواني ، لا ينعكس إلا عن إدعاء تجاري كاذب ، رغم ذلك فإن هذا كله حقق بشكل ما نوعا من التناسق على نحو سوداوي مع تفاخرها النابع من شعورها بالأهمية ، الذي يتميزبه السحرة والنبلاء المنفيون على السواء ، ومع فتنتها الكئيبة ، ومظهرها البطولي . لقد أنبتت الحبة الرقيقة للظل الذي ألقته هذه العناصر المجردة من التناسق وهمها المذهل والفريد عن التناسق .

أدركت ، وإن يكن على نحو غامض ، أن الرغبة في أن «أغدو تنكاتسو» وأن «أصبح سائق حافلة عامة» تختلفان من حيث الجوهر ، وكان أبرز تباين بينهما هو الحقيقة القائلة بأن التوق في حالة تنكاتسو إلى «السمة المأساوية» كان غائبا كلية على وجه التقريب ، فلم يكن عليّ في غمار رغبتي في أن أصبح تنكاتسو أن أتذوق ذلك الخليط المرير من الحنين والعار . مع ذلك ، فقد تسللت ، ذات يوم ، محاولا ما وسعتني حيلتي أن أسكن دقات قلبي الخافقة إلى حجرة أمي ، وفتحت أدراج خزانة ثيابها .

سحبت من بين أثواب أمي أكثرها جمالا ، كيمونو تصبغه أكثر الألوان جرأة . واخترت أوبي[1] تعلوه زهور زيتية فاقعة الحمرة كزنار لي ، لففته حول خصري مرات عديدة ، كما يفعل باشا تركي ، غطيت رأسي بغطاء من قماش

1- الاوبي زنار ياباني عريض. (هـ.م).

الكريب الصيني ، تألق خداى بحمرة سرور وحشى ، حينما وقفت أمام المرآة ، ورأيت أن ما اعتمرته يحاكي ما يعتمره القراصنة في «جزيرة الكنز» .

لكن عملى لم يكن قد انتهى بعد ، كان من الضروري جعل كل التفاصيل حتى أطراف أظافر أصابعي جديرة بإبداع الأحجية . دفعت بمرآة يد في زنارى ، و ضعت المساحيق ثقيلة على وجهى ، ثم سلحت نفسي بمشعل كهربى فضى اللون وقلم عتيق الطراز من معدن مثقل بالزخارف وأي شيء آخر لفت نظرى .

اصطنعت الوقار ، اندفعت على هذا النحو إلى غرفة جلوس جدتي . في غمار عجزى عن كبت ضحكي وسروري المهتاجين ، اندفعت أعدو في الغرفة صائحاً :

«أنا تنكاتسو! إياى ، أنا تنكاتسو!» .

كانت جدتي هناك طريحة الفراش ، وأمي أيضا ، وزائرة ، وخادم عهد إليها بالعناية بالغرفة ، لكن شخصا واحدا لم يلح أمام عيني ، وتركزت نوبتي على الوعي بأنه من خلال تشخيصي كانت تنكاتسو تتجلى أمام أعين عديدة ، وباختصار لم أكن أرى إلا نفسي .

ثم تصادف أن لمحت وجه أمي ، كان الشحوب قد علاها قليلا ، جلست هناك ببساطة ، كأنما جالت بأفكارها بعيدا ، التقت نظراتنا ، فغضت ناظريها .

فهمت . أغشت الدموع ناظري .

ما هو ذلك الذي فهمته أو أوشكت على فهمه؟ هل ظهر هنا الدافع الذي سيتجلى فيما بعد أي «الندم كمقدمة للخطيئة» في أولى إشارات بدايته؟ أم

ترى كانت هذه اللحظة تعلمني إلى أي حد ستبدو عزلتي للعيون المحبة؟ أكنت أتعلم في الوقت نفسه من الجانب المعكوس لهذا الدرس عجزى عن تقبل الحب؟ . . .

أمسكت بي الخادمة في إحكام، وصحبتني إلى غرفة أخرى، وفي لحظة وكأنما كنت دجاجة يتعين نزع ريشها. جردتني من زيي التنكري المفرط في الخيال.

تفاقم ولعى بمثل هذه الأردية، حينما شرعت في ارتياد دور السينما، واستمر على نحو ملحوظ حتى التاسعة من عمري.

ذات مرة مضيت مع صبي يعمل بالدار في الوقت الذي يواصل فيه الدراسة لمشاهدة فيلم عن أوبريت «فرادياڤولو». وكان الممثل الذي يقوم بدوردياڤلوا يرتدي ثوبا للتشريفة لا ينسى، ذا سلسلة من شرائط الزينة عند الرسغين، وحينما قلت إنني أود ارتداء ثوب كهذا ووضع شعر مستعار يحاكي شعر ذلك الممثل، انفجر رفيقي في الضحك ساخراً، رغم ذلك كنت أعلم أنه كان يسلى الخادمات في جناحهن في الغالب بمحاولات شخصية الأميرة يجاكي في الكابوكية المعروفة[1].

فتنت بكليوباترا بعد تنكاتسو، ذات يوم رقشه الجليد في نهاية شهر ديسمبر، استجاب طبيب تربطه صداقة بالعائلة لتوسلاتي، وصحبني لمشاهدة فليم عنها، ولما كان العام يدنو من نهايته كان عدد النظارة محدودا، فوضع الطبيب قدمه على الحاجز، وغرق في النوم، وحيدا رحت أتطلع في حدة مفتون

1- الكابوكية مسرحية يابانية شعبية يصحبها غناء ورقص. (هـ.م).

اللب تماما ، كانت ملكة مصر تدخل روما مرفوعة فوق محفة عتيقة الطراز ، بديعة الصنع ، تحملها كواهل رهط من العبيد ، عينان حزينتان ، يعلو ظل العيون كثيف الجفون ، زينتها التي تبدو منتمية إلى عالم آخر ، ثم جسدها نصف العاري ، الكهرماني اللون ، يتراءى للعيون ، مجترحا الخروج من سجادة فارسية .

في هذه المرة راوغت أعين جدتي ووالديّ ، وبمساعدة أختي وأخي الصغيرين الذين تواطآ معي ، وفي غمار بهجة عارمة ، عكفت على محاكاة كليوباترا في زيها وزينتها ، ما الذي كنت أرجوه من وراء هذا الرداء الأنثوي؟ لم أكتشف إلا بعد ذلك بوقت طويل آمالا تحاكي تلك التي راودتني ، وذلك عند هيلوجابالوس إمبراطور روما في عهد تحللها ، الذي ألحق الدمار بآلهتها القدامي ، ذلك الامبراطور المتحلل ، بهيمى الطباع .

مثل جامع البقايا ، وعذراء أورليان ، ورائحة العرق المنبعثة من الجنود نوعا من الاستهلال لحياتي ، وشكلت تنكاتسو وكليوباترا استهلالا آخر ، وثمة استهلال ثالث ينبغي أن أتحدث عنه .

على الرغم من أنني في طفولتي طالعت كل الأقاصيص الخرافية التي استطاعت يداى الوصول إليها . فلم يحدث أبدا أن احببت الاميرات ، كنت مولعا بالأمراء فحسب ، وأكثر ولعا بالأمراء الذين يلقون مصرعهم ، أو قدر لهم الموت ، أحببت حبا جما أي شاب يلقى منيته صريعاً .

لكنني لم أفقه لِمَ ألقت قصة «عفريت الورد»- من بين أقاصيص اندرسون جميعها ظلالا غائرة على قلبي ، وحده ذلك الفتى الجميل ، الذي أطاح شرير برأسه مستخدما سكينا هائلة ، فيما كان هو يقبل وردة منحتها له حبيبته هدية- أثر في نفسي لم أفهم السبب في أنه من بين أقاصيص وايلد

العديدة لم تأسرني إلا جثة الصياد الشاب في قصة «الصياد وروحه» ، وقد ألقتها الأمواج على الشاطئ ضامة إلى الصدر عروس بحر .

ومن الطبيعي أنني كنت مولعا بما فيه الكفاية كذلك بالأمور الطفولية الأخرى ، فهناك قصة «البلبل» لأندرسون التي أحببتها كثيراً ، كما أبهجني العديد من كتب الأطفال الفكاهية ، لكن ميل قلبي إلى الموت والليل والدم كان أمراً لا ينكر .

طاردتني رؤى «الأمراء الصرعى» في عناد . منذ أن كان بوسعه أن يفسر لي لماذا كنت أبتهج بتصورات ترتبط فيها السراويل الضيقة التي تكشف الجسد والتي يرتديها الأمراء بمصارعهم القاسية؟ هناك قصة خرافية مجرية أذكرها بنوع خاص في هذا الصدد ، وقد أسرت قلبي لفترة طويلة لوحة تصور تلك القصة بواقعية مفرطة .

كانت اللوحة المطبوعة بألوان بدائية تصور الأمير مرتديا سراويل سوداء وسترة وردية اللون ، توشيها زخارف منسوجة بالذهب على الصدر ، وعلى كتفيه تدلت حرملة قاتمة الزرقة ، يتألق فيها خط متوهج الحمرة ، ويلتف حول خصره حزام ، يجمع بين اللونين الأخضر والذهبي ، كان مزودا بخوذة خضراء مذهبة ، وسيف فاتح الحمرة ، وجعبة من الجلد الأخضر ، أما يده اليسرى ، التي علاها قفاز من الجلد الأبيض ، فكانت تمسك بقوس ، فيما جثمت يده اليمنى على أحد فروع شجرة عتيقة من اشجار الغابة . كان ينظر بمحيا جاد آمر إلى العنق المخيف للتنين الهائج ، الذي كان يوشك أن ينقض عليه . ارتسم على ملامحه عزم من يوشك على ملاقاة الموت ، ولو أن ذلك الأمر قدر له أن يخرج من نزاله مع التنين ظافراً ، فما أضعف ما كان يمكن أن يكون عليه افتتاني به ، لكنه

لحسن الحظ كان مقدرا له أن يموت .

غير أن قدر الموت الذي كتب له لم يكن لأسفى كاملاً ، فلكي ينقذ أخته ويتزوج أميرة جميلة كان عليه أن يتحمل سبع مرات محنة الموت ، وبفضل القوى السحرية التي تتمتع بها ماسة كان يضعها في فمه ، بعث سبع مرات ، وأخيرا عاش سعيدا بعد ذلك .

صورت اللوحة مشهدا يسبق الموت الأول مباشرة ، حيث يلتهم التنين الأمير ، وعقب ذلك «أمسكت به عنكبوت هائلة ، وإثر تسميم جسمه بالسم تماماً التهم في نهم» ، من جديد أغرق ، وجرى شيه في النار ، ولدغته الزنابير ، وعضته الثعابين ، وألقى جسده إلى حفرة حفلت بعدد لا يمكن التعبير عنه من السكاكين الهائلة المشرعة ، وسحقته حتى الموت صخور لا حصر لها تهاوت متساقطة عليه «منهمرة كالمطر» .

ووصف موته من خلال التهام التنين له بتفصيل خاص :

«دون إحجام للحظة واحدة ، مضغ التنين الأمير بشراهة فأحاله أشلاء ، كان ذلك يفوق مايسعه احتماله على وجه التقريب ، لكن الأمير استجمع أطراف شجاعته ، وتحمل العذاب في صمود حتى مضغ كلية أخيرا إلى مزق ، وعندئذ وفي لمحة أعيد فجأة تجميعه ثانية ، فقفز في براعة من فم التنين ، لم يكن هناك خدش واحد في أي موضع من جسده ، والتنين هوى إلى الأرض ، ومات في موضعه» .

قرأت هذه الفقرة مئات المرات ، لكن العبارة القائلة :«لم يكن هناك خدش واحد في أي موضع من جسده» بدت لي خللا لا يمكن أن يمضي دون تصد له ،

شـعـرت لـدى مطالعـتـهـا بأن المؤلف خـذلني ، وارتكب خطأ خطيـرا في وقت واحد .

وسـرعان مـا توصلت بالصدفة إلى اكتـشـاف ، وتمثل هذا الاكـتـشـاف في قراءة الفقرة مع إخفاء المقطع التالي تحت يدي : «أعيد فجأة تجميعه ثانية ، فقفز في براعة من فم التنين ، لم يكن هناك خدش واحد في موضع من جسده ، أما التنين» وعند ذلك ستصبح القصة مثالية في سردها على النحو التالي :

«دون إحجام للحظة واحدة ، مضغ التنين الأمير بشراهة ، فأحاله أشلاء ، كان ذلك يفوق ما يسعه احتـماله على وجه التـقريب ، لكن الأمير استجمع أطراف شجاعته ، وتحمل العذاب في صمود حتى مضغ كلية أخيرا إلى مزق ، وعندئذ وفي لمحة «هوى إلى الأرض ، ومات في موضعه» .

كان حريا بأحد الكبار على وجه اليقين أن يرى عبث مثل هذا المنهاج في تقطيع النص ، بل إن ذلك الرقيب الصغير المتشدد رصد التناقض الكامل بين القـول بأن الأمـيـر مـضغ كليـة إلى مـزق والقـول بأنه هوى إلى الأرض ، لكن تصوراته فتنته في يسر ، ووجد أنه لا يزال من المستحيل نبذ أي من العبارتين .

من ناحية أخرى داخلتني البهجة في غمار تصور مواقف كنت أنا نفسي ألقى مصرعي فيـها خلال معركة أو أقتل غيلة ، ومع ذلك كنت أخشى الموت بصورة غير عادية ، وعلى نحو قوى ، كنت أستأسد على إحدى الخادمات في أحد الأيام حتى أدفعها إلى البكاء وفي صباح اليوم التالي أراها تقدم طعام الإفطار بوجه باسم على نحو مرح ، وكأنما لم يحدث شيء ، عندئذ كنت أطالع كافة المعاني الشريرة في ابتساماتها ، ما كنت لأصدق إلا أن هذه الابتسامات هي ابتسامات شيطانية تنبع من الثقة الكاملة بالفوز . كنت على يقين بأن

الخادمة تتآمر لدس السم لي في الطعام بدافع الانتقام، راحت أمواج الخوف تزمجر في صدري، تيقنت أن السم قد دس في صحفة الحساء، وما كنت لأمسها، ولو منحت مقابلها العالم كله. انهيت عديدا من مثل هذه الوجبات، بالقفز عن المائدة والتحديق في الخادمة، وكأنما لأقول لها:

«هكذا!». بدا لي أن المرأة بلغ بها الاستياء لإحباط خططها لتسميمي الحد الذي لا تستطيع معه النهوض، وإنما التحديق فحسب عبر المائدة إلى الحساء الذي غدا باردا تماما، وطفا بعض الغبار على سطحه، وتحديث نفسها بأنني تركت الكثير منه بحيث أن السم لن يسرى مفعوله.

حظرت جدتي عليّ اللهو مع أطفال الحي خوفا على صحتي الهشة، وكنلك لمنعي من تعلم أمور سيئة منهم، وباستثناء الخادمات والممرضات كانت رفيقاتي في اللهو ثلاث طفلات اختارتهن جدتي من فتيات الحي. كان أدنى ضجيج يؤثر على ألم جدتي العصبي. كالفتح أو الإغلاق العنيفين للباب. النفخ في لعبة على هيئة بوق، المصارعة، أو إحداث أي صوت مسموع، أو اهتزاز من أي نوع، وتعين أن يصبح لهونا أكثر هدوءا حتى عما هو مألوف بين الفتيات الصغيرات، كنت أفضل على هذا كثيرا أن انفرد بنفسي وأطالع كتابا، ألهو بمكعبات البناء، أنغمس في أخيلتي التواقة، أو أرسم بعض الصور، وحينما ولدت أختي وأعقبها أخي لم يعهد بهما إلى جدتي على نحو ما حدث لي، وحرص أبي على تنشئتهما بحرية تلائم الأطفال، ومع ذلك لم أحسدهما كثيرا على حريتهما وفظاظتهما.

لكن الأمور كانت تختلف حينما أمضى لزيارة دور أبناء أعمامي، عندئذ كنت أدعى ولدا، ذكرا، وقعت حادثة ينبغي أن تروى في مطالع ربيع عامي

السابع ، قبيل التحاقي بالمدرسة الابتدائية خلال زيارة دار إحدى بنات عمومتي وسأدعوها هنا رمزا باسم سوجيكو ، لدى وصولنا إلى هناك ، وكانت جدتي قد اصطحبتني معها ، رقت بي والدة ابنة عمتي إلى عليين ، بما أمطرتني به من آيات الثناء قائلة :«لكم كبر! يا للضخامة التي غدا عليها!» وبلغ من سرور جدتي لهذا الثناء الحد الذي منحتنى معه إعفاء خاصا . كانت حتى ذلك الوقت تخشى هجمات التسمم الذاتي المتكررة التي سبق لي أن أشرت إليها ، حتى أنها منعتني من تناول كافة الأسماك ، «ذات الجلد الأزرق» وحدد طعامي بدقة ، فلم يسمح لي من الأسماك إلا بتناول الأنواع ذات اللحم الأبيض ، مثل الهلبوت ، أو سمك الترس ، أو النهاش الأحمر ، ومن البطاطس لم يصرح لي بغير المهموك منها والمصفى بمصفاة الطعام ، ومن الحلوى حظرت على كافة أنواع المربى ذات البذور ، وما أتيح لي إلا الرقائق الخفيفة وأنواع الفطير الهشة ، وما إلى ذلك من الحلوى الجافة ، ومن الفواكه لم يسمح لي إلا بالتفاح المقطع إلى شرائح رفيعة أو قطع صغيرة من اليوسفى . ومن هنا فقد تناولت في هذه الزيارة أول سمكة لي من ذوات الجلد الأزرق ، وكانت سمكة صفراء الذيل ، التهمتها بغبطة هائلة ، كان مذاقها الطيب يعني بالنسبة لي أنني قد سمح لي بتلقى أول حقوق الكبار التي أنالها ، لكنها في الوقت نفسه خلفت لي نكهة مريرة على طرف لساني ، قوامها الشعور بعدم الارتياح ، وهو شعور انتابني إذ أصبحت من الكبار ، وما زال يردني إلى إحساس بعدم الارتياح كلما تذوقت ذلك السمك .

كانت سوجيكو فتاة تفيض صحة ، مفعمة بالحياة . لم أستطع أنا ذاتي المضى للرقاد بسهولة ، وحينما كنت أمكث في دار سوجيكو ، وأرقد في الغرفة ذاتها وعلى حشية قريبة من حشيتها ، اعتدت أن أراقب ، بمزيج من الحسد والاعجاب ، الكيفية التي تغط بها في النوم دائما لحظة أن تضع رأسها على

Twitter: @ketab_n

الوسادة ، تماما كأنها آلة .

أتيح لي في دار سوجيكو أضعاف ما يتاح لي في داري من حرية ، حيث لم يكن الأعداء الوهميون الذين من المحتم أنهم يرغبون في انتزاعي خلسة- ولنقل باختصار والداي- موجودين فلم يكن لدى جدتي ما تخشاه من منحى المزيد من الحرية ، فلم تكن هناك حاجة إلى إبقائي في متناول عينيها ، كما هو الحال في الدار .

رغم ذلك لم يكن بمقدوري الاحساس بالبهجة في غمار هذه الحرية التي أتيحت لي ، ومثل مريض يخطو خطواته الأولى في دور النقاهة ، راودني شعور بالتصلب ، كما لو كنت أتحرك تحت اجبار التزام وهمي . إفتقدت فراش خمولي ، وفي هذه الدار كان من المطلوب على نحو ضمني أن أتصرف كما يتصرف الصبية ، لقد بدأ التفكير الوئيد المتردد . كنت في هذا الوقت قد شرعت على نحو غامض في فهم آلية الحقيقة القائلة بأن ما ينظر إليه الناس باعتباره ادعاء من جانبي هو بالفعل تعبير عن حاجتي إلى تأكيد طبيعتي الحقة ، وأن ما يراه الناس حصرا على أنه ذاتي الحقيقة لايعدو أن يكون تنكراً .

كان هذا التنكر الإرغامي هو الذي جعلني أقول :

- هيا ، لنلعب لعبة الحرب! .

وبما أن رفيقتي كانتا بنتين ، أي سوجيكو وابنة عم أخرى ، فإن لعبة الحرب لم تكن باللعبة المناسبة ، ومع ذلك فإن المحاربتين الأمازونيتين اللتين كانتا خصمي لم تظهرا إلا المزيد من الحماس . كان السبب الذي دفعني لاقتراح هذه اللعبة يكمن كذلك في شعوري المرتكس بالواجب الاجتماعي ،

فباختصار كنت أشعر بأنني لا ينبغي أن أتزلف إلى البنتين ، وإنما عليّ بشكل ما أن أجعلهما تمضيان وقتا حافلا بالضيق والمشقة .

وعلى الرغم من أننا جميعا كنا نشعر بالضيق والضجر ، فقد واصلنا لعبة حربنا المتخبطة ، داخل الدار الغارقة في عتمة الغسق وخارجها ، كانت سوجيكو كامنة وراء شجيرة تقلد لعلعة مدفع رشاش :

- بانج! بانج! بانج!

أخيراً قررت أن الوقت قد حان لوضع نهاية للأمر ، وشرعت في عدو جنوني نحو الدار ، أقبلت المحاربتان مسرعتين خلفي مطلقتين سيلا متواصلا من صرخات تقليد الرشاشات ، أمسكت بقلبي ، وانهرت مترنحا وسط غرفة الاستقبال .

تساءلوا مقبلين عليّ بوجوه علاها القلق : ماذا جرى يا كوتشان؟ أجبت دون أن أفتح عيني أو أحرك يدي : إنني أموت في ساحة المعركة .

أبهجني بلا حدود تصور جسدي مسجى هنا ملتويا وهامدا ، كانت هناك بهجة تتحدى الكلمات في أن أكون قد صرعت بالرصاص وعلى وشك الموت ، خيل إليّ أنه بما أنني أنا الراقد هناك فلن يكون ثمة ألم يقيناً ، حتى وإن أصابتني طلقة رصاص . . .

يالسنوات الطفولة . . .

تنداح ذاكرتي نحو مشهد قد يكون رمزا لهاتيك السنين ، فذلك المشهد يمثل لي اليوم بما أنا عليه الطفولة ذاتها ، ماضيا لا سبيل إلى استعادته . حينما

رأيت المشهد أحسست بيد الوداع التي ستلوح لي بها الطفولة بين يدي رحيلها ، راودني هاجس في تلك اللحظة بأن شعوري بالزمن الذاتي أو انعدام الزمن قد ينبثق ذات يوم من أعماقي ، فيغمر سطح ذلك المشهد ، ليصبح تقليدا دقيقا لناسه ، وحركاته ، وأصواته ، التي تنطلق عفوية مع اكتمال هذه النسخة ، وقد يذوب الأصل بعيدا منداحا إلى رؤى الزمن الموضوعي النائية ، وأنني قد أترك دونما شيء إلا التقليد وحده ، أو لطرح الأمر على نحو آخر ، قد أترك دونما شيء يتجاوز نموذجا أجوف دقيق الشبه لطفولتي .

يعاني الجميع مثل هذا الحادث في طفولتهم ، غير أنه في معظم الأحوال يتخذ صورة مخففة ، لا تستحق حتى أن تدعى حادثا ، حتى ليمكنها أن تنقضي دونما ملاحظة .

وقع المشهد الذي أتحدث عنه حينما تدفق جمع حاشد ، يحتفل بمهرجان الصيف ، ماراً عبر بوابتنا .

أقنعت جدتي ، من أجلي وبسبب قدمها العرجاء معاً ، رجال الإطفاء بالحي أن يرتبوا الأمر بحيث تمر مواكب المهرجان الخاصة بالمنطقة على امتداد الشارع أمام بوابتنا ، كان هناك أصلا طريق محدد تسلكه مسيرات المهرجانات ، لكن كبير الإطفائيين تكفل بترتيب تعديل هين في المسار كل عام ، وأصبح مألوفا أن يمروا بدارنا .

في هذا اليوم المحدد كنت أقف أمام البوابة مع قاطني الدار الآخرين ، فتحت البوابة المزخرفة على نحو جميل بأسياخ حديدية مصاغة كأوراق الشجر على مصراعيها ، ونثر الماء بديعا على الأحجار المنحدرة خارجها ، وأخذ دوى الطبول المتردد يقترب .

عبر الضجيج المتشابك للمهرجان وتناهى نغم ترتيلة حزين ، لم تتمايز الكلمات في خضمه إلا تدريجيا ، مفصحة عما يمكن أن يوصف بأنه الموضوع الحق لهذه الضجة ، التي تبدو ظاهريا مجردة من المعنى ، نحيب إزاء التضافر البالغ الفجاجة للإنسانية والأبدية الذي لا يمكن استدعاؤه إلا عبر فجور متشح بالدين كهذا ، استطعت تدريجيا أن أميز في خضم الكتلة المتشابكة من الأصوات الرنين المعدنى المنبعث من الأجراس المعلقة بعصا يحملها كاهن على رأس الموكب ، وزئير الطبول المجمجم ، وخليط الصيحات الإيقاعية التي يهتف بها الشباب ، الذين يرفعون المحمل المقدس . خفق قلبي على نحو خانق ، حتى ما عاد بوسعى الوقوف (من يومها والتوقع العنيف يسبب لي الكرب دائما لا الفرحة) .

كان الكاهن الذي يحمل العصا يضع على وجهه قناع ثعلب ، ثبتت العينان الذهبيتان لهذا الحيوان الغيبي نفساهما بتعمد بالغ عليّ . كأنما لتسحراني ، ومر الموكب أمام عيني فبعث فيّ بهجة شبيهة بالرعب ، وقبل أن أدرك ما أنا فاعل شعرت بنفسي أتشبث بأطراف تنورة من لست أدرى من نساء دارنا ، والتي كانت واقفة إلى جوارى . كنت على استعداد للهرب لدى بروز أول حجة (منذ تلك الأيام كان هذا هو موقفي الذي واجهت به الحياة دائما ، وحيال الأمور التي طال انتظارها وزانتها أحلام التوقع لا يعود في النهاية ثمة ما أفعله إلا أن ألوذ بالفرار) .

هلت وراء الكاهن ثلة من رجال الإطفاء ، يحملون على كواهلهم صندوق النذور ، وقد زانته أكاليل من القش المضفور ، ثم أقبل جمع من الأطفال ، يرفعون محملا صغيرا يتقافز في نزق ، أخيرا اقترب محمل الموكب الرئيسي ،

«الأوميكوشي» الجليل ذو اللونين الأسود والذهبي . كنا قد رأيناه من بعيد بالفعل ، العنقاء الذهبية على قمته ، تتأرجح ، وتتخايل متألقة وسط الضجيج والهياج ، مثلما طائر يطفو جيئة وذهابا في قلب الأمواج ، فأفعمنا المشهد بضرب من الشعور الذاهل بالقلق . الآن بداالمحمل نفسه للعيان ، سادت حالة مسمومة من الهدوء الميت ، كالهواء في خط الاستواء ، لفت وحيدة المحمل متشبثة به . بدت كالركود الحاقد ، ترتعد متوقدة فوق الأكتاف العارية للفتيان الذين يحملون «الأوميكوشى» وداخل نطاق الحبال الغليظة ذات اللونين الأحمر الصارخ والأبيض ، داخل السياج الغارق في لوني الذهب والنبيذ القاتم ، خلف أبواب أوراق الشجر الذهبية محكمة الإغلاق ، كان هناك مكعب أربعة أقدام من الظلام المكتسى بلون القار .

هذا المكعب المكتمل من الليل الأجوف ، المتأرجح ، المتقافز ، دونما انتهاء جيئة وذهابا ، علوا وسفلا ، كان يهيمن في جرأة على سمت نهار الصيف الباكر الألاق ، دونما سحابة تشوبه .

دنا المحمل أكثر فأكثر ، كان الفتية الذين يحملونه يرتدون كيمونو للصيف موحد الطراز ، والقطن الخفيف يشف عن أجسادهم كلها ، وجعلت حركاتهم المحمل يبدو وكأنه يترنح لفرط الخمار ، بدت أقدامهم وكأنها كتلة عظيمة متشابكة الأطراف ، وبدا الأمر كما لو أن عيونهم ما كانت لتقع على أشياء هذه الأرض ، كان الفتى الذي يحمل مروحة السلطة المستديرة يعدو حول أطراف المجموعة ، وهو يستحثها بصيحات مرتفعة على نحو بديع ، وبين الحين والآخر كان المحمل يميل في جنون ، وعندئذ وبصيحات أكثر توفزا ، كان يرد على موضعه عاليا .

هنا ، وربما لأن الكبار في عائلتي أدركوا الأمر بحدسهم ، دفعتني يد الشخص الذي كنت متشبثا به فجأة إلى الوراء ، فعلى الرغم من أن الشباب بدوا ظاهريا وهم يسيرون في موكبهم تماما على نحو ما كانوا ، كمنت قوة ما في أعماقهم تلح في طلب منصرف لها .

صاح أحدهم : حذار!

ليس بوسعى القول بما أعقب ذلك ، انتزعتنى اليد ، فاندفعت أعدو هاربا عبر حديقة المدخل ، هرعت إلى الدار ، عبر الباب الجانبي .

صعدت إلى الطابق الثاني مع شخص ما ، انطلقت إلى الشرفة . من هناك اطلعت على المشهد متقطع الأنفاس . كانوا قد تدفقوا في هذه اللحظة كالسرب إلى حديقة المدخل رافعين محملهم الأسود .

رحت أتساءل ، حتى بعد ذلك بوقت طويل ، أية قوة أملت عليهم التصرف ، لا زلت لا أدرى ، كيف أمكن لهؤلاء العشرات من الشباب أن يصلوا فجأة إلى القرار في اللحظة ذاتها ، وكأنما صدر عن ذهن واحد ، بأن يندفعوا مقبلين عبر بوابتنا؟

لفتهم البهجة في غمار التدمير الوحشي الغشوم للنباتات ، كان تجمعاً للدهماء بكل معانى الكلمة . تحولت حديقة المدخل ، التي استنفدت اهتمامي بأسره منذ وقت طويل ، إلى عالم آخر ، جرى استعراض المحمل فوق كل بوصة منها ، مزقت الشجيرات إرباً ، وديست بالأقدام ، كان عسيرا عليّ كثيراً أن أقول ما الذي يجرى ، ارتطمت أمواج الضوضاء بعضها بالبعض الآخر ، بدا كما لو أن أذني لطمتهما أمواج متدافعة من الصمت الجليدي والصخب العبثي . وحدث

الأمر ذاته مع الألوان ، فتدافع اللون الذهبي والقرمزي ، الأرجواني ، الأخضر ، الأصفر والأزرق القاتم ، أخذت الألوان تغلى معا ، وبدت كما لو كانت لونا واحدا يسوده اللون الذهبي حينا والقرمزي حينا آخر .

خلال الأمر كله كان هناك شيء واحد فحسب واضح بصورة تضج بالحياة ، شيء أرعبني ، ومزقني إربا ، فملأ قلبي بعذاب يستحيل تبريره . كان هذا الشيء هو التعبير الذي علا ملامح الفتية الذين يرفعون المحمل ، تعبيرا عن أكثر ضروب الخمار جلاء وفحشا في الدنيا .

الفصل الثاني

طوال ما يزيد على العام عانيت من الإحباط الذي يقاسيه طفل قدمت له لعبة غريبة . كنت وقتها في الثانية عشرة من عمري .

راحت هذه اللعبة تتضخم مع كل فرصة تتاح لها ، وتومئ من طرف خفي ، مشيرة إلى أنها إذا ما استخدمت على نحو سليم ستغدو شيئا بهيجا تماما ، لكن تعليمات الاستخدام لم تكن مدونة في أي مكان ، وهكذا فانه حينما انتزعت اللعبة المبادرة في الرغبة بالعبث معي كان من الحتمى أن يداهمني الذهول . غدا شعوري بالإذلال ونفاد الصبر من التفاقم ، حتى ظننت أنني أرغب في تحطيم اللعبة ، غير أنه في النهاية لم يبق إلا الاستسلام من جانبي للعبة العنيدة بتعبيرها عن النشوة السرية والانتظار في سلبية لرؤية ما سيقع .

ثم فكرت في الإصغاء بمزيد من الهدوء لرغبات اللعبة ، وحينما فعلت ذلك ألفيت أنها سرعان ما يكون لها بالفعل ذوقها المحدد ، الذي لا يعرف إليه الخطأ سبيلا ، أو ما يمكن تسميته بآليتها الخاصة ، غدت طبيعة ذوقها مرتبطة ، لا عبر ذكريات طفولتي فحسب وإنما عبر ذكرياتي واحدة إثر الأخرى بأشياء من قبيل الأجساد العارية للشبان الذين رأيتهم على الشاطئ في الصيف ، فرق السباحة التي شاهدتها في مسبح ميجي ، الشاب الذي تزوجته ابنة عمي والذي يتمتع ببشرة لوحتها الشمس ، والأبطال الجسورين للعديد من قصص المغامرات . ظننت حتى ذلك الوقت أنني مرتبط على نحو شاعرى فحسب بمثل

هذه الأمور ، خالطاً على هذا النحو بين رغباتي الحسية ونسق من الجماليات .

بالمثل راحت اللعبة تندفع نحو الردى ، بحيرات الدم ، اللحم البشرى الذكور ، لدى رؤية مشاهد المبارزات الملطخة بالدم على أغلفة مجلات قصص المغامرات ، التي كنت أستعيرها من الفتى الذي يعمل بدارنا ، صور فتية الساموراى وهو يبقرون بطونهم ، جنود أصابت منهم الطلقات مقتلاً ، فتشنجت أضراسهم ، وتقاطر الدم من خلل أكفهم ، التي قبضت على صدورهم المكسوة بالكاكي ، صور لمصارعي السومو المتصلبي العضلات ، من الدرجة الثالثة الذين لم يترهلوا بعد- لدى مرأى هذه الأشياء كانت اللعبة ترفع على نحو قاطع رأسها الفضولى (إذا لم تكن صفة «فضولى» مناسبة فيمكن تغييرها إلى «شهواني» أو «غليم») .

حينما أدركت هذه الأمور ، بدأت في السعى وراء اللذة العضوية عن وعي وقصد . شرعت مبادئ الاختيار والإعداد تقوم بعملها . حينما كنت أجد أن تركيب صورة ما يبدو معيبا ، كنت أبدأ أولا في نسخها بأقلام الشمع الملون ، ثم أصلحها وفقا لما يرضينى . عندئذ تصبح صورة لاعب سيرك شاب ، هوى على ركبتيه ، وأمسك بجرح أحدثته رصاصة في صدره ، أو لاعب يسير على الحبال سقط ، فانفلقت جمجمته ، ورقد محتضرا ، وقد غطى الدم شطرا من وجهه . غالبا ما كنت في المدرسة أنشغل بالخوف على هذه الصور الظامئة للدم ، والتي أخفيتها في أحد أدراج المكتبة بالدار ، وأشفق من أن يكتشفها أحد في غيابي ، حتى أن صوت المعلم كان يحتجب عني ، كنت أعلم أن عليّ أن أعدم تلك الصور بعد رسمها على الفور ، لكن لعبتي كانت من الارتباط بتلك الصور بحيث وجدت أنه من المستحيل إطلاقا أن أقوم بذلك .

على هذا النحو أمضت لعبتي العنيدة أياما وشهورا عديدة دون أن تحقق حتى هدفها الثانوي ، أو ما سوف أسميه «عادتي السيئة» دع جانبا هدفها المطلق ، غرضها الرئيسي .

طرأت تغيرات عديدة فيما حولى ، فقد انشطرت العائلة ، وغادرت الدار التي ولدت بها ، وانتقلت إلى دارين منفصلين في الشارع نفسه ، لا تفصلهما إلا نصف كتلة من المباني ، أقمت مع جديّ في دار ، فيما استقر والداى مع أخى وأختي في الدار الأخرى . في هذه الفترة أرسل أبي في مهمة رسمية خارج البلاد ، قام بجولة في العديد من دول أوروبا ، وعاد إلى الوطن ، بعد فترة ليست بالقصيرة انتقل والداى من جديد . أخيرا بلغ أبي مرحلة الحسم المتأخر في إصراره على المطالبة باستعادتي لأقيم في داره ، وانتهز هذه الفرصة للقيام بذلك . خضت غمار مشهد الافتراق عن جدتي ، وهو مشهد أسماه أبي «الميلودراما الحديثة» هكذا مضيت لأقيم مع أبوى ، الآن انفصلت عن الدار التي يقطنها جداى ، على بعد عدة محطات للقطار الحكومي أو العربات التابعة للبلدية . ليلا ونهاراً كانت جدتي تضم صورتي إلى صدرها ، تنخرط في البكاء ، وتشتد بها أعراض المرض إذا ما انتهكت الاتفاقية التي تقضى بضرورة قيامي بقضاء ليلة كل أسبوع معها في الثانية عشرة من عمري كانت لي حبيبة صادقة المحبة ، في الستين من عمرها .

سرعان ما نقل أبي إلى أوساكا ، مضى وحيدا ، أما بقيتنا فظللنا في طوكيو .

ذات يوم ، اهتبلت فرصة نوبة برد عارضة ألمت بي ، فحالت دون ذهابي إلى المدرسة ، جلبت بعض مجلدات من اللوحات الفنية ، كان أبي قد حملها

للوطن تذكارا لرحلاته في الخارج ، حملتها إلى غرفتي ، حيث رحت أتصفحها بانتباه ، ابتهجت على نحو خاص لمشاهدة صور التماثيل الإغريقية ، التي احتوتها أدلة المتاحف الإيطالية العديدة ، ومن بين العديد من صور الأعمال الفذة العارية راقت لي لوحات باللونين الأبيض والأسود لعدد من هذه التماثيل ، وربما كان ذلك يرجع إلى حقيقة بسيطة هي أنه حتى من خلال الصور بدأ النحت أكثر قربا من الحياة .

كانت تلك هي المرة الأولى التي أشاهد فيها هذه الكتب ، كان أبي شحيح اليد ، لكراهيته لتلويث الصور وتلطيخها بيد الأطفال . وكذلك لخشيته من أن صور النسوة العاريات التي أبدعها الفنانون العباقرة قد تستهويني- لشد ما جانبه الصواب! قد أخفى هذه الكتب بعيدا في أعماق خزانة الأواني ، ومن جانبي لم أحلم بأنها يمكن أن تكون أكثر إثارة للاهتمام من الصور التي تتضمنها مجلات قصص المغامرات .

شرعت في تقليب الصفحات وصولا إلى نهاية أحد المجلدات . فجأة أطلت من ركن الصفحة التالية صورة ، اضطررت للاعتقاد بأنها كانت هناك راقدة في انتظاري قابعة من أجلي .

كانت صورة للوحة القديس سباستيان للمصور جيدو رينيه ، التي تضمها مجموعة بلازو روسو في جنوا .

تبدى جذع شجرة الإعدام الأسود المائل قليلا في خلفية هائلة من غابة كابية ، وسماء مغيبية ، قاتمة ، ونائية ، قيد شاب بادي الوسامة عاريا إلى جذع الشجرة ، رفعت يداه المتصالبتان عاليا ، أحكم ربط السيور التي تشد راحتيه إلى الشجرة ، كان الغطاء الوحيد الذي يستر عريه هو قطعة بيضاء من نسيج خشن

عقدت متهدلة حول خاصرته .

خمنت أن اللوحة تصور حتما استشهاد أحد المسيحيين ، ولكن بما أن مصورها كان عاشقا للجمال ، ينتمي إلى المدرسة الاصطفائية المستمدة من عصر النهضة ، فإن هذه اللوحة التي تصور موت قديس مسيحي كانت تحمل النكهة القوية للنزعة الوثنية .كان جسد الشاب ، الذي يمكن أن يشبه بأنتينوس ، محبوب هادريان ، الذي خلد حسنه في النحت ، لا يفصح عن أي من آثار العناء التبشيري أو التداعي ، المألوفة في صور القديسين الآخرين ، وبدلا من ذلك كانت هناك فحسب ميعة الصبا ،وامتدالنور والبهاء والفرح .

كان عريه الأشيب ، الذي لا نظير له ، يتألق مباينا الخلفية المغيبية . ذراعاه الرجوليان ، ذراعا رجل الحرس البريتوري الذي اعتاد ثنى النشاب وتقلد السيف ، مرفوعتان في زاوية رشيقة ، رسغاه المقيدان متصالبان فوق رأسه مباشرة ، وجهه مرتفع هونا عيناه مفتوحتان على اتساعهما ، تحدقان بهدوء عميق في مجد السماوات ، لم يكن الموت هو الذي يحوم حول صدره المتوتر ومعدته الحادة في انكماشها وردفيه اللذين التويا من الألم قليلاً ، وإنما وهج من الفرح الكابي كالموسيقى ، ولولا السهام الغائصة برؤوسها عميقا في إبطه الأيسر وجانبه الأيمن لبدأ أقرب شبها إلى رياضى رومانى ، ينال قسطا من الراحة بعد العناء ، وقد استند إلى شجرة غسقية في إحدى الحدائق .

كانت الأسهم تلتهم اللحم المتوفر ، العطر ، الذي يضوع شبابا ، وتوشك أن تستنفد الجثمان من داخله بألسنة من لهب معاناة ونشوة فائقتين ، لكن الدم لم يكن يشخب ، ولم يكن هناك ذلك الفيض من السهام الذي يرى في اللوحات الأخرى لاستشهاد سباستيان ، وبدلا من ذلك كان سهمان وحيدان يلقيان

ظليهما الهادئين الرشيقين على رهافة جلده ، مثلما ظلى غصن يسقطان على ممر مرمري .

لكن كل هذه التفسيرات والملاحظات وردت فيما بعد .

في ذلك اليوم ، ما إن تطلعت إلى الصورة ، حتى ارتعش كياني كله بفرحة طاغية ، طفا دمى عالياً ، انتفخت خاصرتي كأنما غضبا ، كان الجانب الوحشى فيّ ، الذي غدا على وشك الانفجار ، ينتظر استخدامي له في اتقاد لم يسبق له مثيل ، وهو يوبخني لجهلي ، لاهثا في غضب ، شرعت يداى في غياب كامل للوعي تأتيان حركة لم تعلماها من قبل قط ، أحسست بشيء سرى مشع ينهض مسرع القدمين ليشن هجوما من داخلي ، فجأة تفجر مندفعا ، جالبا معه عربدة داخلية تحجب الرؤية .

إنقضى بعض الوقت ، عندئذ تطلعت بمشاعر بائسة حول المكتب الذي كنت أجلس أمامه ، كانت شجرة قبقب خارج النافذة تلقى ظلا خفيفا فوق كل شيء ، فوق المحبرة ، كتبي المدرسية ، دفاتري ، القاموس ، صورة القديس سباستيان ، انتثرت بقع بيضاء غائمة ، على عنوان المرجع الذهبي الحروف ، على جانب المحبرة ، على ركن القاموس ، إنسابت بعض القطرات كسلى ، متثاقلة ، والتمع البعض الآخر على نحو كئيب ، مثل عيني سمكة ميتة ، لحسن الحظ حمت حركة انعكاسية من يدى الصورة ، وأنقذت الكتاب من التلوث .

كانت تلك هي المرة الأولي التي أقذف فيها ، وكذلك البداية المرتبكة وغير المقصودة بالمرة لعادتي السيئة .

(من الصدف المثيرة للاهتمام أن هيرشفيلد يدرج صور القديس سباستيان في المرتبة الأولى من أنواع الأعمال الفنية التي يجد فيها اللواطي بهجة خاصة ، وتؤدي ملاحظة هيرشفيلد هذه في يسر إلى الحدس بأنه في الغالبية الكاسة من حالات اللواط ، بصفة خاصة في اللواط الفطرى ، يمتزج دافع اللواط والدافع السادى معاً ، على نحو لا يمكن فصله) .

يقال تقليديا إن القديس سباستيان ولد في حوالي منتصف القرن الثالث للميلاد ، غدا قائدا في الحرس البريتوري ، وأنهى حياته القصرة ذات الثلاثين عاما من الغرابة بالاستشهاد ، ويقال إنه مات في عام 288 خلال حكم الإمبراطور ديوقليانوس . كان ديوقليانوس رجلا عصاميا ، عرك الحياة ، وحظي بالإعجاب لنزعته لعمل الخير ، لكن مكسيميان شريك الإمبراطور كان يمقت المسيحية ، وحكم بالإعدام على مكسيميليانوس الشاب النوميري لرفضه باسم النزعة السلمية المسيحية أداء مقتضيات الخدمة العسكرية ، وبالمثل جرى إعدام مارسيلوس القنطوري للولاء الديني ذاته . كانت تلك إذن هي الخلفية التي في ضوئها يصبح استشهاذ القديس سباستيان أمرا قابلا للفهم .

اعتنق سباستيان المسيحية سراً ، واستغل موقعه كقائد في الحرس البريتورى لمواساة المسيحيين المودعين بالسجون ، وأدخل العديد من الرومان في الدين الجديد ، ومن بيهم عمدة روما . وحينما افتضح أمر هذه الانشطة حكم عليه بالموت ، رشق بسهام لاحصر لها ، وترك ليلفظ أنفاسه ، لكن أرملة ورعة كانت قد أقبلت لتواريه التراب ، اكتشفت أن بدنه لا يزال دافئا ، فعالجته حتى دلف عائدا إلى الحياة غير أنه تحدى على الفور الإمبراطور مسفها آلهته ، وفي هذه المرة ضرب بالهراوات حتى الموت .

قد تكون الخطوط العريضة لهذه الأسطورة صحيحة حقا ، فمن المعروف يقينا أن مثل أحداث الاستشهاد هذه قد وقعت حقا ، أما فيما يتعلق بالتشكك في أنه ما من إنسان يمكن أن يصاب بمثل هذا العدد الكبير من جراح السهام ثم يرد إلى الحياة ألا يمكن أن يكون ذلك من قبيل الإضافة البديعة للاحقه واستخداما مألوفا لموضوعة البعث استجابة لتلهف البشرية إلى المعجزات؟

ولرغبتي في أن تفهم نشوتي بين يدي الأسطورة ، أمام اللوحة ، بمزيد من الوضوح باعتبارها الشيء الحسى الوحشى الذي كانت عليه ، فإنني أثبت هنا المقطوعة التالية التي لم تنته ، والتي دبجتها بعد ذلك بسنوات :

القديس سباستيان- قصيدة نثرية .

ذات مرة ، اختلست النظر من نافذة قاعة للدرس إلى شجرة وسط تتمايل في مهب الريح ، فيما كنت أتطلع إليها ، شرع قلبي يخفق راعداً ، كانت شجرة ذات بهاء مذهل ، تنتصب فوق المرجة في زاوية قائمة ، تلفها الاستدارة ، يستند الشعور بخضرتها الفاغمة إلى أغصانها العديدة المتماوجة عاليا والمنسدلة على الجوانب في اتساق متوازن لا يحظى به إلا حامل شموع متعدد الأفرع ، وتحت اخضرارها يبرز جذع قوى مثل قاعدة أبنوسية . شمخت هناك ، تلك الشجرة ، مكتملة ، رائعة البدن ، من غير أن تفقد شيئا من رشاقة الطبيعة وعفويتها ، ملتزمة صمتا جليلا ، كأنها خلقت نفسها ، ربما كانت قطعة موسيقية ، قطعة من موسيقى الحجرة وضعها موسيقار ألماني ، موسيقى تبعث نشوة دينية هادئة ، حتى إنا لا يمكن إلا أن توصف بأنها قدسية تحفل بالجلال وبالحنين ، اللذين نجدهما في أنماط سجاد الحائط الرائع .

هكذا كان للتماثل بين شكل الشجرة وأصوات الموسيقى معنى بالنسبة

لي . لا عجب إذن في أنهما حينما هاجماني ، معا وقد تزايدت قوتهما من جراء هذا التحالف ، غدا انفعالي الغامض المستعصى على الوصف أقرب لا إلى الغنائية وإنما إلى ذلك الخمار الرهيب الذي نجده في تزاوج الدين والموسيقى .

فجأة تساءلت في قرارة فؤادي : «أليست تلك هي الشجرة ذاتها . . . الشجرة التي قيد القديس إليها ويداه مغلولتان خلفه ، على جذعها سال دمه مثل قطرات غب المطر؟ أليست تلك هي الشجرة الرومانية التي احتضر فوقها متوهجا في عناء الموت الأخير مع التفتت العنيف للحمه الغض على اللحاء كاعترافه الأخير بالمتعة الدنيوية بأسرها والألم الحاضر جميعه؟

يقال في الحوليات التقليدية إنه عقب تتويج ديوقليانوس ، وفيما كان يحلم بسلطة مطلقة ، كطائر لا يعوق تحليقه شيء ، كان هناك قائد شاب في الحرس البريتوري ، ألقى القبض عليه ، واتهم بعبادة رب محظور ، قائدا شابا كان ، أوتى جسما لدنا ، يذكر المرء بالعبد المشرقي ذائع الصيت الذي عشقه هادريان ، له عينا متآمر ، ساجيتان مثلما البحر ، كان فاتن الصلف ، يضع على خوذته سوسنة بيضاء ، تقدمها له كل صباح عذارى المدينة ، تتدلى في رشاقة على شعره الرجولى السبط ، فيما هو ينال قسطا من الراحة من عناء مبارياته الوحشية ، فتلوح مثل مؤخرة عنق بجعة تماما .

لم يعرف أحد موطنه أو من أين قدم ، لكن كل من رأوه خالجهم الشعور بأن هذا الشاب ، الذي يتمتع بجسد عبد وملامح أمير ، هو عابر سبيل ، سرعان ما يمضى بعيدا ، بدا لهم هذا الشاب «الاندايميوني» بدويا يقود قطعانه ، وأنه هو بعينه المختار للعثور على مرعى أكثف خضرة من كل المراعي الأخرى .

كانت هناك عذارى مجددا يتعلقن باليقين حول مجيئه من البحر ، لأنه

في أغوار صدره كان يمكن الإصغاء إلى تصخاب البحر ، ولأنه كان يتأرجح في بؤبؤية الأفق الغامض والخالد الذي يتركه البحر تذكارا غائرا في عيون أولئك الذين يولدون على شواطئه ، ويجبرون على الرحيل بعيدا عنه ، ولأن تنهداته كانت متقدة ، شأن نسائم المد في سمت الصيف ، تضوع برائحة أعشاب البحر المسجاة على الشاطئ .

ذلك سباستيان ، القائد الشاب في الحرس البريتورى ، أترى كان هناك شيء في بهاء حسنه قدر له أن يلقى الردى؟ ألم تشتم نساء روما الخشنان اللاتي غذيت حواسهن على مذاق الخمر المعتقة التي تتعتع العظام وعبق شواء اللحم الذي يتقاطر بحمرة الدم- قدره معتم النجوم سريعا والذي كان يجهله فعشقنه لهذا السبب؟ كان دمه يتدفق بايقاع أكثر وحشية من المألوف داخل لحمه الأبيض باحثا عن منطلق ينسكب منه حينما يتمزق ذلك اللحم في القريب . كيف أمكن للنسوة ألا يصغين للرغبات العاصفة لدم كهذا؟

لم يكن قدره مما يوضع الرثاء . لم يكن مما يمكن أن يرثى له قط ، وإنما كان بالأحرى شامخا ومأساويا ، قدرا يمكن أن يوصف بالتوهج .

حينما يتأمل المرء الأمر جيدا يبدو أنه من المتحتمل في العديد من المرات أنه حتى في غمار قبلة شائقة من المحتم أن طعم معاناة الموت المسبقة قد غضن جبينه بظل عابر من الألم .

ولابد أنه كذلك قد تنبأ ، وإن يكن على نحو غامض ، بأن ما ينتظره على الدرب لا يقل عن الاستشهاد ، وأن هذا الميسم الذي دمغه به القدر كان على وجه الدقة أشعار مباينته لكل رجال الأرض العاديين .

الآن ، في ذلك الصباح بعينه ، أزاح سباستيان أغطية فراشه ، وثب منه انبلاج النهار ، تحت وقر الواجبات العسكرية ثمة حلم راوده عند الفجر ، غربان مشئومة كالنذير تتجمع في صدره ، تغطي فمه بأجنحة مصطفقة ، وما اختفت بعد من وسادته . لكن الفراش الخشن الذي يأوي إليه كل ليلة كان يضوع بعبق أعشاب البحر المسجاة على الشاطئ ، يقينا إذن أن مثل هذ العبق سيقوده مراوغا إلى أحلام البحر والآفاق الفسيحة .

فيما هو يقف إلى جوار النافذة ، ويسبغ عليه درعه المصلصل ، راح ينظر عبر الطريق إلى معبد تحيطه كرمة ، في السماء فوقه لمح النجوم المتناثرة تغور بعيدا ، مجموعة نجوم تدعى «المازاروث» حدق في المعبد الوثنى البديع وتحت الاستدارة المراوغة لحاجبيه التمعت نظرة عميقة قريبة من المعاناة وتتناسب مع جماله استحضر اسم الله الواحد ورتل في رقة بعض الآيات الجليلة من النصوص المقدسة ، عندها ، وكأنما تضاعفت رهافة ترتيلته آلاف المرات وترددت في نغم جليل ، سمع أنينا عاتيا أهل ، دونما شك ، من ذلك المعبد البغيض ، من تلك الصفوف من الأعمدة التي تشق عنان السماء المرصعة بالنجوم . كان صوتا كذلك الذي يصدر عن ركام يتصدع فيتناثر بددا مدويا بإزاء القبة السماوية التي وشتها النجيمات .

ابتسم ، خفض عينيه إلى ما دون نافذته ، ثمة جمع من العذارى يصاعد سرا إلى حجراته لترتيل صلوات الصباح . كعادتهن تحت جنح الظلام قبيل الفجر ، وكل عذراء تحمل في يدها سوسنة وسنى لاتزال . .

كان ذلك في وقت متقدم من شتاء عامي الثاني في المدرسة المتوسطة كنا وقتها قد اعتدنا السراويل الطويلة وعلى مناداة بعضنا البعض بالأسماء الأولى

دونما ألقاب (في المدرسة الابتدائية لم يكن يسمح لنا أبدا بأن نترك سيقاننا فيما دون سراويلنا القصيرة عارية حتى في سمت الصيف ، هكذا فإن فرحتنا كانت مضاعفة لدى ارتدائنا للسراويل الطويلة ، حينما علمنا أننا لن نضطر مرة أخرى إلى تجشم مشقة أربطة الجوارب كذلك اضطررنا في المدرسة الابتدائية إلى استخدام الصيغة الرسمية للخطاب ، حينما ينادى أحدنا الآخر باسمه) اعتدنا أيضا عادة رائعة أخرى ، هي السخرية من مدرستنا ، وأن يقدم لنا الشاي ونحن واقفون في مشرب المدرسة ، وأن نلهو بألعاب الأدغال ، التي نمضي عدوا خلالها في وسط أشجار المدرسة ، واعتدنا حياة مهجع المدرسة . شاركت في كافة هذه الألوان عدا حياة المهجع ، فقد احتج أبواى دائما بصحتى الهشة لاستثنائي من القاعدة التي تقتضي من كل طالب أن يقيم في القسم الداخلي للمدرسة عاما أو عامين ، خلال الدراسة بالمدرسة المتوسطة ، ومرة أخرى لم يتجاوز السبب الرئيسي الذي دفعهما لذلك الحيلولة دون تعلمي «الأمور السيئة» .

كان عدد طلاب الدراسة الخارجية قليلا . و في الفصل الدراسي الأخير من عامنا الثاني انضم قادم جديد إلى جماعتنا الصغيرة ، كان هذا القادم هو «أومي» ، كان قد طرد من المدرسة الداخلية بسبب بعض السلوكيات السيئة . لم أكن حتى ذلك الوقت قد أبديت اكتراثا به ، ولكن حينما دمغه طرده بهذا الميسم ، الذي لا تخطئه العين ، للجنوح ، ألفيت فجأة من المتعذر عليّ أن أحول ناظريّ عنه .

ذات يوم أقبل صديق بدين سمح الخلق يعدو نحوى ، ضاحكا حتى بدت غمازتاه ، علمت من هذه المؤشرات المألوفة أنه قد أطلع على معلومات سرية .

قال : لديّ ما أحدثك به!

ابتعدت عن أنابيب التدفئة ، خرجت إلى الممر مع صديقي الطيب ، إنحنينا على نافذة تطل على فناء الرماية الذي اكتسحته الرياح . كانت تلك النافذة هي ملتقانا لهتك الأسرار .

شرع صديقي في الحديث : طيب ، إن أومي . . .

ثم توقف ، إحمر خجلا ، كأنما استبد الحرج به ، فحال دون مواصلته الحديث (ذات مرة ، وفي الصف الخامس من المدرسة الابتدائية ، حينما كنا جميعا نتحدث حول «ذلك» إندفع هذا الفتى فناقضنا كلية بملاحظة هائلة :«الأمر كله كذبة كاملة ، أعلم تماما أن الناس لا يقترفون شيئا كهذا» وفي مرة أخرى ، ولدى سماعه أن والد أحد الأصدقاء مصاب بالشلل الرعاش ، حذرنى من أن هذا المرض معد وأنه من الخير لي ألا أقترب كثيرا من ذلك الصديق) .

- إيه ، ما الذي حط على أومى؟

على الرغم من أنني كنت لا أزال استخدم صيغ الخطاب الأنثوية المهذبة في الحديث بالدار ، فإنني شرعت خلال وجودي بالمدرسة في الحديث بوقاحة ، مثل الفتية الآخرين .

- إنها الحقيقة ، ذلك الفتى أومي ، طيب ، يقولون إن له بالفعل العديد من الفتيات ، هذا هو الأمر!

كان من اليسير تصديق ذلك ، فلابد أن أومي كان أكبر منا بسنوات عديدة ، بعد أن أخفق في الانتقال إلى الصف الأعلى مرتين أو ثلاثا ، كان يتجاوزنا جميعا في وثاقة بنيته ، وفي استدارات وجهه كان بالوسع رؤية نضج

متميز يفوقنا جميعا ، تميز بطريقة فطرية شامخة في السخرية غير المبررة . لم يكن ثمة شيء واحد لم يجد أنه يستحق الازدراء ، بالنسبة لنا لم يكن ثمة تغاير في حقيقة أن الطالب المتفوق هو نفسه ، وأن المدرس هو ذاته ، وأن رجل الشرطة وطالب الجامعة والموظف لا يتجاوزون ماهم عليه ، وبالطريقة عينها كان أومي بالنسبة لنا هو ببساطة أومي ، وكان من المتسحيل الهرب من عينيه المفعمتين ازدراء وضحكته المثقلة بالسخرية .

قلت : أحقاً؟

لسبب مجهول ، ظللت لبعض الوقت أمعن التفكير في يدي أومي الماهرتين ، وهما تنظفان البنادق ، التي نستخدمها في التدريب العسكري . تذكرت مظهره الأنيق كقائد جماعة والطالب الأثير لدى القائم بالتدريب العسكري ومدرب التربية البدنية فقط .

- لذلك . . . ذلك هو السبب في أن . . .

قالها صديقي ، ندت عنه ضحكة مكبوتة ، بذيئة ، لا يمكن إلا لفتية المدرسة المتوسطة فهمهما ، وأضاف :

- طيب ، يقولون إن الشيء الذي له- أنت تفهم ما أعنى- فظيع الضخامة ، ما عليك في المرة القادمة التي نلعب فيها لعبة «القذر» إلا أن تتحسس وتتبين ، وسيبرهن ذلك على الأمر .

كانت لعبة «القذر» رياضة تقليدية في مدرستنا ، تتفشى دائما بين الفتية خلال عامهم الأول والثاني ، وكما هو الحال مع أي أسلوب مجنون لتزجية الوقت ، كانت مرضا مقيتا أكثر مما هي تسلية . يقف فتى ونسميه «أ» دون أن

يتخذ الحذر لنفسه ، فيلاحظ ذلك فتى آخر وليكن «ب» فينقض من الجانب في تدقيق على الهدف ، ويقتنص بقبضته ما يمتد بين فخذى أ . فإذا كللت القبضة بالنجاح ، عندئذ يتراجع ب . فائزا إلى مبعدة ، ويبدأ في الصياح :

- أوه ، إنه ضخم!

أيا كان الدافع وراء هذه اللعبة ، فإن الهدف الوحيد منها ، فيما يبدو ، هو مشهد الضحية في شكله الفكه ، وهو يسقط كتبه المدرسية ، أو أي شيء آخر يحمله . ويستخدم كلتا يديه لحماية النقطة التي تتعرض للهجوم . كان الفتية يكتشفون بالفعل خجلهم في غمار هذه اللعبة وقد تعرى في غضون ضحكهم ، عندئذ ومن قلب ضحك أكثر دويا يحققون الغبطة في السخرية من خجلهم المشترك . متسجدا في الخدين المضرجين لهذه الضحية .

كان الضحة يصيح ، وكأنما بترتيب مسبق :

- أوه ، ب ، هذا ، إنه قذر!

كان أومى في مجاله الملائم وهو يؤدي هذه اللعبة ، إنتهت هجماته ، دائما على وجه التقريب ، بنجاح سريع ، الأمر الذي يتيح المجال للتساؤل عما إذا كان الفتية لا يتوقون إلى أن يهاجمهم أومى ، بالمقابل كان ضحاياه يسعون في دأب للانتقام ، لكن أيا من انقضاضاتهم عليه لم يقدر لها النجاح ، فقد كان يسير دائما وإحدى يديه في جيبه ، وفي اللحظة التي يتعرض فيها لكمين ، كان يشكل في التو درعا مزدوجا من يده القابضة في جيبه ويده المطلقة السراح .

كانت هذه الكلمات التي ندت عن صديقي بمثابة مخصب صب على العشب السام لفكرة انغرست غائرة في أعماقي . كنت حتى هذه اللحظة قد

شاركت في ألعاب القذر بمشاعر ساذجة ، تماما كمشاعر الفتية الآخرين ، لكن كلمات صديقي جلبت فيما يبدو «عادتي السيئة» .

تلك الحياة المنعزلة التي أبقيتها دونماوعي منفصلة تماما- إلى مجال علاقة لا يمكن فصلها بهذه اللعبة ، بحياتي الجماعية تلك . تأكد استقرار مثل هذاالارتباط في ذهني من خلال حقيقة أن كلماته أصبحت فجأة شئت أم أبيت «تحسس وتبين» مشحونة باهمية خاصة بالنسبة لي ، أهمية لم يقدر أبدا لأي من أصدقائي الأبرياء أن يتفهمها .

منذ ذلك الوقت لم أعد أشارك في لعبة القذر . شعرت بالخوف من اللحظة التي قد أهاجم فيها أومي . بل وبمزيد من الخوف من اللحظة التي قد يهاجمني فيها أومي . كنت يقظادائما وحيثما تلوح أمارات اندلاع اللعبة- كوقوع شغب أو تمرد ، وهما ما كان يثوران لأكثر الأحداث عشوائية- كنت أتنحى جانبا ، وتنصب عيناى على أومي من مسافة آمنة .

في الحق أن تأثير أومي قد بدأ بالفعل يغوينا ، حتى قبل أن ندرك ذلك ، فعلى سبيل المثال كان هناك موضوع الجوارب . في تلك الأيام كان صدى نظام تعليمي يستهدف تخريج جنود قد بلغ مدرستنا بالفعل ، تم من جديد إحياء الفكرة التي طرحها الجنرال اينوكي على فراش موته وقدمت للاستهلاك «كن بسيطا ورجوليا» . كانت الأشياء المنتمية إلى نوعية اللفاعات والجوارب المبهرجة من قبيل المحظورات ، بل كانت أية لفاعة من أي نوع تثير الضيق ، وسرت القاعدة القائلة بأن القمصان ينبغي أن تكون بيضاء والجوارب سوداء أو على الأقل ذات لون قاتم . كان أومي وحده هو الذي يحرص على أن تكون له لفاعة حريرية بيضاء وجوارب جريئة المظهر .

تمتع هذا المتحدي الأول للمحرمات بمهارة فذة في التمويه على شره بالاسم الخلاب للتمرد ، وعبر تجربته الخاصة اكتشف ضعف الفتية ازاء مفاتن التمرد وأمام المدرب العسكري- ذلك الجلف الريفي الذي صعد إلى مرتبة الضابط دون دراسة والذي كان صديقا حميما لأومي ، أو بالأحرى تابعه فيما بدا- كان أومي ينهمك في إحكام تثبيت لفاعته حول عنقه وإظهار بطاقات صدارته المذهبة على الطريقة النابوليونية .

غير أن تمرد الجماهير العمياء لم يتجاوز ، كما هو الحال دائما التقليد الهزيل ، وفي غمار تطلعنا إلى تجنب المخاطر التي يقتضيها التمرد وتذوق مباهجه وحدها ، لم نسط من نموذج أومي الجرئ إلا على جواربه ، وفي هذا المثال كنت بدوري واحدا من القطيع .

لدى وصولنا في الصباح إلى المدرسة ، كنا نسترسل في ثرثرة صاخبة بالفصول ، قبل أن تبدأ الدروس . مقتعدين القمطرات لا الكراسي ، وكل من يلج الفصول مرتديا جوارب من طراز جديد كان يمعن في التظاهر رافعا ثنيتي سراويله فيما هو يقتعد القمطر ، وفي الحال ينال مكافأته بصرخات الإعجاب الحادة :

- أوه! جوارب زاهية!

لم تتضمن قائمة مدائحنا ما يتجاوز كلمة زاهية ، وما كان أومي يعمد للتظاهر إلا في اللحظة الأخيرة ، قبيل تشكيل الصفوف ، ولكن في اللحظة التي تقول فيها :«زاهية» ترتسم صورة ذهبية لنظرته الفخور متصاعدة أمامنا جميعا متحدثا ومستمعين .

ذات صباح أعقب سقوط الجليد ، مضيت إلى المدرسة مبكراً للغاية ، كان صديق قد حدثني مساء البارحة هاتفياً ، قائلا إن الصباح التالي سيشهد مشاحنة عابثة بكرات الثلج ، ولميلى بطبيعتي إلى اليقظة عشية أي حدث أتوق إليه ، لم أكد أفتح عينى صباح اليوم التالي مبكراً ، حتى انطلقت إلى المدرسة دونما اكتراث بالوقت .

لم يكد الجليد يرتفع عن وجه حذائي . بعد قليل . وفيما رحت أطل إلى المدينة من نافذة القطار المرتفع ، بدا مشهد الجليد ، الذي لم تمسه بعد أشعة الشمس الناهضة من خدرها ، مثيراً للاكتئاب ، أكثر مما يعكس البهاء ، لاح الجليد مثل أربطة قذرة تشد جروحا ناغزة في جسد المدينة ، وتحجب الجراح البليغة ، المكونة من الشوارع العشوائية والحواري الملتوية والأفنية والبقع المتناثرة للأرض العارية ، التي تشكل الجمال الوحيد الذي يمكن العثور عليه في بانوراما مدننا .

حينما أوشك القطار ، الذي كان خاوياً على وجه التقريب ، على الاقتراب من المحطة القريبة من مدرستي ، رأيت الشمس ترتفع فيما وراء المنطقة الصناعية ، فجأة غدا المشهد مبهجا ، مشرقا . الآن تكاكأت أعمدة المداخن المرتفعة كالنذير والأسقف الأردوازية اللون ، في ارتفاعها وانخفاضها المثير للملل ، خلف الضحك الصاخب الذي انبعث عن قناع الجليد المتألق . مثل هذه الطبيعة الملتفة بالجليد غالبا ما تصبح الساحة المأساوية للشغب أو الثورة ، بل أن وجوه المارة التي بدت سقيمة في انعكاس الجليد ذكرتني على نحو ما بالمتآمرين .

لدى هبوطى من القطار في المحطة أمام المدرسة ، كان الجليد يذوب

بالفعل ، واستطعت سماع الماء ينسكب من سقف شركة الشحن القريبة . لم أستطع التخلص من قبضة توهم أن الأشراق هو الذي ينسكب . كانت شظايا مشعة ألاقة منه تلقى نفسها منتحرة في مستنقع الرصيف الزائف ، فتلطخها جميعاً أوحال أحذية المارة . وفيما كنت أسير تحت لطنف ألقت شظية من الجليد بنفسها خطأ على قفاى . . .

لم يكن ثمة داخل بوابات المدرسة أثر لقدم واحدة على الجليد . وغرفة الحارس محكمة الإغلاق ، لكن الحجرات الأخرى كانت مفتوحة .

فتحت نافذة فصل الصف الثاني ، وكانت في الطابق الأرضى ، تطلعت إلى الجليد في الغيضة الواقعة وراء المدرسة . استطعت أن ألمح آثار أقدام كبيرة ، في الممر المفضى من البوابة الخلفية إلى منحدر الغيضة فالبناء الذي كنت فيه ، قدمت الآثار على امتداد الممر ، واستمرت إلى بقعة تقع مباشرة تحت النافذة التي أطلت منها . ثم عادت فاختفت خلف مبنى العلوم ، الذي يمكن رؤيته بزاوية حادة إلى اليسار .

كان أحدهم قد جاء بالفعل . بدا جليا أنه أرتقى الممر من البوابة الخلفية ، أطل على الفصل عبر النافذة ، ولما رأى ألا أحد هناك ، مضى وحيدا خلف مبنى العلوم ، قلة من طلاب النهار هم الذين يلجون المدرسة عن طريق البوابة الخلفية ، وقد شاع أن أومي الذي كان واحدا من تلك القلة كان يجئ كل صباح من دار إحدى النسوة . لكنه ما كان يظهر إلا في اللحظة الأخيرة قبل تشكل الصفوف . مع ذلك لم أستطع تصور أن أحدا غيره قد يخلف آثار الأقدام تلك ، وأقتنعت بأنها كانت اثاره بالحكم على ضخامة حجمها .

انحنيت خارج النافذة ، دققت النظر ، لمحت لون التربة الحديثة السوداء في

آثار الأقدام ، الأمر الذي جعل الآثار تبدو حازمة وقوية ، جذبتني قوة يعجز عنها الوصف نحو آثار الحذاء تلك ، شعرت بأنني أود لو ألقيت نفسي مندفعا برأسي عبر النافذة لأدفن وجهي فيها ، لكن أعصابي البطيئة التحرك حمتنى كالمعتاد من نزوتي الفجائية ، وبدلا من الانقضاض نحو النافذة ، وضعت حقيبتي المدرسية على قمطر ، عدت وئيدا إلى قاعدة النافذة . لم تكد أزرار سترة ردائي المدرسي تمس أحجار عتبة النافذة حتى غدت كأطراف الخناجر بازاء ضلوعي الهشة ، . فمجت ألما ممتزجا بضرب من العذوبة الأسيانة . بعد ما قفزت من النافذة إلى الجليد ظل الألم الخفيف باقيا كدافع مبهج ، فغمرني بانفعال المغامرة الراعش . ثبت حذائي المطاط بعناية فوق اثار الاقدام .

كانت الآثار قد بدت ضخمة تماما ، لكنني الآن وجدت أنها في حجم آثار أقدامي نفسها على وجه التقريب ، لم أضع في اعتباري ان الشخص ربما كان ينتعل حذاء مطاطا فوق حذائه العادي مثلى ، على نحو ما كان شائعا بيننا في تلك الأيام ، الآن وقد خطرت لي هذه الفكرة ، قررت أن آثار الأقدام ليست من الضخامة بحيث تكون آثار أومي .

رغم ذلك ، ومع شعوري القلق بأنني سأصاب بخيبة أمل في توقي الحميم إلى العثور على أومي وراء مبنى العلوم ، كنت لا أزال منجرفاً بشعور قاهر مع فكرة إقتفاء الآثار الداكنة ، ربما في تلك الوهلة لم يعد الأمل في العثور على أومي هو وحده الذي يدفعنى ، وإنما تملكني ، لدى مرأى الاحجية المنتهكة ، شعور متضارب ملؤه لحنين والرغبة في الانتقام ، إزاء الشخص الذي جاء قبلى وترك آثار أقدامه على الجليد .

بأنفاس عصية الإلتقاط ، شرعت في تتبع الآثار .

مضيت، كأنني أسير على درج، أنقل قدمي من أثر إلى آخر، راحت حواف الآثار تكشف مرة عن تربة سوداء متألقة، وأخرى عن عشب هالك، وثالثة عن جليد خالطه الطين ومرة أخيرة عن أحجار معهدة، فجأة اكتشفت أنني دونما وعي غدوت أمشي بخطى عملاقة، تحاكي خطى أومي.

في غمار اقتفائي للآثار حتى مبنى العلوم، عبرت الظل المتطاول، الذي يلقيه المبنى على الجليد، ثم واصلت المسيرة إلى التل المطل على مضمار الألعاب الرياضية الرحب. لم يكن بالوسع تمييز الجزء الناقص من المضمار الممتد لمسافة ثلاثمائة متر من الأرض المتموجة التي يلتف حولها، وذلك بسبب عباءة الجليد البراقة التي غطت كل شيء، وفي جانب من الميدان انتصبت شجرتا زيلكوفا عظيمتان، إحداهماقرب الأخرى، وقد تطاولت ظلالهما تحت شمس الصباح، وترامت عبر الجليد، مضفية المعنى على المشهد، وطارحة النقص الهانئ، الذي تشوب الطبيعة العظمة دائما به. كانت الشجرتان الشبيهتان بأشجار الدردار تتسامقان برقة مطاطية في سماء الشتاء الزرقاء، في انعكاس الجليد من أسف، في أشعة شمس البكرة الواهنة، وبين الفينة والأخرى راح بعض الثلج ينزلق مثلما التبر، من الزوايا التي شكلها لقاء الأغصان العارية من الأوراق والصارمة في امتدادها مع جذعي الشجرتين. بدت قمم أسقف دورات مياه الفتية المصطفة وراء ميدان الألعاب الرياضية وغيضة الأشجار الواقعة خلفها ساكنة في رقادها. ران صمت بالغ العمق على كل شيء، حتى بدا الانزلاق الصامت للجليد وكأن صداه يتردد عالياً ويرف بعيداً.

لم أستطع لبرهة أن أرى شيئا في هذا الامتداد من الوهج. كان المشهد الجليدي على نحو ما يحاكي آثارا كشف حديثاً لإحدى القلاع.

سبح خداع البصر هذا في الضياء والجلال عينهما اللذين لا يوجدان إلا في آثار القلاع العتيقة . هناك ، في ركن من أركان الاثار ، وفي الجليد الممتد على المضمار البالغ عرضه خمسة أمتار تقريباً رسمت حروف لاتينية ضخمة ، كان أدناها إليّ دائرة ، هي حرف أو ، تلاها حرف إم ، وأعقبه حرف ثالث كان لايزال تحت الكتابة ، حرف آي سامق وغليظ .

كانت الكلمة أومي ، وصلت بي آثار الأقدام التي اقتفيتها إلى أو ، ومن الأو إلى الإم ، وأخيراً وصلت إلى شخص أومي نفسه ،كان عندئذ يجر حذاءه المطاطي عبر الجليد لينهي حرف الآي ، محدقا إلى أسفل من فوق ملفعته البيضاء ، ويداه منغرستان في جيبي معطفه . تطاول ظله متحدياً على الجليد ، موازيا لظلي شجرتي الزيلكوفا في الميدان .

اشتعلت وجنتاي ناراً ، صنعت كرة في يدى الغارقتين في قفازيهما ، وألقيتها على . سقطت دون أن تناله .

عندئذ كان قد انتهى من كتابة حرف الآي ، ونظر ، ربما بالصدفة ، نحوى .

صحت : مرحباً!

رغم خشيتى من أن تكون إستجابة أومي الوحيدة هي استجابة مفعمة بالاستياء ، إلا أن عاطفة تستعصي على الوصف كانت تدفعني ، ولم أكد أطلق صيحتي ، حتى ألقيت نفسي أعدو هابطاً المنحدر نحوه ، وفيما كانت أمضى مسرعاً أهل عليّ صوت كان أبعد مما أحلم به ، صيحة ودودة منه ، تضخمها قوته :

- مرحباً ، لا تطق الحروف!

بدا على وجه اليقين شخصاً مختلفا هذا الصباح ، كان كقاعدة عامة لا يؤدي واجباته المنزلية حتى حين يمضي إلى الدار ، وإنما يخلف كتبه في قمطره ، ويحضر إلى المدرسة في الصباحات وقد دس كلتا يديه في جيبي معطفه ، دون أن يتاح له من الوقت إلا ما ينزع فيه معطفه ببراعة ، ويندس في ذيل الصف المدرسي . ياله من تغير اليوم! من المحتم أنه لم يكن يقطع الوقت وحيداً منذ الصباح الباكر فحسب ، وإنما هو الآن يرحب بي بابتسامته الفريدة ، الودودة والخشنة في آن واحد ، وهو الذي عاملني دائما كأنني طفل يتدنى عن مستوى الازدراء ، لكم طال حنيني إلى هذه البسمة ، ولمعة تلك الأسنان البيضاء الفتية!

لكنني حينما دنوت بما يكفي لمشاهدة وجهه المبتسم عن كثب ، فقد قلبي انفعاله الذي توهج في اللحظة السابقة التي صحت فيها : مرحبا! الآن ، فجأة أصابني الحياء بالشلل ، جمدني الإدراك الخاطف لكون أومي ، في قرارة فؤاده ، شخصا تستبد به الوحدة ، ولربما تكلف ابتسامته ليحجب النقطة الضعيفة في درعه السابغ ، التي تصادف أن فهمتها ، لكن تلك الحقيقة لم تجرحني بقدر ما أضاءت الصورة التي كنت أرسمها له .

في اللحظة التي رأيت فيها تلك الأومي مرسومة على الجليد فهمت ربما بصورة نصف واعية كافة أركان وزوايا وحدته المنعزلة أدركت كذلك الدافع الحقيقي ، الذي ربما لم يتفهمه أومي نفسه بجلاء ، والذي دفعه إلى المجيء مبكراً على هذا النحو في الصباح إلى المدرسة . . . ولو أن معبودي ركع ذهنيا أمامي ، وقدم لي عذراً من قبيل :«أقبلت مبكراً لشهود الشجار بالجليد» لكان من المحقق أنني سأفقد من داخلي شيئا يتجاوز في أهميته الكبرياء التي

سيفقدها ، وبالنظر لشعوري بأن دوري حان للحديث ، حاولت في عصبية التفكير فيما يمكن أن أقوله .

أخيرا قلت :

- سينشب شجار بالثلج اليوم ، أليس كذلك؟ ظننت أن السماء ستمطر المزيد من الجليد .

- إحم!

علا تعبير قوامه اللامبالاة المفتعلة ملامحه . تصلب النمط الخارجي القوى لفكه مجدداً منعكسا في خديه ، وبعث ضرباً من المقت الممتزج بالشفقة نحوى في داخله ، كان من الجلى أنه يبذل جهداً ليعدني طفلاً ، مرة أخرى شرعت عيناه تلمعان بوقاحة . ومن الضروري أنه كان شاكراً لي إلى حد ما عدم طرح سؤال واحد عن أحرفه التي رسمها على الجليد . فتنتت بالجهود التي يبذلها لقهر شعوره بالعرفان .

قال : إحم! أكره لبس قفازات الأطفال .

- لكن الكبار يلبسون قفازات صوفية كهذه .

- يا للمسكين ، أراهن أنك لا تعرف حتى ملمس القفازات الجلدية إليك . . . فجأة دفع بقفازيه الجلديين المتقاطرين ثلجا في وجنتي .

ابتعدت مراوغا . في داخلي شب لهب شعور شهواني بدائي ، فدمغ وجنتي بميسمه . شعرت بنفسي أحدجه بعينين صافيتين كالبللور .

منذ ذلك الوقت فصاعدا ، عشقت أومي .

كان هذا هو العشق الأول في حياتي ، وإذا ما اغتفرت لي مثل هذه الطريقة الصريحة في الحديث ، لقلت أنه كان عشقاً حميم الارتباط برغبات الجسد .

بدأ التوق إلى الصيف يساورني ، أو على الأقل إلى مطلع الصيف ، رحت أحدث نفسي بأن الصيف يقيناً سيجلب معه فرصة لرؤية جسده العاري ، كذلك كمنت في أعماقي رغبة خجول في أن أرى ذلك «الشيء الضخم» الذي له .

على لوحة مفاتيح ذاكرتي ، تقاطعت أسلاك ذلك الزوج من القفازات الجلدية الذي كان لأومي ، وزوج من القفازات البيضاء الطقوسية أبدا لم يلح لي أنني قادر على تحديد أي ضروب الذكرى كانت حقيقة ، وأيها كانت زائفة ، ربما كانت القفازات الجلدية أكثر تناغماً مع ملامحه الخشنة ، ومع ذلك فإنه بسبب ملامحه الخشنة على وجه الدقة ربما غدت القفازات البيضاء مجددا أكثر التصاقا به .

ملامح خشنة- على الرغم من أنني أستخدم هذه الكلمات ، فإن مثل هذا الوصف لا يعدو أن يكون توصيفا لانطباع خلقه الوجه العادي لشاب وحيد يختلط بصبية . وعلى الرغم من أن تركيبه الجثماني كان لا مثيل له بيننا فإنه لم يكن أطولنا قامة . ما كان الزي الرسمي الموحي بالإدعاء الذي تطالبنا المدرسة بارتدائه والذي يحاكي زي ضباط البحرية ، ليستقر على أبداننا الغضة ، وحده كان أومي يملأ هذا الزي بشعور الوزن الثقيل وبضرب ما من الشهوانية . مؤكد أنني لم أكن الوحيد الذي ينظر بعيني حاسدتين وعاشقتين إلى عضلاته وكاهله وصدره ، ذلك النوع من العضلات الذي يمكن تبينه ، حتى تحت زي

رسمي خشن الزرقة .

كان ثمة شيء يحاكي شعوراص خفيا بالتفوق يهوم دائما حول وجهه ، وربما كان هذا النوع من الشعور هو الذي يتعالى لهيبه كلما جرحت كبرياء المرء ويبدو أنه بالنسبة لأومي كانت ضروب الفشل من نوعية الرسوب ، في الامتحانات والطرد من المدارس رموزاً لإرادة محبطة إرادة ماذا؟ تصورت في غموض أنه لابد من وجود نوع من الأهداف تنطلق «عبقريته الشريرة» دافعة إياه نحوه . كانت على يقين من أنه لم يعرف تماما الغرض الكامل من هذه المؤامرة الواسعة النطاق التي تحاك ضده .

ثمة شيء في وجهه . . يمنح المرء شعوراً بوفرة الدم الذي يتدفق في زخم عبر بدنه ، كان وجهها بدريا ، ترتفع عظام الوجنتين من خدين داكنين ، شفتان تلوحان وكأنما حيكتا فغدتا خطا بديعا ، وفك قوى ضخم ، وأنف عريض وإن يكن حسن التكوين وغير مبالغ في بروزه ، كانت هذه الملامح غطاء لروح لم تعرف الترويض ، ترى كيف كان يمكن لأحد أن يتوقع أن تكون لمثل هذا الشخص حياة سرية غائرة في الأعماق؟ كان كل ما يأمل المرء في أن يجده لديه هو مثال ذلك الكمال المنسى الذي فقدته بقيتنا في ماض سحيق .

في بعض الأوقات كانت خاطرة عابرة تدفعه إلى التحديق في الكتب المتبحرة ، التي تتجاوز كثيرا عمري ، والتي كنت أعكف عليها . كنت دائما أبتسم متنصلاً ، وأغلق دفتي الكتاب الذي أمسك به لمنعه من رؤيته ، لم يكن ذلك بدافع الخجل ، وإنما كانت تؤلمني أية إشارة إلى أنه قد يهتم بأشياء من نوعية الكتب . قد يفصح عن افتقار للمرونة في التعامل معها ، قد يبدو وكأنه سئم كماله الذي لا يعيه ، شعرت بالمرارة في التفكير بأن صياد الأسماك هذا

قد ينسى الصحراء وينكر أيونيا[1] التي ولد فيها .

رحت أراقب أومي بلا انقطاع ، في قاعة الدراسة ، وفي الملاعب ، فيما كنت أقوم بذلك مضيت في بناءصرح تصور عنه لا تشوب كماله شائبة ، من ثم فليس بمقدوري أن أجد عيباً واحدا في الصورة التي ظلت منطبعة على سطح ذاكرتي ، وفي عمل كهذا الذي أكتبه ينبغي بعث الحياة في الشخصية بوصف خاصية مميزة من نوع ما ، هنة محببة ، لكنني لم أستطع أن انتزع من تذكرى لأومي هنة واحدة من هذا القبيل ، غير أنه كان هناك ما لا يحصى من الانطباعات الأخرى عن أومي ، ولا متناهية في تنوعها تحفل جميعا بفروق دقيقة لا تكاد تبين . وبكلمة كان ما استخلصته منه تحديدا دقيقاً لكمال الحياة والرجولة متجسداً في حاجيه ، جبينه ، مقلتيه ، أنفه ، أذنيه ، وجبينه ، عظام خديه ، شفتيه ، فكيه قفاه ، عنقه ، بشرته ، لون جلده ، قوته ، صدره ، يده ، وسمات أخرى لا حصر لها تمتع بها .

بهذه السمات كمنطلق مارس مبدأ الاختبار عمله ، وأكملت نسقاً منهاجيا لما أعشق وما أمقت : بسببه لا أستطيع ان أحب شخصا مفكراً ، من جرائه لا يجتذبني شخص يضع عوينات ، وهو علة شروعي في عشق القوة ، الانطباع بتدفق الدم ، الجهل ، التلويحات الخشنة ، الحديث اللامبالي ، والانقباض الوحشي الغائر في لحم البدن ، الذي لم يلوثه الذهن بأي شكل . . .

مع ذلك ، ومنذ البداية ، كانت استحالة منطقية تتداخل بالنسبة لي مع

1- الايونيون فرع من العرق الهلليني، أحل أتيكا والساحل الشمالي للبيلوبونيز، واقام مستعمرات خاصة في أسيا الصغرى، حيث أطلق الاسم على مقاطعة كبيرة سميت أيونيا، والإشارة هنا إليها تعميما على بلاد الإغريق التي تعد تقريبا موطن هذا الضرب من العلاقة الإنسانية الخاصة موضع التناول في النص، (هـ.م).

هذه الأشواق الفجة ، جاعلة رغباتي مستحيلة التحقيق . ليس هناك كقاعدة عامة ما هو أكثر منطقية من الدافع الشهواني ، ولكن في حالتي ما أن أشرع في مشاركة شخص ما اجتذبني في التفاهم الذهني حتى تتداعي رغبتي في ذلك الشخص . بل أن اكتشافي أهون النزعات الفكرية شأنا عند رفيق ما كان يجبرني على الالتزام بتقدير عقلاني للقيم . وفي علاقة أخذ وعطاء كالحب يتعين على المرء أن يعطي الشيئ ذاته الذي يطلبه من الآخر ، ومن هنا فإن رغبتي في الجهل لدى الرفيق قد اقتضت ، أيا كان طابعها المؤقت ، تمرداً غير مشروط من جانبي ضد العقل ، لكن مثل هذا التمرد كان مستحيلا بصورة مطلقة بالنسبة لي .

هكذا فإنني حينما أواجه أولئك الذين يتمتعون باللحم الحيواني المحصن ، الذي لم يفسده العقل ، الشباب الخشنين ، البحارة الجنود ، الصيادين ، لا يبقى أمامي ما أفعله غير أن أظل أراقبهم من بعيد بلا مبالاة مشوبة ، حريصا على ألا أتبادل الحديث معهم . ربما كان المكان الوحيد الذي استطيع الحياة به في يسر هو بلاد إستوائية بدائية ، حيث لا أتبادل مع الأخرين إلا جمجمة لا تبين . الآن فيما أتأمل الأمر ، أدرك أنني كنت منذ صدر طفولتي أستشعر توقاً نحو فصول الصيف المتوترة ، من ذلك النوع الذي يتقد للأبد في البلاد البدائية .

طيب ، إذن ، هناك تلك القفازات البيضاء التي كنت بسبيلي للحديث عنها .

كانت العادة في مدرستي أن نكسو أيدينا بقفازات في أيام الاحتفالات ، كان مجرد وضع زوج من القفازات البيضاء بأزرار من عرق اللؤلؤ ، تلتمع في كآبة عند الرسغين ، وبثلاثة صفوف وسيطة من التطريز على الظهر كافياً لطرح رموز

كافة أيام الاحتفالات- قاعة الاجتماع الكابية التي تجرى فيهاالاحتفالات ، صندوق حلوى الشيوزي الذي نتلقاه عند الخروج ، السماء الصافية التي يبدو أن مثل هذه الأيام تحدث تحتها ضوضاء براقة في منتصف العام ثم تنهار .

كان ذلك في عيد قومي خلال الشتاء ، دون شك هو عيد الإمبراطور . في ذلك الصباح جاء أومي إلى المدرسة مبكرا على غير عادته .

دفع طلاب الصف الثاني الطلبة المستجدين بعيدا عن لوح التأرجح في الملعب إلى جانب أبنية المدرسة ، مستشعرين بهجة قاسية في القيام بذلك ، واستولوا عليه تماماً . ورغم أنهم بدوا ظاهريا وكأنهم يزدرون لعبة كالأرجوحة ، فإنهم في قرارة أفئدتهم كانوا يستشعرون حنينا متأرجحا إليها ، وبطردهم الطلاب المستجدين عنوة تمكنوا من اصطناع مظهرا ينقذ ماء وجوههم ، يدعون في ظله الانغماس في هذا اللهو على نحو شبه باعث على السخرية ودونما جدية . تحلق الطلاب المستجدون حول الأرجوحة على مبعدة ، وراحوا يراقبون اللعب الخشن ، الذي يمارسه طلاب الصف الأعلى ، الذين كانوا بدورهم يدركون أن ثمة جمهورا يراقبهم . كانت الأرجوحة المعلقة على سلاسل تترنح جيئة وذهاباً على نحو إيقاعي بحركة مدك ، وكان السباق يدور حول جعل الخصم يسقط من فوق اللوح .

وقف أومي غارسا قدميه في منتصف لوح الأرجوحة ، متطلعا حوله في لهفة بحثا عن خصوم ، لاح في هذا المشهد كأنه قاتل حيل بينه وبين القرار .

لم يكن هناك أحد في صفنا يمكنه الوقوف نداً له ، قفز عدد من الفتيان إلى اللوح أحدهم إثر الآخر ، لتلقيهم يدا أومي السريعتان أرضاً ، لاحت خطاهم وقد انطبعت مبتعدة على الجليد في الأرض المحيطة بالأرجوحة ، التي راحت

تأتلق في أشعة الصباح الباكر .

إثر كل فوز كان أومي يضم يديه معاً ، ويرفعهما عاليا فوق رأسه ، شأن ملاكم فائز ، مبالغا في الابتسام ، فيهلل طلاب السنة الأولى ، ناسين أنه تزعم طردهم بعيداً عن الأرجوحة .

تبعت عيناي يديه المكسوتين بالقفازين الأبيضين . كانتا تتحركان بضراوة ، ولكن في إحكام رائع كمخالب حيوان فتى ، ربما مثل ذئب ، وبين الفينة والأخرى تشقان هواء البكرة الشتوية ، مثل ريشتي سهم ، لتصيبا مباشرة صدر خصم . دائما كان الخصم يتهاوى إلى الأرض المكسوة بالجليد ، ساقطاً مرة على قدميه ، وأخرى على مؤخرته . في مرات نادرة ، ولحظة دفع الخصم بعيدا عن اللوح ، كان أومي نفسه يبدو على وشك السقوط ، وفيما هو يكافح لاستعادة توازن جسده المائل ، كان يبدو مترنحاً في عناء هناك في سمت اللوح الذي غدا زلقا بفعل الجليد منطفئ البريق ، لكن القوة الكامنة في إليتيه المطواعين اللدنتين كانت ترده ، مرة أخرى إلى ذلك الوضع الذي يلوح فيه كالقاتل .

تحرك اللوح يمنة ويسره ، كأنما من تلقاء ذاته ، في أقواس لا تعرف الاضطراب . . .

فيما رحت أراقب ، عمني فجأة قلق ، ضرب مبرح الألم من القلق يستعصى على التفسير . حاكى دواراً كالذي يمكن أن يلم بالمرء من جراء التحديق في تأرجح اللوح ، لكنه لم يكن كذلك . ربما كان دواراً ذهنياً ، قلقا يغدو توازني الداخلي فيه على وشك التداعي ، إزاء مرأى كل حركة من حركاته المحفوفة بالخطر . وتفاقم اهتزاز هذا الاضطراب من جراء وجود قوتين

متضادتين في غماره راحتا تتجاذبانني ، وكل منهما تنشد السيطرة عليّ ، كانت الأولى غريزة حفظ الذات ، أما القوة الثانية ، التي عقدت العزم بعمق أشد وزخم أكبر على التدمير التام لتوازني الداخلي ، فكانت دافعاً لا يقاوم باتجاه الانتحار ، دافعاً مراوغاً ، خفياً ، غالبا ما يسلم المرء نفسه له دونما وعي .

- ماذا دهاكم ياحفنة من الجبناء . أما من آخر يبرز لي؟

كان جسم أومي يتأرجح في رقة يمنة ويسرة ، وإليتاه تطاوعان حركة الأرجوحة ، أراح يديه المكسوتين بالقفازين الأبيضين فوقهما ، تألق الشعار المذهب على قبعته تحت شمس الصباح . أبداً لم أره وسيماً كما لاح لي في هذه اللحظة .

صحت : أنا لها!

تزايد وجيب قلبي معربداً في عنف . استخدمته كمقياس لأقدر على وجه الدقة اللحظة التي سأنطق فيها بهذه الكلمات أخيرا . كان الأمر كذلك دائما في اللحظة التي أستسلم فيها للرغبة . بدا لي أن ذهابي ووقوفي بإزاء أومي على ذلك اللوح هو حقيقة قدرت سلفاً ، وليست عملاً أملاه دافع فحسب ، وفي سنوات تالية ضللتني أعمال كهذه ، وحملتني على التفكير بأنني «رجل يتمتع بإرادة قوية» .

صاح الجميع : حذار! حذار! سيطاح بك .

وسط هتافاتهم الساخرة ، صعدت إلى أحد جانبي الأرجوحة . فيما حاولت الصعود شرعت قدمي في الانزلاق . من جديد حفل الهواء بصيحات السخرية الصاخبة .

حيّاني أومي بوجه ضاحك . حاول التظاهر بالبلاهة بكل قوته ، وتصنع أنه على وشك الانزلاق ، جعل يضايقني بالتلويح بأصابعه المقفزة ودفعها نحوى ، أمام عيني بدت تلك الأصابع بمثابة الأطراف الحادة لسلاح خطر يوشك أن يخترقني .

إلتقت راحات أيدينا المكسوة بالقفازات مرات عديدة في صدمات لاذعة الألم ، وفي كل مرة كنت ألتوى تحت عتو الضربة ، بدا جلياً أنه كان يكبح جماح قوته عامداً ، كأنما كان يرغب في الاستمتاع باللهو بي ، مؤجلاً ما كان يمكن أن يكون لولا ذلك هزيمة عاجلة تحيق بي .

- أوه! إنني خائف- ما أقواك! لقد هزمت ، أوشك على السقوط ، أنظر إليّ!

أبرز أومي لسانه ساخراً ، وتظاهر بأنه على وشك السقوط .

كان أمراً مؤلما على نحو عصى الاحتمال أن أرى وجهه الساخر ، أن أشاهده يقضي دونما قصد على جماله . وعلى الرغم من أنني كنت الآن ادفع للخلف على اللوح لم أستطع إلا أن أنكس رأسي . في هذه اللحظة عينها فوجئت بانقضاضة من يده اليمني وفي اندفاع تلقائي لتجنب السقوط ، دفعت بيدي اليمنى في الهواء ، وأفلحت بالمصادفة في التشبث بأطراف أصابع يده اليمنى غمرني شعور مضمخ بالحياة بلمس أصابعه المتضامة داخل قفازه الأبيض .

للحظة ، حدق أحدنا في مقلتى الآخر . كانت حقاً لحظة واحدة ، تبددت النظرة الساخرة ، واكتسى وجهه تعبيرا غريب ، الشحوب ، تذبذب شيء نقى ، شيء ، لا هو عداء ولا هو مقت ، هناك كأنه وتر قوس . أو ربما كان هذا خيالا

فحسب . ربما لم يعد ذلك أن يكون النظرة الصارمة الجوفاء التي فرضتها لحظة شعر فيها بأنه يفقد توازنه ، وهو يجذب من أطراف أصابعه ، أيا ما كان الأمر ، أدركت بحدسي وعلى وجه اليقين أن أومي أدرك الطريقة التي أنظر بها إليه في تلك اللحظة ، وشعر وأحس بالقوة الخافقة التي تدفقت كالبرق بين أصابعنا ، وخمن كنه سرى : أنني أعشقه ، ولا أحب أحداً غيره في الدنيا .

في هذه اللحظة عينها ، على وجه التقريب ، سقطنا كلانا من فوق لوح الأرجوحة .

ساعدني أحدهم في الوقوف ، كان أومي هو الذي ساعدني جذب يدي عاليا بخشونة ، ودون كلمة واحدة أزاح القذر عن ردائي المدرسي . كان مزية من القذر والجليد المتألق يلطخ كوعه وقفازيه .

تأبط ذراعي ، شرع في السير بعيدا معي . تطلعت إلى وجهه ، كأنما في استنكار لهذا الإفصاح عن الحميمة .

كنا جميعا في مدرستي زملاء في الدراسة منذ أيام المدرسة الابتدائية ، ولم يكن ثمة ما هو غير مألوف في أن يضع أحدنا يده على كتفي الآخر . في هذه اللحظة دوت صفارة تشكيل الصفوف ، فسارع الجميع وهم يسيرون على هذا النحو الحميم ذاته ، لم يكن سقوطي مع أومي على الأرض ، بالنسبة لهم ، إلا ختاما للعبة ، كانوا قد شرعوا تدريجيا في الشعور بالضيق والملل من مشاهدتها ، بل أن سيرى مع أومي بأذرع متشابكة ما كان بالمشهد الذي يستحق انتباها خاصاً .

لكل هذا ، كانت بهجة غامرة تلك التي استشعرتها فيما كنا نسير وأنا

متكئ على ذراعه ، وربما لبنيتي الهشة كنت أستشعر دائما هاجسا بمقدم الشر في غمار كل فرحة . لكنني في هذه المرة لم أشعر إلا بالملمس الوحشي الحاد لذراعه ، بدا هذا الشعور وكأنه ينتقل من ذراعه إلى ذراعي ، وحينما يلج جسمي ينتشر ، إلى أن يتدفق فيضانا من بدني بكامله . أحسست أنني ينبغي أن أسير معه ، على هذا النحو ، حتى نهاية الأرض .

لكننا وصلنا إلى المكان الذي تتشكل فيه الصفوف ، حيث سرعان ما ترك ذراعي واحتل مكانه في الصف . بعد ذلك لم ينظر باتجاهي ، وخلال الحفل الذي تلا هذا جلس على بعد أربعة مقاعد مني ، ومراراً وتكراراً رحت أنقل ناظري بين اللطخ التي تعلو قفازى الأبيضين وتلك التي تكسو قفازي أومي . . .

تجردت عبادتي العمياء لأومي من أي عنصر من عناصر النقد الواعي ، وحيثما تعلق الأمر به غابت الرؤية الأخلاقية عني . وما إن كنت أحاول الأمساك بكتلة عبادتي العاشقة الفوضوية في إطار قيود التحليل حتى تتبدد منداحة في المجهول . وإذا كان قد وجد في يوم من الأيام عشق يتجرد من الدوام ومن التطور ، فقد كان هذا هو على وجه الدقة العاطفة التي استشعرتها . كأنما كانت العينان اللتان أرمق بهما أومي دائما هما عينان تعرفان «النظرة الأولى» أو كانت- إذا جاز القول بذلك- عيني «النظرة البدائية» كان موقفا غير واع على نحو محض من جانبي ، جهداً دءوبا لحماية نقائي البالغ الرابعة عشر من العمر من عملية التآكل .

أيمكن أن يكون هذا حبا؟ لنفترض أنه شكل من أشكال الحب ، فعلى الرغم من أنه يحتفظ عند النظرة الأولى فيما يبدو بنقائه إلى الأبد بتكرار شكله مرات عديدة ، فإنه بدوره يتمتع بضربه الخاص الفريد من التدني والتحلل . وقد

كان تدنيا أكثر تفجراً بالشر من أي تدن لضرب عادي من الحب . حقا أنه من بين كافة ضروب التحلل في هذا العالم يبدو النقاء المتحلل أكثرها خبثاً .

رغم هذا ، وفي غمار عشقي هذا الذي لم يجاوز لأومي ، في خضم هذا الحب الأول الذي واجهته في الحياة بدوت كطائر صغير يخفي شهواته البدنية البريئة تحت جناحه . لم يكن ما يغريني هو الرغبة في التملك ، إنما أغواني الإغراء ذاته متجرداً من كافة ضروب التجمل .

أقل ما يقال إنني أثناء وجودي بالمدرسة ، وبصفة خاصة خلال الدروس مضجرة ، ما كنت استطيع نزع عيني بعيدا عن الملمح الجانبي لوجه أومي ترى ماذا كان بوسعي ان أفعل أكثر من ذلك في وقت كنت أجهل فيه أن الحب هو أن تسعى ويسعى إليك؟ لم يكن الحب بالنسبة لي يتجاوز حواراً قوامه أحجيات صغيرة لا ردود عليها ، أما عن روح عشقي المتبتل فلم يحدث أبداً أن تخيلت أنه شيء يتطلب نوعا من الرد .

أصابتني نوبة برد ذات يوم ، ورغم أنها لم تكن ذات بال على الإطلاق فقد مكثت في الدار ، ولم أذهب للمدرسة ، لدى عودتي إليها في اليوم التالي ، اكتشفت أن اليوم الذي تغيبت فيه لم يكن إلا يوم الفحص الطبي لفصل الربيع في عامنا الثالث ، وبالمثل تغيب العديد من الطلاب الآخرين عن الفحص ، فمضينا جميعا إلى العيادة .

هناك ، راح موقد غازي يرسل في سنا الشمس لهباً أزرق متهافتاً ، حتى ليصعب على المرء التيقن من أنه مشتعل . لم يكن ثمة إلا رائحة المطهرات ، لم تفح تلك الرائحة التي تذكر باللون الوردي الشاحب ، التي تسود في قاعة تزدحم بفتية ينتظرون فحصا طبيا وأجسامهم العارية تتضارب وتتدافع بعضها

نحو البعض الآخر ، بدلاً من ذلك لم يكن هناك إلا عدد محدود منا ينزعون ثيابهم في صمت ، وهم يرتعدون على نحو بائس . . .

ثمة فتى مهزول ، كان مثلى دائم الإصابة بنوبات البرد . اعتلى الميزان ، رحت أحدق في ظهره الشاحب الناتئ العظام المكسو بالزغب . فجأة تذكرت رغبتي الأزلية الوحشية في رؤية جسد أومي العاري . أدركت كم كنت غبياً حينما لم أعرف مسبقاً أية فرصة متكاملة كان يمكن أن يتيحها الفحص الطبي أمس لتحقيق هذه الرغبة ، أما الآن وقد ضاعت هذه الفرصة بالفعل فلم يبق ما أفعله إلا انتظار صدفة عشوائية في المستقبل .

غمرني الشحوب . في غمار شعوري باللون الضارب إلى الخضرة الذي كساني فجأة ، عرفت ضرباً من الأسى يحاكي برداً يخترق العظام ، حدقت ذاهلاً في الهواء ، خادشا قروح التطعيم البشعة التي تعلو ذراعيّ النحيلتين ، نودى اسمى ، بدا الميزان تماما مثل مقصلة تعلن ساعة إعدامي .

- ثمانية وثمانون .

نبح الممرض ناحية طبيب المدرسة ، كان حاجباً سابقاً في مستشفى عسكري ، وما زال يحتفظ بالسمات العتيقة .

غمغم الطبيب محدثاً نفسه ، فيما هو يدون الرقم في بطاقتي :

- وددت لو أنه بلغ تسعين رطلاً على الأقل .

اعتدت التعرض لهذه المعاملة في كل فحص طبي . لكنني اليوم كنت سعيدا لأن أومي لم يكن حاضراً ، فيشاهد إذلالي حتى إن كلمات الطبيب لم تسبب لي العذاب المعتاد ، وللحظة تصاعد شعوري بالارتياح ، حتى رقى إلى

مرتبة الفرح . . .

- ليكن ، بالتالي!

دفع الممرض كتفى منحيا وقد نفد صبره ، لكنني هذه المرة لم أحدجه بنظرة الكراهية والضيق المعتادة .

بالرغم من هذا كله ، فمن المحتم أنني استشرفت نهاية حبي الأول ، وفي الغالب كان هذا القلق الذي خلقه هذا الهاجس هو الذي شكل بؤرة لذتي .

حل يوم في أواخر الربيع ، بدا كعينة حائك قصت من حزام الصيف ، أو مثل تجربة ثوب الفصل المقبل . كان ذلك هو اليوم الذي يقبل موفداً من قبل الصيف ليتفقد خزائن ثياب الجميع ويتيقن من أن كل شيء معد . كان اليوم الذي يبدو فيه الناس وقد ارتدوا قمصان الصيف ليظهروا أنهم اجتاوزا امتحانا عسيراً .

أصابتني نوبة برد ، رغم دفء اليوم ، وآلمتنى شعبي الهوائية ، تصادف أن أحد أصدقائي عاني من الام في معدته ، فمضينا معا إلى العيادة لنحصل على تصاريح مكتوبة تخولنا أن نراقب التدريبات الرياضية فحسب ، دون أن نضطر للمشاركة فيها .

في طريق عودتنا سرنا نحو قاعة الألعاب الرياضية بأقصى بطء نستطيعه ، أمدتنا زيارتنا للعيادة بسبب وجيه لتأخرنا حرصنا على أن نقلل ولو بهامش محدود الوقت المضجر الذي سنمضيه في مشاهدة الألعاب .

- يا إلهي . كم هو حار هذا اليوم ، ألا تراه كذلك؟

قلتها ، نازعا سترة ردائي .

- خير لك ألا تفعل هذا ، على الأقل وأنت مصاب بالبرد ، سيرغمونك على التدريب على أية حال ، إن رأوك على هذا النحو .

أعدت ارتداء سترتي مسرعاً .

- لكن الأمر سيكون على ما يرام بالنسبة لي ، فمعدتي وحدها هي التي تولمني . قالها صديقي ، وشرع في حذق ينزع سترته ، كأنما ليغيظني بذلك .

بلغنا قاعة الألعاب ، فرأينا من خلال الملابس المعلقة على المشاجب الممتدة على الحائط أن الفتية نزعوا ستراتهم ، بل وخلع بعضهم قميصه لاحت المنطقة المحيطة بأجهزة التدريب متألقة الضوء ، ونحن نطل عليها من القاعة المعتمة . أفرز تركيبي الهش استجابته المعتادة ، سرت نحو أجهزة التدريب مصدرا سعالي القصير الشكس .

لم يكد مدرب الألعاب الرياضية الهين الشأن يلقى نظرة على أعذارنا الطبية المكتوبة التي أسلمناها له ، وإنما التفت على الفور إلى الفتية المنتظرين ، و صاح :

- ليكن حالياً ، دعونا نجرب «العقلة» ، أومي أرهم كيف يؤدي التدريب!

شرعت أصوات ودودة تردد اسم أومي خلسة ، كان قد اختفى على نحو ما يصنع غالبا خلال التمارين الرياضية . ولم يكن احد يدري ماذا يصنع في هذه المناسبات ، لكنه في هذه المرة أقبل مجددا في تكاسل من وراء شجرة كانت أوراقها الخضراء الغضة ترتعد في خفة .

حينما رأيته ، إصطخب قلبي في صدري ، كان قد نزع قميصه ، لم يترك شيئا يكسوه إلا قميصاً داخلياً ألاق البياض دون أكمام يغطي صدره . جعلت بشرته الداكنة القميص الداخلي يبدون أكثر نصاعة ، كان بياضا يمكنك على وجه التقريب أن تتشممه على بعد كأنه لصوق باريس . وكان ذلك اللصوق الأبيض محاكا على نحو مريح يظهر التعاريج الجريئة لصدره ، ويشف عن حلمتيه .

- القعلة . أليس كذلك؟

سأل أومي المدرب في جفاف ، وبصوت يشئ بالثقة .

- بلى . هذا صحيح .

عندئذ ، وبذلك التراخي المتعالى ، الذي غالبا ما يبديه من يتمتعون بتركيب جثماني وثيق ، مد أومي يديه إلى الأرض لاهياً ، كسيا راحتيهما بالرمل المبلل من تحت سطح الأرض مباشرة ، نهض ، حك يديه إحداهما بالأخرى في خشونة ، إلتفت نحو العقلة إلتمعت عيناه بحسم جرئ ، كمن يتحدى الآلهة . وللحظة عكس بؤبؤاه سحب وسماء مايو الزرقاء بترفع بارد .

إندلعت وثبة في بدنه . في الحال تدلى جسمه من العارض معلقا هناك بذراعيه القويتين ذراعان جديران يقينا بشم الهلب .

- آآه!

ارتفعت صيحة الاعجاب التي ندت عن رفاقه ، وطفت دبقة في الهواء .

كان بوسع أي من الفتية أن يحدق في قلبه ، ويكتشف أن إعجابه لم يثر

إزاء استعراض القوة الذي قام به أومي . وإنما كان إعجابا بالشباب ، بالحياة ، بالتفوق . وكان دهشة إزاء وفرة الشعر النامي الذي كشفت ذراعا أومي المرفوعتان عنه تحت أبطيه .

تلك هي المرة الأولى ، ربما التي رأيت فيها مثل هذه الوفرة من الشعر . بدت مبالغة وإسرافا ، شأن الوفرة المترفة لبعض أعشاب الصيف الشائكة ، ومثلما يحدث حينما لا تكتفي مثل هذه الأعشاب بتغطية حديقة في الصيف ، فتمتد فوق درج حجري ، كذلك تدفق الشعر ناتئا من أبطى أومي البديعين ، وتمدد كثيفا نحو صدره . تألقت هاتان الاجمتان في وميض صقيل وهما تستحمان في نور الشمس ، وبدا البياض الشاهق لجلده هناك مثل رمال بيضاء تطل منهما .

حينما شرع في جذب جسده إلى أعلى فوق العارض ، برزت عضلاته صلدة ، وتضخم كتفاه مثلما سحب الصيف . تحولت أجمتا ابطيه إلى ظلال قاتمة واختفتا تدريجيا ، وأخيراً إحتك صدره متصاعدا عاليا بالعارض الحديدي ، مرتجفا هناك في رقة ، وبتكرار هذه الحركات راح يجذب جسده عاليا مرات عديدة .

قوة الحياة . كانت الوفرة المحض لقوة الحياة هي التي تدفقت فغمرت الفقية ، قهرهم الشعور الذي كان يمجه بتمتعه بزخم الحياة ، الشعور بالعنف المفتقر للدهف الذي لا يمكن تفسيره إلا باعتباره حياة توجد من اجل ذاتها ، نمطه الخاص من وفرة الحياة اللامبالية مكفهرة المزاج ، دون أن يدري أومي انسلت قوة ما إلى لحمه ، وعكفت على السيطرة عليه والاندفاع عبره والتقاطر خارجة لتكسف بهاءه . في هذا الصدد حاكت هذه الأرض لا لشيء إلا ليصبح

ضحية بشرية مجردة من العقل ، ضحية لا تخشى العدوى . والأشخاص الذين يحيون في خوف من العدوى لا يمكنهم إلا النظر لمثل هذا اللحم باعتباره تقريعا مريراً . . . تراجع الفتية مترنحين ، بعيدا عنه .

أما عني ، فقد ساورني الشعور ذاته الذي اجتاح الفتية الآخرين ، مع اختلافات مهمة ، وكان كافيا على أية حال لجعل وجهي يتضرج خجلاً ، فقد كنت أعاني من انتصاب منذ اللحظة الأولى التي لمحت فيها تلك الوفرة المتموجة تحت أبطية . كنت أرتدي سراويل ربيعية خفيفة ، وخفت أن يلاحظ الفتية الآخرون ما وقع لي ، وحتى إذا نحينا الخوف جانبا فقد كان ثمة انفعال اخر يخترم قلبي ، لكنه لم يكن يقينا نشوة خالصة . قبعت هناك ، أحدق في البدن العاري الذي طالما اشتقت لرؤيته . وأطلقت صدمة رؤيته على نحو غير متوقع سراح إنفعال بداخلي كان مناقضا للفرح .

كان هذا الانفعال

كان هذا الانفعال هو الغيرة . .

قفز أومي إلى الأرض بمظهر كذلك الذي يبدو به من أنجز عملاً نبيلاً ، حينما سمعت صدمة سقوطه أغمضت عيني ، وهززت رأسي ، ثم حدثت نفسي بأني ما عدت أعشق أومي .

كانت الغيرة ، غيرة وحشية حتى لتدفعني مختارا للتنكر لعشقي لأومي .

ربما كان للحاجة- التي بدأت استشعرها حوالي ذلك الوقت إلى مساق أسبرطي في الانضباط الذاتي- علاقة بهذا الموقف (لا يعدو كوني عاكفا ، على تدبيج هذا الكتاب أن يكون بالفعل مثالاً على جهودى المتواصلة في هذا الاتجاه) كنت دائماً ، بسبب مرضى والرعاية المسرفة التي تلقيتها منذ حداثتي ، أكثر خجلاً من أن أحدق في عيون الناس مباشرة ، لكنني الآن يسيطر عليّ شعار واحد :«كن قويا!» .

ولتحقيق هذه الغاية عكفت على ممارسة تدريب يتمثل في التقطيب بثبات في وجه هذا الراكب أو ذاك من ركاب الحافلات ، التي كنت أستقلها في الذهاب إلى المدرسة والعدوة منها . لم يبد معظم الركاب الذين كنت أختارهم بصورة عشوائية ما ينم بصفة خاصة عن الخوف من أن يحدق بهم فتى ضعيف شاحب ، لكنهم كانوا يلتفتون إلى الناحية الأخرى ، وكأنما حل بهم الضيق ، ونادراً ما كان أحدهم يبادلني التقطيبة بمثلها ، وحينما ينظرون بعيداً كنت أعد ذلك فوزاً لي ، وبهذه الطريقة دربت نفسي تدريجيا على التحديق في عيون الناس . . .

بعد أن قررت أنني تخليت عن الحب ، أزحت كافة الأفكار الأخرى عنه

من ذهني ، كان ذلك استنتاجا متعجلاً يفتقر إلى التفكير . لم أضع موضع الاعتبار واحدا من أوضح براهين العشق الجنسي ، أي ظاهرة الانتصاب . فعلى امتداد فترة طويلة حقاً عرفت الانتصاب مرات عديدة ، إنغمست كذلك في تلك «العادة السيئة» التي تستحث الانتصاب حينما أنفرد بنفسي ، دون أن أصبح مدركاً لما تأتيه يداى . وعلى الرغم من تملكي لناحية المعرفة المعتادة فيما يتعلق بالجنس ، لم يكن الشعور بكوني مختلفاً قد أصابني بعد .

لا أرمي إلى القول بأنني كنت أنظر إلى رغباتي تلك ، التي تنحرف عن المعايير المقبولة ، باعتبارها رغبات عادية وتقليدية ، ولا أقصد أنني كنت أتصرف بوحي الانطباع الخاطئ بأن أصدقائي كانت لهم الرغبات نفسها . ومن الغريب أنني كنت منغمسا في أقاصيص رومانسية ، حتى أني وهبت كافة أحلامي الوردية لأفكار عن الحب بين رجل وعذراء وعن الزوج ، تماماً كما لو كنت فتاة صغيرة لا تعرف شيئاً عن الدنيا . ألقيت بحبي لأومي إلى كومة من نفايات الأحجيات المهملة دون أن أبحث مرة واحدة بعمق عن معناه الآن حينما أكتب كلمة حب ، عندما أدون كلمة عاطفة ، أجد أن المعنى الذي أفهمهما به مختلف تماما عن فهمي للكلمتين في ذلك الوقت . بل أنني لم أحلم أبداً بأن مثل هذه الرغبات التي استشعرتها نحو أومي قد يكون لها اتصال مهم بالحقائق الواقعية لحياتي .

ومع ذلك فإن غريزة ما بداخلي كانت تلح في جعلي أسعى للعزلة ، حتى أظل نائباً بحسباني شيئا مفارقاً . تجلت هذه القوة القاهرة في شكل ضيق غريب وغامض ، وقد سبق لي أن وضعت بالفعل كيف أن شعوراً بالقلق كان يجثم على صدري لدى فكرة تحولي إلى فتى بالغ ، وقد استمر شعوري بالنمو مصحوباً

بقلق غريب نافذ .

خلال سنوات نموي حيكت طية عميقة إلى كافة السراويل الجديدة لتتم إطالتها كل عام ، وكما هو الشأن في أية أسرة أخرى سجل طولي المتزايد بعلامات متتابعة بالقلم على أحد أعمدة الدار . كانت الاحتلافات الصغيرة لهذه المقاييس الدورية تجري دائمًا في قاعة المعيشة ، تحت أنظار العائلة بأسرها ، وفي كل مرة كانوا يداعبونني ، يجدون لذة ضيقة الأفق في استطالة قامتي ، كنت أرد بابتسامات مغتصبة .

ملأتني فكرة أنني قد أبلغ طول فتى بالغ بهاجس خطر مخيف ، فمن ناحية تفاقم شعوري غير القابل للتحديد بالقلق من قدرتي على أن أعيش أحلاماً منبتة الصلة بالواقع ، ومن ناحية أخرى دفعني نحو «عادتي السيئة» التي جعلتني ألوذ بتلك الأحلام كان القلق عذرى . . .

ذات مرة قال لي صديق ضاحكاً ، مشيراً إلى ضعف بنيتي :

- يقيناً ستلقي حتفك قبل بلوغ العشرين .

- ياله من قول فظيع!

رددت مجعداً وجهي في ابتسامة مريرة . لكن نبوءته كانت تتمتع بجاذبية غريبة العذوبة ورومانسية بالنسبة لي .

واصل حديثه قائلا :

- أترغب في الرهان على هذا؟

- لكنك إذا راهنت على موتى ، فلن يبقى لي إلا أن أراهن على حياتي .

قال صديقي متحدثا بكل قسوة الشباب :

- هذا صحيح . أليس كذلك؟ ياله من عار . أليس كذلك . يقيناً ستخسر . ألن تخسر؟

كان الأمر حقيقياً ، لا ينطبق عليّ وحدي ، وإنما على كافة الطلاب ممن هم في عمري ، ما من شيء يقارب نضج أومي كان يمكن رصده بعد تحت أباطنا ، وإنما كانت هناك فحسب براعم بالغة الوهن ، بعد الأمل بأنها قد تزهو يوماً ، لهذا السبب لم يحدث من قبل أبداً أن أبديت اهتماماً خاصاً بهذا الجزء من جسدي ، يقيناً أن مرأى الشعر تحت إبطي أومي في ذلك اليوم هو الذي أورثني الولع بالإبط .

مضى الأمر على هذا النحو حتى أنني كنت حينما أستحم أقف طويلا أمام المرآة ، محدقاً فيما انعكس على صقالها قبيحاً من بدني العاري ، كانت تلك حالة أخرى لفرخ البط القبيح الذي أعتقد انه سيغدو بجعة ، اللهم إلا فيما يتعلق بأنه في هذه المرة قدر لتلك القصة الخرافية البطولية أن تكون لها نهاية عكسية على وجه الدقة ، وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك أدنى تشابه بين كتفى المهزولين وصدري الضيق وبين كتفى أومي وصدره ، فقد كنت أحدق بها في المرآة ، وأجد عنوة أسبابا للاعتقاد بأنني سيكون لي ذات يوم صدر مثل صدر أومي وكتفان يحاكيان كتفيه . ولكن على الرغم من هذا ، تكون جليد هش هنا وهناك فوق سطح قلبي . كان شيئاً يتجاوز القلق . كان ضربا من القناعة المازوكية ، قناعة راسخة ، كأنما تستند إلى وحي إلهي ، قناعة جلعتني

أحدث نفسي :«أبدا لن تستطيع في هذه الدنيا أن تحاكي أومي» .

في أعمال الطبع بالروسم التي خلفها عهد الجنروكو يجد المرء غالبا أن ملامح العاشقين متماثلة على نحو مذهل ، فليس هناك إلا القليل مما يميز الرجل عن المرأة ، وبالمثل يقترب المثال السائد للجمال في النحت الأغريقي من التماثل الوثيق بين الأنثى والذكر . ألا يمكن أن يكون ذلك أحد أسرار الحب؟ ألا يمكن أن يسري في أعمق مكامن الحب حين يرغب كل من الرجل والمرأة في إطاره في أن يصبح على وجه الدقة صورة الآخر؟ ألا يمكن أن يدفعهما هذا الحنين قدماً ، فيقودهما أخيراً إلى رد فعل مأساوي ، يسعيان في غماره لتحقيق المستحيل بالمضي إلى الطرف الأقصى المناقض؟ وباختصار ، حيث أن حبهما المتبادل لا يمكن أن يحقق كمال الهوية المشتركة ، أليست هناك عملية ذهنية يحاول كل منهما عن طريقها تأكيد نقاط اختلافهما ، فيؤكد الرجل ذكورته والمرأة أنوثتها ، ويستخدم هذا التمرد ذاته كشكل من أشكال الدلال نحو الآخر؟ أو أنهما إذا ما حققا التماثل فإنه لسوء الطالع لايدوم إلا للحظة وهم عارضة . ذلك أنه فيما تصبح الفتاة أكثر جرأة والفتى أشد حياء ، تحل لحظة يتجاوز كل منهما الآخر فيها ، ماضياً نحو الطرف المقابل ، مبالغين في تحقيق هدفهما ، وماضين إلى ما وراء ذلك ، إلى نقطة عندها يتلاشى الهدف .

إذا نظرنا في هذا الضوء إلى غيرتي ، غيرة كانت من الوحشية بحيث دفعتني لأن أحدث نفسي بأني تخليت عن حبي ، لوجدنا حباً أكبر . كنت قد انتهيت بعشق تلك الأشياء المماثلة لتلك التي لأومي ، والتي كانت بدرجات بطيئة ، وعلى نحو متباعد ، تبرعم تحت إبطي ، تنمو تغدو أكثر دكنة وقتامة . . .

حلت العطلة الصيفية ، على الرغم من إنني كنت أتطلع إليها بصبر نافذ ،

فقد برهنت على أنها واحدة من فترات الانتظار تلك التي لا يعرف المرء خلالها ماذا يصنع بنفسه ، ورغم سعيي إليها ، برهنت على أنها وجبة عسيرة الهضم بالنسبة لي .

منذ إصابتي بحالة سل خفيفة في طفولتي ، خطر على الطبيب تعريض نفسي للأشعة فوق البنفسجية القوية ، وما كان يسمح لي بقرب البحر أن أظل تحت أشعة الشمس المباشرة لأكثر من نصف ساعة في المرة الواحدة ، وكان أي انتهاك لهذه القاعدة يجلب معه عقابه الخاص في صورة هجوم سريع للحمى . بل لم يكن يسمح لي بالمشاركة في التمرين على السباحة بالمدرسة ، من ثم فلم أتعلم كيفية السباحة أبداً ، وفيما بعد اكتسب هذا العجز عن السباحة أهمية جديدة ، فيما يتعلق بافتتاني الملح بالبحر وما غدا يعنيه بالنسبة لي ، وبتلك المناسبات التي قبضت قوته الكاسحة فيها على ناصيتي .

غير أنني لم أكن في الوقت الذي أتحدث عنه قد قابلت إغراء البحر الغلاب هذا ، مع ذلك وفي غمار رغبتي بشكل ما في أن أنفض ضجر فصل كان مقيتا تماما بالنسبة لي ، فصل كان فضلا عن ذلك يوقظ في أشواقا عصية التفسير ، أمضيت الصيف على الشاطئ مع أمي وأبي وأخي وأختي . . .

فجأة أدركت أنني قد تركت وحدي على الصخرة .

كنت قد سرت على امتداد الشاطئ نحو هذه الصخرة مع أخي وأختي ، منذ وقت قصير ، باحثين عن الأسماك الصغيرة التي كانت تتألق في البريكات التي تصنعها الصخور ، لم يكن صيدنا طيباً على نحو ما توقعنا ، فحل الضجر بأختي وأخي الصغيرين . أقبلت خادمة لتدعونا للعودة إلى مظلة الشاطئ ،

حيث كانت تجلس أمي . رفضت العودة غاضباً ، فصحبت الخادمة أخي وأختي ، وعادت بهما مخلفة إياي وحيداً .

راحت شمس أصيل الصيف تضرب سطح البحر في دأب كان الخليج بأسره امتداداً هائلاً من الوهج ، وعلى الأفق وقفت بعض سحب الصيف ساكنة ملتفة بالصمت ، وقد غرست نصف أشكالها الرائعة الجنائزية الحافلة بالنذيرة في البحر ، كانت عضلات السحب شاحبة كالمرمر .

إنطلقت بضع مراكب شراعية وزوارق بخارية بعيداً عن رمال الشاطئ ، راحت تتحرك في تكاسل على سطح البحر المفتوح الصدر . وفيما عدا الأشباح الضئيلة للمراكب لم يبد مخلوق بشري واحد . حل صمت مراوغ بكل شيء ، كما لو أن امرأة مغناج أقبلت لتحكي أسرارها ، هب نسيم خفيف من البحر حاملاً للآذان صوتاً وانياً ، كأنه خفق أجنحة خفية ترف بها حشرات مبتهجة . كان الجزء القريب من الشاطئ يتألف كلية من صخور منخفضة ، هشة ، تمتد باتجاه البحر . لم يكن ثمة إلا حرف أو حرفان ناتئان كذلك الذي اقتعدته .

بدأت الموجات من عرض البحر ، أقبلت جارفة على سطحه ، في شكل هضاب دائرية ، امتدت تجمعات من الصخور المنخفضة باتجاه البحر ، حيث كانت مقاومتها للأمواج ترسل إصطفاقات عالية في الهواء ، مثل أياد بيضاء تستجدي العون ، دفعت الصخور ذاتها في شعور البحر بالزخم العميق ، بدت كما لو كانت تحلم بعوامات مطلقة السراح من سلاسلها . ولكن في لمحة تتجاوزها الهضبة المائية الدائرية ، تقبل مندفعة نحو الشاطئ بسرعة لا تهدأ ، وفيما هي تقترب منه استيقظ شيء ما ونهض متطاولاً في رأسها الأخضر . تعملقت الموجة وكشفت على مدى البصر الجسد المرهف الموسى لبلطة البحر

الهائلة متجردة ومتأهبة للضرب . فجأة سقطت المقصلة القاتمة الزرقة مفجرة نثاراً من دم أبيض . تابع بدن الموجة ، متقداً ومتهالكاً ، رأسها المجتز ، وللحظة عكس زرقة السماء النقية ، تلك الزرقة المفارقة لما أرضى ذاتها ، والتي تنعكس في صقال عيني شخص على حافة الردى . . . خلال لحظة هجوم الموجة ، التي لم تدم طويلا ، أخفت الصخور الناعمة المتآكلة نفسها في الزبد الأبيض ، أما وقد برزت من البحر تدريجياً فإن ألقها شع متماوجاً وسط بقايا الموجة المتراجعة . كان بوسعي من فوق قمة الصخرة ، حيث وقفت أرقب ، أن أشاهد قواقع الناسك وهي تنزلق في جنون عبر الصخور المتألقة ، والسرطانات وهي تتجرد من الحركة في الوهج .

فجأة غدا شعوري بالعزلة ممتزجاً بذكرياتي عن أومي كان الأمر على هذا النحو : جعلني إنجذابي ، الذي استشعرته طويلا ، نحو الوحدة التي تفخم حياة أومي ، وحدة ولدت من حقيقة أن الحياة قد استعبدته ، أرغب في أول الأمر في أن تكون لي هذه الصفة ذاتها ، أما الآن ، وفيما كنت أعايش في هذا الشعور بالخواء أمام امتلاء البحر ، وحدة ماثلت ظاهريا وحدته ، فقد أردت أن أستمتع بها تماما من خلال عينيه ذاتيهما . سأقوم بالدور المزدوج لي ولأومي معاً . ولكن لكى أقوم بذلك تعين على أن أكتشف أولاً موضعاً للشبه به مهما كان بسيطا . بهذه الطريقة سأتمكن من أن أصبح وسيطا لأومي ، وأتصرف عن وعي تماماً كما لو كنت أفيض فرحا بتلك الوحدة ذاتها التي ربما لم يكن واعيا بها ، متوصلا أخيراً إلى تحقيق حلم اليقظة ذاك الذي تصبح فيه اللذة التي استشعرتها المرأى أومي لذته هو التي يستشعرها .

إكتسبت منذ هيمنت على صورة القديس سباستيان عادة غير واعية ، هي

مصالبة ذراعي فوق رأسي ، حينما يتصادف أن أكون مجرداً من ملابسي . كان جسدي هشا ، لا يحظى حتى بظل شاحب من جمال سباستيان المتدفق ، لكنني مرة أخرى وبعفوية اتخذت هذا الوضع ، وفيما كنت أقوم بذلك وقعت عيناي على إبطي فغلبت رغبة جنسية غامضة في أعماقي . . .

كان الصيف قد أقبل ، وهلت معه تحت إبطى البراعم الأولى لأجمتي السوداوين ، حقا إنها لا تضارع ما لأومي ، لكنها كانت يقينا ، هنا إذن كانت نقطة التشابه مع أومي التي اقتضتها مقاصدي . ليس هناك شك في أن أومي كان مندرجا في رغبتي الجنسية ، لكنه لا يمكن بالمثل إنكار أن هذه الرغبة كانت موجهة بالأساس إلى إبطي أنا . استحثتني مجموعة حاشدة من الظروف ، النسيم الملحمي الذي جعل خيشومي يرتجفان ، شمس الصيف العاتية التي توهجت فوقي فجعلت صدري وكتفي يخزاني ، غياب الشكل الإنساني حيثما امتدت العين ، فجعلتني للمرة الأولى في حياتي أنغمس في «عادتي السيئة» في الهواء الطلق ، هناك تحت السماء الزرقاء ، وكموضوع لها اخترت إبطي أنا . .

ارتجف بدني بأسى غريب ، كنت أحترق بوحدة نارية كالشمس . كانت سراويل استحمامي القصيرة المصنوعة من الصوف البحري الأزرق ملتصقة على نحو بمعدتي . خلفت الصخرة هابطا ، متقدما نحو بركة ، متقدما نحو بركة ماء محتجزة عند حافة الشاطئ ، بدت قدماي في الماء مثل قواقع شهباء ميتة ، ومن خلالهما خيل إلى أن بوسعي مشاهدة القاع بوضوح ، مكتظا بالقواقع ، ومتوهجا بالمويجات . ركعت في الماء ، أسلمت نفسي لموجة تكسرت في هذه اللحظة . وأقبلت مندفعة نحوي بزئير عنيف ، لطمتني في صدر ، فأوشكت أن تدفنني

في قلنسوتها الشهباء الساحقة .

حين تراجعت الموجة ، كان فسادي قد أزيل ، فمع الموجة المتراجعة ، وإلى جوار ما لا يحصى من الكائنات الحية التي تحتويها ، الميكروبات ، بذور النباتات البحرية ، بيض الأسماك ، كانت خلاياي المنوية التي لا تحصى قد غابت في خضم البحر المزيد ، واكتسحت بعيداً .

عندما حل الخريف ، وبدأ الفصل الدراسي الجديد ، لم يكن أومي هناك . علقت مذكرة طرده على لوحة النشرات .

على الفور ، شرع كافة رفاق الدراسة ، دون استثناء ، في الثرثرة حول أعمال أومي الشريرة ، منطلقين ، كما لو كانوا جماهير مندفعة ، عقب هلاك طاغية كان يحكمهم .

« . . . إقترض مني عشرين يناً ثم رفض ردها . . . ضحك فيما كان يسلبني قلمي المستورد . . . أوشك أن يخنقني . . .» .

واحداً إثر الآخر راحوا يقصون مجددا ما ألحق بهم من أضرار ،حتى بدوت الوحيد الذي لم يتعرض لشروره . أوشكت أن أجن من فرط الغيرة ، غير أن يأسي خفف من غلوائه قليلاً أنه ما من أحد كان يعرف على وجه التحديد سبب طرده ، وحتى هؤلاء الطلاب المهرة الذين يعرفون كل شيء دائما في كل مدرسة لم يكن بمقدورهم طرح سبب يلقى من التصديق ما يجعله يحظى بالقبول العام ، حينما سألنا المدرسين ابتسموا بالطبع ، وقالوا إن طرده يرجع إلى «أمر سيئ» .

كانت لديّ وحدى ، فيما يبدو ، قناعة خفية فيما يتعلق بطبيعة هذا «الشر» داخلني يقين بأنه كان يشارك في مؤامرة واسعة النطاق من نوع مالم يكن هو نفسه قد فهمها تماما . لقد أضفت القوة الدافعة نحو الشر ، التي دسها شيطان ما في أعماقه ، المعنى على حياته ، وشكلت قدره ، على الأقل بدا الأمر لي على هذا النحو . . .

غير أنني حينما أمعنت التفكير غدا «شره» يمثل معنى مختلفا بالنسبة لي . وصلت إلى القول بأن المؤامرة الهائلة التي دفعه الشيطان إلى حبائلها ، بجمعيتها السرية وثيقة التنظيم ، وآلياتها الخفية محكمة التخطيط كانت يقينا مكرسة لإله محرم . وقد خدم أومي هذا الإله ، حاول جعل آخرين يعتنقون دينه ، تعرض للخيانة ، وعندئذ أعدم سراً . في غسق يوم من الأيام جرد من ملابسه حتى غداً عارياً ، إقتيد إلى أجمة فوق التل ، وهناك قيد إلى شجرة ، وكلتا يديه موثقتان عاليا فوق رأسه ، إخترق السهم الأول جانب صدره ، أما الثاني فأصاب إبطه .

كلما أمعنت في تذكر الصورة التي شكل معالمها في ذلك اليوم ، وهو يمسك بعارض التدريب ، تأهباً لرفع جسده عالياً ، أوغلت في الاعتقاد بقربه الوثيق من القديس سباستيان .

خلال عامي الرابع بالمدرسة الوسيطة أصبت بفقر الدم . أصبحت أكثر شحوباً مما هو معتاد ، حتى أن يدى بدتا في لون العشب الميت ، حينما أتسلق درجا منحدرا أرغم على التهاوي عند قمته لالتقاط أنفاسي . كنت أحس كما لو أن ضباباً أبيض مجته الريح قد التف حول مؤخرة رأسي . وحفر ثقبا هناك ليجعلني أتهاوى .

اصطحبتني أسرتي إلى الطبيب الذي شخص ما أعانيه باعتباره فقرا في الدم ، كان رجلاً دمثا ، تربطه علاقة صداقة بالأسرة . حينما شرعوا في سؤاله عن تفاصيل ما أعانية قال :

- طيب ، لنر الإجابة التي يطرحهاالكتاب عن فقر الدم .

إنتهى الفحص ، وقفت إلى جوار مرفق الطبيب ، حيث أستطيع استراق النظر إلى الكتاب الذي كان الطبيب يقرأ محتوياته بصوت عال . جلست الأسرة في مواجهته ، وما كان بوسعهم أن يروا صفحات الكتاب .

« . . . ثم تلى ذلك أسباب المرض . الديدان الطفيلية ، وتلك سبب مألوف ، وربما كانت هذه حالة الفتى ، وسيتعين علينا أن نجرى فحصاً للبراز ، يلي ذلك الخلوروز ، ولكنه نادر ثم أنه على أية حال يصيب النساء . . .» .

عند هذه النقطة طرح الكتاب سبباً آخر لفقر الدم ، لكن الطبيب لم يطالعه بصوت عال ، وإنما تجاوزه مغمغماً بباقي الفقرة ، فيما هو يغلق الكتاب ، لكني كنت قد رأيت الفقرة التي حذفها كانت «الاستمناء» .

شعرت بقلبي يقفز خجلاً ، فقد اكتشف الطبيب سرى . لكن ما كان يستحيل أن يكشفه أحد هو العلاقة الفردية المتوحدة بين نقص الدم عندى وشهوتي للدم ذاتها .

كان نقص الدم الموروث عندي قد غرس في بادئ الأمر بأعماقي الدفاع للحلم بسفك الدماء ، وجعلني هذا الدافع بدوره أفقد المزيد والمزيد من مادة الدم من جسمي ، مؤديا بذلك إلى تفاقم شهوتي للدم ، وقد شحذت هذه الحياة المتهافتة القائمة على الحلم خيالي ، وأكسبته دربة . وعلى الرغم من أنني لم

أكن قد تعرفت بعد على أعمال دي ساد ، فإن وصف الكوليزيوم في كوفاديس ترك انطباعا عميقا لديه ، وشكلت بنفسي فكرة ساحة القتل .

هناك في ساحة القتل الخاصة بي . كان مجالدون رومان في شرخ الشباب يقدمون حياتهم قربانا على مذبح مسراتي ، تعين ألا تتدفق كافة عمليات النقل التي تجرى هناك بالدم فحسب ، وإنما كذلك أن تؤدي بكافة المراسيم الواجبة . كنت أبتهج إزاء كافة صور الإعدام وجميع عمليات التنفيذ ، لكنني لم أسمح بأية أدوات للتعذيب أو مشانق ، حيث أنها لن تؤدي إلى مشهد الدم المنسكب ، كما لم أحب الأسلحة النارية ، كالمسدسات أو البنادق ، وبقدر الإمكان اخترت أسلحة بدائية وحشية ، سهام ، خناجر ، حراب ، لكي أطيل المعاناة كانت البطن هي التي ينبغي أن تطعن ، وينبغي أن تطلق الضحية التي تقدم قرباناً صرخات طويلة . منتزعة جنائزية ، مثيرة للإشفاق ، تجعل السامع يستشعر وحشة الوجود المستعصية على الإفصاح ، عندئذ تطلق فرحتي بالحياة ، وهي تتوهج عاليا من مكان خفي في أعماقي ، صيحة نشوتها أخيراً ، مجيبة الضحية صرخة بصرخة . أما كان هذا مماثلاً تماماً للنشوة التي وجدها الرجل البدائي في الصيد؟

ذبح سلاح خيالي الكثيرين من الجنود الاغريق ، العبيد البيض من شبه جزيرة العرب ، أمراء القبائل المتوحشة ، صبية المصاعدبالفنادق ، الندل ، فتية العصابات ، ضباط الجيش ، العاملين في السيرك . . كنت واحداً من أولئك القناصة البرابرة الذين يقومون في غمار جهلهم بكيفية التعبير عن حبهم بقتل الأشخاص الذين يعشقونهم بطريق الخطأ . كنت أقبل شفاه أولئك الذين سقطوا على الأرض ، ولازالت أبدانهم تنتفض في حشرجة الموت .

توصلت من فكرة بارعة إلى أخرى لجهاز للإعدام ، صمم بحيث أن لوحاً غليظاً ثبتت به عشرات الخناجر المشرعة ، المرتبة على شكل الجسم البشري ، تتقدم منزلقة على قضبان حتى صليب للإعدام مثبت إلى الجانب الآخر لنهاية القضبان . كان هناك مصنع للإعدام لاتني فيه ثاقبات لاختراق الجسد البشري عن العمل ، حيث يحلى العصير الدموي ، ويطرح في الأسواق في أغوار رأس طالب المدرسة الوسيطة الذي كنته ، كانت ضحايا لاحصر لها توثق وأياديها خلف ظهورها ، وتقتاد إلى الكوليزيوم .

تفاقمت قوة هذا الدافع تدريجيا في أعماقي ، حتى وصلت يوما إلى حلم يقظة ، ربما كان أكثر الأحلام التي أمكن أن تراود إنساناً متدنياص . هنا ، كما هو الشأن في أحلام يقظتى ، كان الضحية مرة أخرى أحد رفاقي في الدراسة ، سباح ماهر ، يتمتع ببنيان وثيق ، على نحو ملحوظ .

جرى الأمر في قبو ، أقيمت مأدبة سرية ، تألقت حاملات شموع رشيقة فوق أغطية المائدة الناصعة البياض ، كانت هناك كذلك الباقات المعتادة من القرنفل ، ثمة نثار من السكاكين والشوك وضع كل منها إلى جوار صحفة ، لكنه بدا غريبا أن المساحة الخالية في وسط المنضدة كانت كبيرة ، على نحو يتجاوز الحدود يقينا ستكون صحفة هائلة تلك التي ينبغي أن تجلب وتوضع هناك .

تساءل أحد الضيوف :

- ألم يحن الوقت؟

كان وجهه غارقا في الظل ، فلا يظهر للرائين ، تردد صوته الوقور كأنه صوت كهل تقدم في العمر .

الآن ، حينما أفكر في الأمر ، أتذكر أن الظلال كانت تخفي وجوه كافة شهود المأدبة ، و حدها أيديهم البيضاء كانت ممتدة للنور ، حيث راحت تتلاعب بالسكاكين والشوك فضية البريق . ثمة غمغمة لا نهاية لها حلقت في الهواء ، تتردد كما لو كان رهط من الناس يتحدثون معا بأصوات خفيضة ، أو يحادثون أنفسهم . كانت مأدبة جنائزية ، والصوت الوحيد الذي أمكن أن يسمع في جلاء هو القرقعة العرضية أو تحريك مقعد .

رددت قائلاً :

- ينبغي أن يكون جاهزاً عما قريب .

مرة أخرى تهاوى الصمت الكئيب ، كان بوسعي أن أشعر بوضوح أن الجميع مستاؤون من ردّي .

- أو أذهب لتفقد الأمر؟

نهضت ، فتحت الباب المفضى إلى المطبخ ، في أحد أركانه كان هناك درج حجري يرقى إلى مستوى الشارع .

سألت الطباخ : أما فرغت بعد؟

- ماذا؟ أوه ، لحظة واحدة .

رد الطباخ ، دون أن يرفع رأسه لانهماكه فيما بين يديه ، كأنما كان بدوره معتكر المزاج ، كان يقطع نوعاً ما من خضر السلاطة ، ولم يكن هناك على منضدة المطبخ إلا لوحا سميكا من الخشب ، عرضة ثلاثة أقدام ، وطوله إثنا عشر قدما على وجه التقريب .

رنت قهقهة منبعثة من بئر السلم ، رفعت ناظري ، فرأيت طاهيا ثانيا يهبط الدرج مقتادا رفيق دراستي الشاب متين العضلات من ذراعه ، كان الفتى يرتدي سراويل فضفاضة وقميص بولو داكن الزرقة ترك صدره عاريا .

قلت له بصورة عابرة : آه ، أنه ب . أليس كذلك؟

حينما بلغ أسفل الدرج ، وقف رابط الجأش ، دون أن ينزع يديه من جيبه ، إلتفت ناحيتي ، وشرع في الضحك عابثا في هذه اللحظة عينها وثب أحد الطاهين عليه من مؤخرة المطبخ وأحكم ذراعه حول عنقه .

في عنف قاوم الفتى .

فيما كنت أرقب انتفاضاته المثيرة للأسي ، رحت أحدث نفسي :

- إنها قبضة جودو ، نعم إنها هي ، ضرب من قبضات الجودو ، ولكن ترى ما اسمها؟ هذا صواب ، أخنقه مرة أخرى ، لا يمكن أن يكون ميتا بعد ، إنه غائب عن الوعي فحسب .

فجأة تدلى عنق الفتى . متراخيا في الأنشوطة التي شكلها ذراع الطاهي الضخم ، فحمله هذا بين ذراعيه ، دونما مبالاة ، وألقاه على منضدة المطبخ . مضى الطاهي الآخر إلى المنضدة ، شرع يعمل يديه جادا في جسد الفتى ، فجرده من قميص البولو ، وانتزع ساعة معصمه ، ونزع سراويله ، فجعله جارح العرى في لحظة واحدة .

تمدد الفتى المعرى حيث هوى ، ووجهه إلى أعلى على المنضدة ، شفتاه متباعدتان قليلا ، منحت هاتين الشفتين قبلة مرتجفة .

سألني الطاهي :

- كيف سيكون الأمر ، وجهه إلى أعلى أم إلى أسفل؟

- وجهه إلى أعلى فيما أفترض .

أجبت محدثاً نفسي بأن الفتى سيكون صدره مرئيا في هذا الوضع ، فيبدو كدرع كهرماني اللون .

إنتزع الطاهي الآخر صفحة هائلة ، أجنبية الطراز من الحامل ، وجلبها إلى المنضدة . كان حجمها مناسبا تماما لجسد بشرى ، لاحت غريبة الشكل ، ذات ثقوب خمسة صغيرة على كل من الحافتين .

- هيلا هوب!

صاح الطاهيان في تناغم ، وهما يرفعان الفتى الغائب عن الوعي ، ويضعانه ووجهه إلى أعلى في الصحفة ، ثم راحا يصفران في مرح ، مررا حبلا عبر الثقوب في جانبي الصحفة ، مبعدين جسد الفتى إلى أسفل بأمان ، تحركت أيديهما الماهرة بحكنة ، وهي تؤدي هذه المهمة ، حقا الجسد العاري بأوراق كبيرة من خضر السلاطة على نحو بديع ، ووضعا سكين تقطيع من الصلب فذة الضخامة وإلى جوارها شوكة فوق الصحفة .

- هيلا هوب!

صاحا مجددا ، وهما يرفعان الصحفة على كاهليهما . فتحت الباب المفضى إلى غرفة الطعام أمامهما .

حيانا صمت مفعم بالترحاب . وضعت الصحفة . فملأت الفراغ على المنضدة ، التي كانت تتألق على نحو كئيب في النور . عدت إلى مقعدي ، رفعت السكين والشوكة الهائلتين من الصحفة ، وقلت :

- من أين أبدأ؟

ما من رد . كل بوسع المرء أن يستشعر بأكثر مما يرى الوجوه وهي تهطع نحو الصحفة .

- ربما كانت تلك نقطة جيدة نبدأ بها .

دفعت الشوكة مباشرة نحو القلب . لطمتني نافورة من الدم في وجهي . ممسكا بالسكين بيدي اليمنى بدأت في تقطيع لحم الصدر برقة إلى قطع صغيرة في البداية .

تفاقمت عادتي السيئة إلى ما هو أسوأ فحسب حتى بعد علاجي من فقر الدم . كان أصغر أساتذتي سنا هو مدرس علم الهندسة ، وأبداً لم أشعر بالتعب من التحديق في وجهه خلال الدرس . كانت له بشرة لوحتها شمس الشاطئ ، وصوت جهوري كأنه صوت صياد ، وكنت قد سمعت أنه كان مدرب سباحة فيما سلف .

ذات يوم شتوى ، وخلال درس الهندسة ، كنت أنسخ في كراستي ما هو على السبورة ، محتفظا بإحدى يديّ في جيب سروالي ، وللحظة زاغت عيناي بعيدا دون وعي عن عملي ، وشرعت تتبعان المعلم . كان يعلو المنصة ويغادرها ، فيما كان يكرر بصوته المتدفق شبابا شرح تمرين عسير .

كانت وخزات الجنس قد اقتحمت بالفعل حياتي اليومية . الآن ، وأمام ناظري ، تحول المعلم الشاب إلى شبح تمثال هرقل العاري ، كان ينظف السبورة مستخدما ممحاة بيده اليسرى وممسكا طباشير باليد الاخرى ، ثم مد يده اليمنى هو لا يزال يقوم بالتنظيف ، وشرع في كتابة معادلة على السبورة ، فيما هو يأتي ذلك ، لاحت التجعدات التي تجمعت في النسيج بظهر معطفه لعيني المفتونتين انبعاجات عضلات «هرقل يرمى بالقوس» .

دوت إشارة الاستراحة ، نصبت رأسي المصاب بالدوار ، وتبعت الآخرين إلى الملعب . أقبل الفتى الذي كنت أعشقه آنذاك ، كان ذلك عشقا آخر بلا جزاء ، مع طالب آخر رسب في امتحانه أقبل عليّ وسألني :

- إيه ، أنت ، أما ذهبت أخيرا إلى دار كاتاكورا أمس؟ كيف كانت الزيارة؟

كان كاتاكورا فتى هادئا من زملائنا ، قضى نحبه مريضا بالسل . إنتهت مراسم جنازته قبل يومين ، وبما أنني سمعت من صديق أن وجهه قد تحول كلية في غمار الموت ، وبدا كوجه روح شريرة ، فقد انتظرت قبل القيام بزيارة العزاء ، حتى أتيقن من أن جثته قد أحرقت .

لم أستطع التفكير في رد على سؤال صديقي المفاجئ ، فقلت باقتضاب :

- لم يكن في الأمر شيئ ، لكنه كان وقتها قد غدا رمادا بالفعل .

فجأة تذكرت رسالة ستجعله يخفق زهوا ، فتضاحكت على نحو لا يشى بمعنى محدد ، وقلت :

- أوه ، نعم ، وأبلغتني أم كاتاكورا مرارا وتكرارا أن أكون على يقين من

أنني سأبلغك تحياتي ، وطلبت مني أن أخبرك بأن تأتي لرؤيتها لأنها ستعانى من الوحدة الآن .

- ياه . استمر .

فجأة ، باغتتني ضربة على الصدر ، وعلى الرغم من أن ضربته قد وجهت بكل قوته ، فإنها كانت لا تزال مفعمة بالود اكتست وجنتاه باللون القرمزي حرجا ، كما لو كان لا يزال طفلا صغيرا . رأيت عينيه تتألقان بحميمة غير مألوفة ، وكأنه فيما يبدو ينظر إليّ باعتبارى متواطئا معه في أمر ما .

قال مجددا :

- استمر! ألم تصبح بعد دنس الذهن! يالي منك ومن ضحكك!

للحظة لم أدرك ما يقصده ، إبتسمت مراوغا ، ولثلاثين ثانية كاملة أخفقت في فهمه . ثم أدركت الأمر : كانت أم كاتاكورا أرملة ، لا تزال يافعة ، ذات قوام جميل رشيق .

داهمني شعور بالبؤس ، لم يكن ذلك يرجع إلى أن تمهلي في الفهم ما كان يمكن إلا أن ينشأ عن غباء ، بقدر ما كان يعود إلى أن هذه الحادثة كشفت النقاب عن مثل هذا الفارق الواضح بين بؤرة اهتمامه وبؤرة اهتمامي . شعرت بخواء الهوة التي تفصلنا ، امتلأت بالاحساس بالعار ، حيث فوجئت بهذا الاكتشاف المتأخر لشيء كان يتعين عليّ استشرافه بصورة طبيعية ، كنت قد نقلت إليه الرسالة من أم كاتاكورا دون أن أتريث لأفكر فيما يمك أن يكون عليه رد فعله ، وما كنت أدري إلا بغير وعي أنني هنا أهتبل فرصة لتملقه استجلابا

لرضاه ، أما الآن فقد أخافني مرأى المشهد القبيح لافتقاري للخبرة ، بدا قبيحا كأنه آثار دموع جفت على وجه طفل .

في هذه المرة كنت أكثر إعياء من أن أسائل نفسي السؤال الذي طرحته آلافا عديدة من المرات من قبل : لم يصبح من قبيل الخطأ أن أبقى على نحو ما أنا عليه؟ ضقت ذرعا بنفسي ، ورغم عفتي كلها كنت ألحق الدمار بجسدي : حدثت نفسي بأنني بالاستعانة بـ(يا لها من فكرة مؤثرة!) قد استطيع بدوري الهرب من وضعيتي الطفولية . بدا الأمر كما لو كنت لم أدرك بعد أن ما كنت أزدريه الآن هو ذاتي الحقه ، هو بجلاء جزء من حياتي الحقة ، بدا كما لو أنني صدقت أن تلك كانت سنوات حلمي التي يتعين عليّ الآن أن أنتقل منها إلى «الحياة الحقيقية» .

كنت أستشعر الدافع لبدء الحياة ، لبدء عيش حياتي الحقة ، حتى إذا كانت ستصبح قناعا محضا وليست حياتي على الإطلاق ، فإن الوقت رغم ذلك قد حان فتحتم عليّ أن أشرع في البدء ، تحتم عليّ أن أجر قدمى الثقيلتين إلى الأمام .

الفصل الثالث

يقول الجميع إن الحياة مسرح ، لكن معظم الناس لا يبدون وكأن هذه الفكرة قد هيمنت عليهم ، على الأقل ليس في وقت مبكر ، كما حدث لي . في نهاية طفولتي كنت بالفعل قد أصبحت على اقتناع صارم بأن الحياة كذلك ، وأن عليّ أن أقوم بدوري فيها ، دون أن أكشف النقاب مرة واحدة عن ذاتي الحقة ، وبما أن اقتناعي هذا كان مصحوبا بافتقار بالغ السذاجة للخبرة ، فقد كنت متيقنا عمليا من أن الناس كافة يقبلون على الحياة بهذه الطريقة ، وذلك على الرغم من أنه كان ثمة شك متأرجح في جانب من جوانب ذهني حول أنني قد أكون مخطئا . اعتقدت متفائلا أنه حينما ينتهي الأداء ويسدل الستار فان الجمهور لن يرى الممثل أبدا ، دون قناعه المسرحي . كان افتراضي أنني سأموت صغير السن عنصرا من عناصر هذا الاعتقاد ، غير أنه بمرور الوقت مني هذا التفاؤل ، أو بالأحرى حلم اليقظة هذا ، بإحباط ضار .

عليّ أن أضيف تحرزاً ، أنني لا أشير هنا إلى موضوع «الوعي الذاتي» المألوف ، وإنما الأمر متعلق بالجنس ، بالدور الذي يحاول المرء عن طريقة أن يخفي طبيعة رغباته الجنسية عن نفسه غالبا ، ولست أعتزم في الوقت الراهن أن أشير إلى ما يتجاوزذلك .

قد يكون صحيحا أن ما يدعى بالطالب المتخلف هو نتاج للوراثة . رغم ذلك فقد أردت أن أصعد بصورة منتظمة مع باقي أبناء جيلي في مدرسة الحياة ، وتوصلت إلى طريقة بديلة للقيام بذلك . باختصار ، تمثلت هذه الطريقة

في نسخ إجابات أصدقائي خلال الاختبارات ، دون أي فهم لما أكتبه وتسليم أوراقي ببراءة مدروسة . في مرات تسفر مثل هذه الوسيلة ، وهي أشد غباء وتجردا من الحياء من الاحتيال الفج ، عن نجاح مدو ، ويمر الطالب إلى الصف الأعلى ، غير أنه هناك يفترض فيه أن يكون قد تملك ناصية مواد الصفوف الأدنى ، وفيما تتابع الدروس في عناء يغدو ضائعا تماما ، ورغم أنه يصغى لما يقول المدرسون فإنه لا يفقه كلمة منه ، عند هذه النقطة يمتد أمامه دربان : إما أن يمضى إلى حيث ألقت ، وإما أن يواصل شق طريقه بالخداع ، من خلال التظاهر بكل ما يملك من قوة بأنه يفهم ما يقال . ويعتمد اختيار أي من الدربين على طبيعة ما له من جرأة ، أو ما يعانيه من ضعف ، وليس على مقدار ما له منهما ، فكلا الدربين يقتضى القدر ذاته من الجرأة أو الضعف ، وكلاهما يتطلب لونا من التوق الغنائي الذي لا يفضي إلى الكسل .

ذات يوم انضممت إلى زمرة من رفاق الدراسة كانوا يسيرون خارج أسوار المدرسة ، وهم يناقشون في صخب شائعة ذاعت عن أن أحد أصدقائنا لم يكن موجودا معنا الآن ، قد وقع في غرام سائقة الحافلة ، التي كانت تقله ذهابا وإيابا إلى المدرسة ، وقبل أن ينقضى وقت طويل تحولت المناقشة إلى حجة نظرية ، تدور حول ما يمكن للمرء أن يجده مما يستهويه في سائقات الحافلات .

هنا ، أمسكت بناصية الحديث ، متخذا لهجة باردة مفتعلة ، ومتحدثا بصوت خشن ، كأنما كنت أدحرج الكلمات قلت :

- إنها ملابسهن الرسمية! لأنها تلتصق في إحكام حول أجسادهن .

غنى عن البيان أنني لم أشعر بأدنى انجذاب حسي نحو سائقات

الحافلات مما تشير إليه كلماتي ، كنت قد تحدثت انطلاقا من القياس ، قياس كامل ، كنت أرى في إطاره الزي الرسمي ذاته المحكم على جسد آخر مختلف ، وكذلك بدافع من رغبة ، كانت قوية بأعماقي في ذلك الحين ، في الظهور بمظهر الشخص الحسي ، الناضج الساخر من كل شيء .

استجاب الفتية الآخرون على الفور ، كانوا جميعا من نمط الطلاب الذين يدعون بـ«طلاب الشرف» من ذوى السلوك المعصوم من الخطأ ، وكما هو مألوف غالبا في مدرستي من المبالغين في الاحتشام ، بدا رفضهم المشوب بالصدمة إزاء كلماتي جليا من تعليقاتهم ، التي تمزج الجد بالهزل :

- أوف! تعلم كل شيء عن هذا الأمر ، أليس كذلك؟

- ما من أحد يحلم بمثل هذا إلا إذا كان يأتي الكثير مما لا ينبغي القيام به .

- إيه ، إنك فظيع حقا ، ألست كذلك؟

في مواجهة مثل هذا النقد الساذج المحموم ، خشيت أن الدواء كان بالغ الفعالية ، فكرت في أنني ربما كان بمقدوري استعراض عمق تفكيري والتوصل إلى صدى أفضل ، لو أنني كنت في غمار قول الشيء نفسه قد استخدمت طريقة في الحديث أقل تعقيدا وإيحاء بالصدقة ، وأنني كان ينبغي عليّ أن أكون أكثر تحفظا .

حينما يكتشف فتى في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره أنه أكثر ميلا إلى الاستبطان والوعي الذاتي من الفتية الآخرين ، ممن هم في مثل عمره ، فإنه ينزلق بسهولة إلى خطأ الاعتقاد بأن ذلك يرجع إلى أنه أكثر منهم نضجا .

من المحقق أن ذلك كان خطأ في حالتي ، فقد كان الأمر يرجع إلى أن الفتية الآخرين لم تكن بهم مثل هذه الحاجة إلى فهم أنفسهم ، على نحو ما كان الحال بالنسبة لي ، كان بوسعهم أن يكونوا ذواتهم الطبيعية ، فيما كان عليّ أن أتقمص دوراً ، وهي حقيقة تقتضي فهما ودراسة يعتد بهما . هكذا لم يكن نضجي ، وإنما شعوري بالقلق ، هو الذي يجبرني على تملك ناصية وعيي ، لأن مثل هذا الوعي كان حجر عثرة في وجه الضياع ، ولا يعدو تفكيري الراهن أن يكون ضربا من التخمين القائم على المصادفة والبعيد عن اليقين .

حاكى قلقي ذلك الضرب من القلق الذي يتحدث عنه ستيفان زفايج حين يقول : إن «ما ندعوه بالشر هو عدم الاستقرار الكامن لدى كل البشر ، والذي يدفعه الإنسان خارج ذاته ، وإلى ما يتجاوزها نحو شيء لا يسبر له غور ، تماما كأنما الطبيعة أضفت على أروحنا نصيبا لا يتناقض من عدم الاستقرار من مخزون فوضاها العتيقة» . وهذا الميراث من القلق يفرز توترا و«يحاول أن يصوغ نفسه مرتداً إلى عناصر تسمو على المستوى البشرى ، وتعلو على الحس» هكذا إذن كان عدم الاستقرار ذاك نفسه الذي يدفعني ، فيما استطاع الفتية الآخرون ، بالنظر إلى عدم حاجتهم إلى الوعى الذاتي ، الاستغناء عن الاستبطان .

لكن سائقات الحافلات ما كن يتمتعن بأدنى جاذبية جنسية بالنسبة لي ، مع ذلك فقد أدركت أن كلماتي ، التي أطلقتها عمداً بسبب القياس والاعتبارات الأخرى التي سقتها ، لم تصدم أصدقائي فحسب ، وتجعلهم يحمرون إحراجا ، وإنما تلاعبت كذلك بقابليتهم المراهقة للاستهواء إزاء الأفكار الموحية ، وأفرزت إثارة جنسية غامضة لديهم . وإزاء هذا المشهد ثار في

أعماقي ، على نحو طبيعي ، شعور بالتميز تواق إلى الإغاظة .

لم تتوقف مشاعري عند هذا الحد ، فقد حان دوري لأغدو ضحية للخديعة . أفقت من شعوري بالتميز ، ولكن بصورة مشوهة ، وفي بعد واحد ، كان هذا التطور على النحو التالي :

غدا جانب من شعوري بالتميز غروراً ، أصبح انتشاء باعتبار نفسي متقدماً عن البشر ، ثم حينما أفاق هذا الجانب الثمل مني ، بأسرع من الجوانب الأخرى ، وقعت في الهفوة المندفعة ، المتمثلة في الحكم على كل شيء بوعيي الذي أفاق ، دون أن توضع في الاعتبار حقيقة أن جانبا مني لا يزال ثملا ، من ثم فإن الفكرة السكري القائلة :«إنني أسبق الآخرين» صححت إلى المقولة الحية :«لا ، إنني إنسان كذلك مثل الآخرين» . وبسبب إساءة التقدير ضخمت تلك بدورها إلى :«وأنا أيضا إنسان مثلهم في كل شيء» . و قد جعل ذلك الجزء الذي لم يفق بعد مني مثل هذا التضخيم ممكنا ، ودعمه ، وأخيرا وصلت إلى الاستنتاج الموشى بالغرور والقائل ، :«إن الجميع مثلى» . وقد تدخلت بقوة في التوصل إلى هذا الاستنتاج طريقة التفكير ، التي وصفتها بأنها حجر عثرة في طريق الضياع . . .

على هذا النحو نجحت في تنويم نفسي مغناطيسيا ، منذ ذلك الوقت حكم هذا التنويم المغناطيسي الذاتي تسعين بالمائة من حياتي ، ذلك التنويم المغناطيسي الزائف ، الغبي ، واللاعقلاني ، الذي كنت أعرف على نحو قاطع أنه زائف ، و لربما يدور التساؤل حول ما إذا كان قد وجد أبدا شخص بمثل السذاجة .

ترى هل سيفهم القارئ؟ كان ثمة سبب بسيط للغاية وراء قدرتي على

استخدام حتى أدنى الكلمات الحسية لدى الحديث عن سائقات الحافلات ، وكانت النقطة نفسها التي لم أستطع إدراكها كان سببا بسيطا حقا ، ليس هناك ما هو أبسط منه ، فحيثما تعلق الأمر بالنساء كنت مجرداً من الحياء الذ يمتلكه الفتية الآخرون بالفطرة .

ولكى أتجنب أن يوجه إليّ الإتهام بأنني أخلع على الشخص الذي كنته في تلك الأيام قدرات إصدار الحكم التي لا أملكها حتى اليوم ، دعنى أدرج هنا فقرة من مقطوعة كنت قد كتبتها في الخامسة عشرة من عمري .

« . . . لم يهدر رايوتارا وقتا في جعل نفسه جزءا من دائرة الأصدقاء الجدد هذه ، كان يعتقد جازما أن بوسعه أن يقهر كآبته وضجره ، اللذين لا سبب لهما بأن يكون- أو على الأقل بالتظاهر بكونه- مرحا قليلاً ، لقد خلفته السذاجة ، قمة الإيمان ، في حالة من السكينة المنطفئة ، وحينما كان يشارك في مزاح أو تهريج كان دائما يحدث نفسه قائلا :«الآن لست مكتئبا ، الان لست ضجرا» . وقد جعل من «نسيان المتاعب» هذا أسلوبا له .

إن معظم الناس يتشككون فيما يتعلق بما إذا كانوا سعداء من عدمه ، مرحين أو عكس ذلك ، وتلك هي الوضعية العادية للسعادة ، حيث إن الشك هو أكثر الأمور طبيعية .

وحدة رايوتارا يعلن قوله :«إني سعيد» ويقنع نفسه بأن ذلك صحيح .

يميل الناس لذلك إلى تصديق ما يدعى «سعادته اليقينية» وأخيرا يندرج شيء واهن ، وإن يكن حقيقيا ، في آلة الزيف القوية وتنطلق ، وتنطلق الآلة هادرة إلى العمل ، ولا يلحظ الناس حتى كتلة من «الغرور» . . .

«وتنطلق الالة هادرة إلى العمل . . .» ألم تكن تعمل بالفعل في حالتي؟

إن من أخطاء الطفولة الشائعة الظن بأنه إذا ما جعل المرء من وحش بطلا فإن الوحش سيغتبط لذلك ويرضى .

هكذا إذن حل الوقت الذي يتعين عليّ فيه ، بشكل أو بآخر ، أن أبدأ الحياة ، لم يتجاوز معين المعرفة الذي تزودت به للرحلة الروايات العديدة التي طالعتها ، موسوعة في الجنس كانت بالدار ، الصور العارية التي تتداولها أيدي الطلاب ، والعديد من النكات الإباحية التي سمعتها من أصدقاء في ليالي التدريب الميداني ، وأخيرا كان هناك أيضا ما يفوق كل شيء أهمية ، وهو الفضول المستقر الذي سيكون رفيق ترحالي المخلص ، ولكي أشرع في رحلتي كان عليّ أن أتخذ وضع الرحيل عند البوابة ، ولتحقيق ذلك كان الإصرار على أن أكون «آلة زيف» كافيا .

عكفت على دراسة العديد من الروايات ، منقبا عن طبيعة مشاعر الفتية ممن هم في مثل عمري ، وكيفية تحاورهم مع أنفسهم . كنت معزولا عن الحياة بالقسم الداخلي في المدرسة ، لم أشارك في الأنشطة الرياضية المدرسية ، فضلا عن ذلك كانت مدرستي تحفل بالنفاجين الصغار الذين ما عادت تربطهم ، بعد تجاوزهم للعبة القذر العبثية تلك التي وصفتها ، صلة إلا نادرا بالأمور السوقية . واكتمل الأمر بحيائي بالغ التطرف . وقد جعلت كافة هذه الحقائق في مجملها من المتعذر بالنسبة لي أن أعرف نفسية رفاقي بالمدرسة ، وكنتيجة لهذا كان ملاذي الوحيد هو أن أستنبط من القواعد النظرية العامة ما يمكن أن يشعر به فتى في سني ، حينما ينفرد بنفسه .

بدت الفترة التي تدعي بالمراهقة ، والتي كان لي نصيبي الكامل منها ، فيما يتعلق بالفضول المتقد ، وكأنها قد أقبلت لتزورنا كالحمى ، فبعد أن وصل الفتيان إلى البلوغ ، لاحوا وكأنهم لا يصنعون شيئا إلا أن يفكروا دونما اعتدال في النساء ، يحكون بثورهم ، وينظمون أشعارا عاطفية ، تمجها رؤوس يحفها دائما دوار مشوش . طالعوا هذه الدراسة عن الجنس أولا ، والتي تؤكد التأثيرات الضارة للإستمناء ، ثم قرأوا تلك التي تتحدث عن أنه ليس هناك كبيرضرر من جرائها . ، كنتيجة لهذا لاحوا وكأنهم بدورهم قد أصبحوا من الممارسين المتحمسين لها . رحت أحدث نفسي بأن ثمة نقطة أخرى هنا أتماثل معهم كلية فيها . في غمار حالة التنويم المغناطيسي الذاتي التي كنت أمر بها ، تجاهلت الحقيقة القائلة بأنه على الرغم من الطبيعة المتماثلة للحدث العضوى ، كان ثمة خلاف عميق فيما يتعلق بالموضوع الذهني لهذا الحدث .

كان الفارق الأساسي هو أن الفتية الآخرين يستمدون ، فيما يبدو ، استثارة غير عادية من مجرد كلمة امرأة ، يحمرون خجلا إذا ما خطرت الكلمة ببالهم ، أما أنا فما كانت كلمة امرأة تثير لدي انطباعاً حسياً يتجاوز ما تثيره كلمة «قلم» أو «سيارة» أو «مكنسة» . بل إني في حديثي مع أصدقائي غالبا ما كنت أفصح عن نقص مماثل في ملكة ربط الأفكار ، كما في الواقعة التي دارت حول والدة كاتاكورا ، وأبدى ملاحظات تلوح لهم بعيدة عن التماسك ، وقد حلوا هذه الأحجية بصورة ترضيهم ، وذلك باعتبارى شاعراً . لكنني بدوري لم أكن أرغب على نحو قاطع في أن يظن بي أني شاعر . فقد سمعت أن الرجال الذين ينتمون إلى النوعية التي تدعى بالشعراء يتعرضون لنكث العهود من جانب النساء دوما ، ولهذا فإنني مناجل جعل حديثي متماشيا مع حديث

أصدقائي ، تملكت ناصية قدرة مصطنعة على التوصل للربط بين الأفكار يقومون به .

لم أضمن أبدا أنه يمكن تمييزهم عني بصورة جلية . لا من حيث المشاعر الداخلية فحسب ، وإنما من حيث الدلائل الخارجية المحتجبة كذلك . باختصار لم أدرك أنهم ينتصبون ، على الفور ، حينما يشاهدون صورة لجسم امرأة عارية ، وأنني وحدي أظل على جمودي في مثل هذا الوقت ، كما لم أدرك أن الموضوع الذي يمكن أن يحدث انتصابا في حالتي (من الغربي أن مثل هذه الموضوعات قد اقتصرت منذ البداية على النوعية من الأشياء التي تعد الموضوعات الجنسية المميزة للواط) ولنقل تمثالا لشاب عار نحت على النمط الأيوني ، ما كان يثيرهم على الإطلاق .

استهدفت من تقديم توصيف مفصل لحالات الانتصاب العديدة ، في الفصل السابق ، أن أجعل هذه النقطة المهمة المتعلقة بجهلي بنفسي مفهومة بصورة أكبر ، لأن جهلي بالموضوعات التي تثير الفتية الآخرين قد دعم التنويم المغناطيسي الذاتي ، وقوامه اعتبار نفسي مثلهم . ترى من أي مصدر كان يمكن أن أستمد الاستناره في هذا الشأن؟ إن الروايات تحفل بمشاهد التقبيل ، لكنه ما من رواية طالعتها أشارت إلى أمور من نوعية الانتصاب . في مثل هذه المناسبات ، كان ذلك أمراً طبيعيا ، حيث أنه ليس من الموضوعات التي يمكن أن تتعرض لها رواية ، لكن موسوعة الجنس ذاتها لم تتحدث عن الانتصاب كمصاحب نفسي للقبلة ، الأمر الذي ترك لدى انطباعا بأن الانتصاب يحدث فحسب كمقدمة للعلاقات الجسدية ، أو كاستجابة بصورة ذهنية للحدث ، اعتقدت أنه حين يحين الوقت ، وحتى إذا لم تكن هناك رغبة ، فإنني بدوري

سأنتصب ، تماما كما لو أن الأمر إلهام من السماء . وأصل شيء غامض ضئيل في أعماقي الهمس قائلا :«لا ، ربما لن يحدث ذلك لك وحدك» . وتجلى هذا الشك الضئيل في كل مشاعري بعدم الأمان .

لكن ألم يحدث أبدا ، في غمار انغماسي في عادتي السيئة أن استحضرت عضواً ما من أعضاء المرأة ، ولا حتى من قبيل التجريب؟ كلا . أبدا ، وقد فسرت هذا الانحراف لنفسي على أنه يرجع ببساطة إلى تكاسلي .

باختصار لم أكن أعرف شيئا على الإطلاق عن الفتية الآخرين . لم أكن أعلم أنه كل ليلة تراود الأحلام الفتية جميعا عداى ، أحلام تتراءى فيها نساء ، نساء شوهدن في لمحة بالأمس عند منعطف الطريق ، يجردن من ثيابهن ، و يوضعن واحدة إلى جوار الأخرى في استعراض أمام أعين الحالمين . ما عرفت أنه في أحلام الفتية غالبا ما يطفو نهدا امرأة عاليا ، مثل قنديل البحر ، ناهضين من بحر الليل . ما علمت أنه في حميمية تلك الأحلام يباعد جزء ثمين من المرأة شفتيه المبللتين ، ويواصل الشدو بلحن أغنية أسرة ، قاتلة ، عشرات ، مئات ، آلاف المرات ، إلى الأبد . .

أكان الكسل هو السبب في أن مثل هذه الأحلام لم تراودني؟ أيمكن أن يعود الأمر للكسل حقا؟ ظللت أسائل نفسي ، ثار شغفي بالحياة ككل ، انطلاقا من هذا التشكك في أني كنت ببساطة كسولا ، وفي النهاية أفنى هذا الشغف نفسه في الدفاع عن ذاتي ضد الاتهام بالكسل إزاء هذه النقطة ، مؤكدا بذلك أن كسلي أمكن ، رغم كل شيء ، أن يظل كسلا .

في المقام الأول قادني هذا الشغف إلى أن أعقد عزمي على تجميع كل

ذكرياتي عن النساء ، منذ البداية ذاتها ، ويا للمجموعة الهزيلة من الذكريات التي لاحت لي!

تذكرت واقعة حدثت حينما كنت في الثالثة أو الرابعة عشرة من العمر . كان ذلك اليوم انتقال أبي إلى أوساكا ، مضينا جميعا إلى محطة طوكيو لوداعه . عقب ذلك رجع عدد من الأقارب معنا إلى الدار ، ومن بينهم إبنة عمتي الثانية سوميكو ، وهي عذراء في العشرين من عمرها .

كانت أسنان سوميكو الأمامية ناتئة ، بدرجة ضئيلة للغاية ، ناصعة ، وبالغة الجمال ، وحينما تضحك تلتمع في إشراق بالغ ، حتى يتساءل المرء عما إذا لم تكن تضحك عامدة لتعرض أسنانها . أضاف بروزها الخفيف جاذبية مراوغة لابتسامة صاحبتها . في هذه الحالة كان هذا العيب المتمثل في بروز الأسنان يحاكي قطرات من عطر . أضيفت إلى روعة وبهاء وجهها وقوامها المتناسقين . مؤكدة هذا التناسق ، ومضيفة نكهة خاصة إلى هذا الجمال .

إذا لم تكن كلمة «الحب» قابلة للتطبيق ، فإنني على الأقل كنت أشعر «بالود» نحو إبنة العمة هذه . منذ الطفولة كنت أستمتع بمراقبتها من بعد ، أجلس إلى جوارها لساعات فيما هي تطرز ، دون إتيان شيء إلا بالتحديق فيها ، دون أن يرتسم تعبير محدد على ملامحي .

مضت عماتي بعد مدة إلى غرفة داخلية ، و بقيت مع سوميكو وحدنا في قاعة الاستقبال ، ظللنا على ما كنا عليه جالسين جنبا إلى جنب على أريكة صامتين ، ورأسانا لا يزالان يطنان بضجيج رصيف المحطة . شعرت بإعياء غير مألوف .

قالت وقد ند عنها تثاؤب قصير :

- أوه ، إنني متعبة .

رفعت يدها في إعياء ، ومست فمها بخفة عدة مرات بأصابعها البيضاء ، كأنما تؤدي طقساً أسطورياً ، قالت :

- ألست متعبا ، يا كوشان؟

لسبب مجهول ، فيما هي تقول هذا ، حجبت وجهها بكمي الكيمونو ، دفنته في سقوط مفاجئ على فخذي ، مرغت خديها ببطء في سراويلي ، رفعت وجهها ، ظلت دونما حراك لبعض الوقت .

ارتجفت سراويل ردائي المدرسي ، إذ حظيت بشرف أن تكون وسادة لها ، أصابني عبير عطرها وذرورهابالاضطراب ، حدقت في جانب وجهها الساكن ، فيما هي منحنية هناك بعينيها المتعبتين الصافيتين اللتين تحدجانني ، وشعرت بالضياع .

كان هذا هو كل ما حدث ، مع ذلك فلم أنس أبدا الشعور بذلك الثقل البديع الذي ضغط لبرهة على فخذي ، لم يكن شعورا جنسيا ، لكنه بشكل ما شعور بديع ، كذلك الشعور الذي يولده ثقل وسام يتدلى على الصدر .

غالبا ما كنت ألتقى بسيدة شابة مهزولة في الحافلات التي استقلها إلى المدرسة . لفت برودها نظري . اعتادت أن تحدق في فتور عبر النافذة ، كأنها ضجرة من كل شيء ، وفيماهي تفعل ذلك كان حزم شفتيها الناتئتين يبدو جليا ، وحينما تغيب كان يبدو أن ثمة شيئا يفتقده المرء ، وقبل أن أدرك الأمر

يساورني أمل متقطع الأنفاس في أن أراها ، في كل مرة أستقل فيها الحافلة .

تساءل عما إذا كان ذلك يمكن أن يكون ما يدعى بالحب ، لم أصل إلى جواب على تساؤلاتي ، لم يكن لديّ أدنى فكرة عن أن هناك صلة بين الحب والرغبة الجنسية . غني عن البيان أنه في الوقت الذي كنت فيه مفتونا بأومي لم أبذل جهداً لتطبيق كلمة الحب على تلك الفتنة الوحشية ، التي كان يلقى شباكها عليّ . الآن وفي اللحظة ذاتها التي أتساءل فيها عما إذا كان الانفعال الغامض الذي أستشعره نحو فتاة الحافلة يمكن أن يكون حبا ، بمقدوري أن أحس بالانجذاب نحو سائق الحافلة الشاب الخشن ، الذي كان شعره يلتمع بدهان عطري ثقيل .

كان جهلي من العمق بحيث لم أدرك التناقض الكامن هنا ، لم أدرك أن هناك في طريقة نظري إلى الملمح الجانبي لسائق الحافلة الشاب شيئاً حتمياً ، خانقاً ، مؤلماً ، بينما كنت أرمق السيدة الشابة المهزولة بعينين فاحصتين ، مصطنعتين ، مدروستين ، تضجران بسهولة . وظللت دونما إدراك للخلاف بين هاتين النظرتين ،تعايشتا كلاهما معا في أعماقي ، دون أن تكترث إحداهما بالأخرى ، ودونما صراع .

بدوت بالمقارنة بالفتية في مثل سني ، متفردا بعدم الاهتمام بما يسمى «النظافة الأخلاقية» أو إذا استخدمنا عبارة أخرى بكوني مفتقرا إلى موهبة «التحكم في النفس» . وحتى إذا كان بوسعي أن أفسر هذه الحقيقة بالقول بأن فضولي متزايد الحدة لم يدفعني بصورة طبيعية إلى الاهتمام بالأخلاق ، فستظل هناك الحقيقة القائلة بأن فضولي هذا كان يشبه في الوقت نفسه الأشواق اليائسة لمريض مدنف ملازم الفراش إلى العالم الخارجي ، وكذلك

تختلط ، على نحو لا يمكن التخلص منه ، مع الإيمان بإمكان وقوع المستحيل . وقد كان هذا التداخل ، الذي يضم من جانب يقينا غير واع ومن جانب آخر يأسا غير واع ، هو الذي عجل بسرعة بالغة برغباتي ، بحيث بدت وكأنها طموحات يائسة .

على الرغم من أنني كنت لا أزال يافعا ، فلم أعرف ما الذي تعنيه معايشة الشعور الواضح بالحب الأفلاطوني . أكان ذلك من سوء الطالع؟ لقد جعل القلق الغامض الذي أحاط برغباتي الجنسية العالم الجسدي هاجسا ، بالنسبة لي ، من الناحية العملية ، كان فضولي ذهنيا محضا بالفعل ، لكنني برعت في إقناع نفسي بأنه رغبة حسية متجسدة ، بل مضيت في الأمر قدما ، حتى تملكت ناصية فن التضليل ، إلى أن تمكنت من اعتبار نفسي شخصا فاسق الذهن حقا ، كنتيجة لهذا انتحلت لنفسي المظاهر التقليدية للمراهق وللشخص المحنك ، وافتعلت لنفسي اتخاذ موقف من سئم النساء تماما .

هكذا تملكني على هذا النحو هاجس فكرة القبلة ، ولم يمثل الفعل الذي يدعى بالتقبيل بالنسبة لي إلا مكانا تنشد فيه روحي ملاذا ، بوسعي الآن أن أقول ذلك ، لكن في ذلك الوقت ، ولكي أضلل نفسي وأقنعها بأن تلك عاطفة حيوانية ، اضطررت إلى إضفاء تنكر متعمد على ذاتي الحقة ، وفي عناء شدد شعوري غير الواعي بالذنب الناشيء عن هذا الادعاء الزائف على أنني أقوم بدور مزيف وواع .

لكن قد يطرح تساؤل : أيمكن أن يكون شخص زائفاً تماماً على هذا النحو في مواجهة طبيعته الحقة؟ حتى ولو للحظة واحدة؟ إذا كانت الإجابة هي لا ، فليس ثمة إذن طريقة لإيضاح العملية الذهنية الغامضة ، التي من خلالها نتوق

إلى أشياء لا نرغب فيها على الإطلاق ، أترى هناك مثل هذه الطريقة؟ إذا تم التسليم بأنني كنت على وجه الدقة نقيض الرجل الأخلاقي الذي يقمع رغباته اللاأخلاقية فهل يعني هذا أن قلبي كان يضم أكثر الرغبات تجرداً من الأخلاق؟ على أية حال ، أما كانت رغباتي مضيعة بصورة متفاقمة؟ أم تراني خدعت نفسي تماما؟ أكنت أتصرف حتى أدق في التفاصيل كعبد بالفعل للعرف؟ . . سرعان ما سيحل الوقت الذي يغدو بوسعي فيه تجنب ضرورة العثور على ردود لهذه الأسئلة . .

مع نشوب الحرب اجتاحت البلاد بأسرها موجة من الرواقية الزائفة ، وحتى المدارس الثانوية لم تنج منها . طوال دراستنا بالمدرسة الوسطى كنا نتوق إلى يوم الانتقال السعيد ذاك إلى المدرسة العليا ، حينما يكون بمقدورنا أن نطلق شعرنا ، أما الآن وحينما حل هذا اليوم فلم يعد يسمح لنا بتحقيق طموحنا ، كان لازال من المتعين علينا أن نقص شعرنا ، وبالمثل كانت حمى الجوارب الزاهية قد فات أوانها ، وبدلا من هذا أصبحت فترات التدريب العسكري متكررة بصورة عبثية ، وأدخلت تجديدات عديدة أخرى مثيرة للسخرية .

غير أنه بفضل مراننا الطويل بالمدرسة على إبداء انصياع بارع ، وإن كان مظهريا فحسب ، تمكنا من مواصلة حياتنا الدراسية ، دون أن نتأثر بشكل خاص بالضوابط الجديدة . كان العقيد الذي عينته وزارة الحربية في مدرستنارجلا متفهما ، بل وكان الضابط المنوب الذي أطلقنا عليه اسم السيد «زو» بسبب طريقته الريفية في نطق حرفي «سو» كما لو كانا «زو» وكذلك زميلاه اللذان دعوناهما السيد «أطيش» والسيد «منخار» بسبب أنفه الأفطس ، قد أدركوا طريقة عمل المدرسة وروحها ، واستجابوا لها بصورة معقولة بما فيه الكفاية . كان

ناظرنا قائدا بحريا مخضرما ، أقرب إلى لين الأنوثة ، وبمساعدة وزارة التربية الإمبراطورية احتفظ بمنصبه عن طريق اتباع مبدأ الاعتدال القائم على تبديد الوقت والابتعاد عن روح الهجوم في جميع الأمور .

خلال هذه الفترة تعلمت معاقرة الشراب والتدخين ، أو بالأحرى تعلمت التظاهر خلال العكوف على الشراب والتدخين كانت الحرب قد أفرزت فينا على نحو غريب نضجا عاطفيا ، نبع ذلك من التفكير في الحياة بحسبانها شيئا يمكن أن ينتهي فجأة ونحن في العشرينيات من أعمارنا ، بل إننا لم نفكر في احتمال وجود شيء يتجاوز هذه السنوات القلائل الباقية . داهمتنا الحياة بكونها شيئاً سريع الزوال على نحو غريب . بدأ الأمر ، على وجه الدقة ، كما لو أن الحياة كانت بحيرة ملحية تبخر منها معظم الماء على حين غرة ، تاركا تركزا هائلا في الملح ، حتى أن أجسامنا طفت في مرح على سطحه . وحيث أن لحظة نزول الستار لم تكن بعيدة كثيراً ، فلربما يكون من المتوقع أن أسخر بمزيد من الاجتهاد القناع الذي اخترعته لنفسي ، لكن فيما كنت أحدث نفسي بأنني سأبدأ غدا ، غداً بالتأكيد ، رحلتي إلى الحياة ، فإن هذه الرحلة أجلت يوما إثر آخر ، وغذت سنوات الحرب السير ، دون أدنى إمارة تدل على رحيلي .

ألم تكن تلك الفترة سعادة فريدة بالنسبة لي؟ رغم أنني كنت لا أزال أشعر بالقلق ، إلا أنه كان واهنا فحسب ، كان الأمل لا يزال يراودني ، رحت أتطلع إلى السماوات الزرقاء المجهولة لكل غد . أحلام خيالية عن الرحلة المقبلة ، رؤى حول مغامرتها ، الصورة الذهنية للشخص الذي سأكونه في العالم يوما ، العروس الجميلة التي لم أراها بعد ، آمالي في الشهرة- في تلك الأيام كانت كل هذه الأمور منسقة على نحو بديع في حقيبة سفر تنتظر الرحيل ، تماما كما

لو كانت أدلة للرحلات ومنشفة وفرشاة أسنان ومعجون لها . استشعرت بهجة طفولية في الحرب ، على الرغم من وجود الموت والدمار حولي لم تنكص أحلام اليقظة ، التي اعتقدت فيها أنني بعيد المطال عن كل ضرروعن أية طلقة ، بل إن رعدة النشوة الغريبة انتابتنى لدى تفكيري في موتي ، شعرت كأنني أملك العالم بأسره ، ولا غرو في ذلك ، لأنه ما من وقت تستحوذ فيه علينا رحلة حتى آخر أركانها وشقوقها ، مثلما يحدث لدى انهماكنا بالإعداد لها ، وعقب ذلك لا يبقى إلا الرحلة نفسها ، التي لا تعدو أن تكون العملية التي نفقد خلالها تملكنا لهذه الرحلة ، وهذا هو ما يجعل السفر دون جدوى على الاطلاق على هذا النحو .

بمرور الوقت أصبح استحواذ فكرة التقبيل عليّ مثبتا على شفتين وحيدتين ، وحتى هنا ربما كان مصدر إلهامي هو الرغبة في أن أضفى على أحلامي ادعاءات بالانتماء إلى أصل أكثر نبلا . كما أشرت من قبل ، فعلى الرغم من أنني لم أعايش لا الرغبة ولا أي انفعال آخر إزاء هاتين الشفتين ، فقد حاولت يائسا إقناع نفسي بأنني كنت أرغب فيهما ، باختصار أخطأت فاعتبرت شيئا كان بالفعل لا يتجاوز كونه الرغبة اللاعقلانية والثانوية في إرادة الاعتقاد بأنني أرغبه- اعتبرته أولى ، كنت أخلط بين الرغبة الوحشية والمستحيلة في ألا أريد أن أكون ذاتي وبين الرغبة الوحشية والمستحيلة في ألا أريد أن أكون ذاتي وبين الرغبة الجنسية التي تراود رجلا محنكا ، رغبة تنبع من كونه ذاته .

كان لي في ذلك الوقت صديق تربطني به المودة ، على الرغم من أننا لم نكن متقاربين بأي شكل حتى في حديثنا ، كان زميلا في الدراسة ، عابثا ،

يدعى نوكادا . اختارني كصديق فيما يبدو ، باعتباري شريكا مقبولا يستطيع أن يكون معه بعيدا عن التوتر ، فيما يطرح عليه العديد من الأسئلة عن دروس السنة الأولى في اللغة الألمانية ، التي كان يعاني صعوبة كبيرة منها ، وبما أنى متحمس دائما لكل ما هو جديد ، إلى أن تبلى جدته ، فقد بدا أني ممتاز كطالب يدرس الألمانية ، وإن كان ذلك في خلال تلك السنة الأولى فحسب . من المحقق أن نوكادا قد حدس مدى ضيقي المكتوم بلقب تلميذ الشرف الذي خلع عليّ ومدى حنيني إلى «السمعة السيئة» حدثت نفسي بأن تلميذ الشرف هو وصف يلائم بصورة أكبر طالبا متخصصا في علم اللاهوت ، مع ذلك فلم أستطع أن أجد لقبا آخر يزودني بقناع أفضل ، وقد تضمنت صداقة نوكادا شيئا يخاطب نقطة الضعف تلك عندي ، لأنه كان موضع الكثير من الغيرة من جانب «الفتية الأشداء» في مدرستنا ، ولأنه من خلاله تعلقت بأصداء واهنة للاتصالات بعالم النساء ، تماما على نحو ما يتصل المرء بعالم الروح عن طريق وسيط روحاني .

كان أومي هو الوسيط الأول بينى وبين عالم النساء ، ولكنني في هذا الوقت كنت أقرب إلى ذاتي الطبيعية ، هكذا اقتنعت باعتبار مؤهلاته الخاصة كوسيط مجرد من جماله ، غير أن دور نوكادا كوسيط أصبح الإطار الفائق لفضولي ، ربما كان ذلك راجعا ، على الأقل في أحد جوانبه ، إلى حقيقة أن نوكادا لم يكن جميلا على الإطلاق .

لم تكن الشفتان اللتان أصبحتا هاجسا بالنسبة لي إلا شفتى أخت نوكادا الكبرى ، وكنت قد رأيتهما حينما مضيت إلى داره لزيارته . كان يسيرا على هذه الفتاة الجميلة ، ذات الثلاثة والعشرين ربيعا ، أن تعاملني كطفل ، بمراقبة

الرجال الذين يتهافتون عليها أدركت أنني لا أتمتع بمزية واحدة ، يمكن أن تجتذب امرأة . هكذا اعترفت لنفسي أخيرا بأنني لن اصبح أومي أبداً ، وبمزيد من التأمل أقررت بأن رغبتي في أن أغدو مثل أومي لم تكن في الحقيقة إلا حبا له .

رغم ذلك كنت لا أزال مقتنعا بأنني أحب أخت نوكادا . سلكت على وجه الدقة السلوك الذي يمكن أن يأتيه أي طالب بمدرسة ثانوية ، في مثل عمري ، لا خبرة له ، رحت أنتظر إلى جوار دارها ، منفقا في صبر ساعات طويلة في مكتبة قريبة ، آملا أنها قد تمر بالصدفة فاستوقفها . كنت أحتضن الوسادة ، أتخيل الشعور بمعانقتها ، أرسم صورا لا حصر لها لشفتيها ، أحدث نفسي كما لو كنت قد جننت . وماذا كانت جدوى كل ذلك؟ لم تؤد هذه الجهود المصطنعة إلا إلى إصابة ذهني بإرهاق خدر غريب . و تلمس الجانب الواقعي من ذهني الاصطناع في الاحتجاجات الأزلية التي كنت أقنع بها نفسي بأنني أحبها ، وشن حرب مضاءة بذلك الإرهاق الذهني الباعث على الغيظ ، بدا أن ثمة لونا رهيبا من السم في هذا الإرهاق الذهني .

بين فترات السكينة في غمار هذه الجهود التي أبذلها للوصول إلى الاصطناع ، كان يغلبني في بعض الأحيان خواء يبعث الشلل ، ولكى أهرب منه ، كنت أنتقل إلى نوع اخر من أحلام اليقظة ، دونما حياء ، عندئذ أغدو على الفور متوافقا مع سرعة الحياة ، أصبح ذاتيا ، أتوهج محلقا نحو صور غريبة ، فضلا عن هذا فإن اللهب الذي يخلق على هذا النحو يمكث في ذهني ، كشعور مجرد منفصل عن واقع الصور التي سببته ، وأظل أحرف تفسيري لهذا الشعور عن موضعه ، إلى أن يساورني الاعتقاد بأنه برهان العاطفة التي فجرتها الفتاة نفسها . . هكذا خدعت نفسي مرة أخرى .

إذا كان هناك من يوجهون اللوم لي قائلين إن ما وصفته بالغ التعميم والتجريد ، فليس بمقدوري إلا الرد بالقول إنني لم أعتزم تقديم وصف مسهب لفترة من حياتي لا تختلف في جوانبها الخارجية بحال عن جوانب المراهقة العادية ، فباستثناء الجانب الفاضح من ذهني ، كانت مراهقتي عادية تماما ، حتى في جوانبها الداخلية ، خلا لهذه الفترة كنت كأي فتى آخر تماما . ولا يحتاج القارئ إلا إلى أن يصور لنفسه طالبا مجتهدا بصورة طيبة ، لم يبلغ العشرين من عمره بعد ، يساوره فضول عادي ، يتمتع بشهوة عادية للحياة ، ويحتل موضع المعتكف ، ربما لا لشيء إلا لأنه كان عاكفا على الاستبطان يحمر خجلا سريعا لدى أدنى كلمة ، و يفتقر إلى الثقةالتي تنبع من كونه يتمتع بما يكفي من الوسامة لاجتذاب الفتيات ، فيتشبث بحكم الظروف بكتبه ، وسيكون ذلك كافيا لكي يصور المرء لنفسه كيف كان هذا الطالب يحن إلى النساء ، وكيف كانت النار تتقد بصدره ، وكيف أنه كان يعيش عذابا لا جدوى منه .

أيمكن أن يكون هناك ما هو أكثر عادية وأيسر في تصوره؟ لعله من قبيل التوفيق أن أحذف هذه التفاصيل المضجرة ، التي تكرر فحسب ما يعرفه الجميع بالفعل . فلنكتف إذن بالقول إنه- باستثناء دائم للفارق الفاضح الذي أصفه- في تلك الفترة المتجردة من الألوان من حياة الطالب الخجول كنت كسائر الفتية تماما ، وإنني أقسمت يمين الولاء غير المشروط لمدير المسرح الذي عرضت عليه المسرحية المسماة بالمراهقة .

خلال هذه الفترة امتد الانجذاب الذي كنت أشعر به ، فيما سبق ، نحو الفتية الأكبر سنا شيئا فشيئا ليشمل الفتية الأصغر سنا كذلك . كان هذا أمراً

طبيعيا ، حيث أنه في هذه الفترة كان الفتية الأصغر سنا في العمر ذاته الذي كان فيه أومي حينما أحببته ، لكن هذا الانتقال بحبي إلى مجموعة عمرية مختلفة كان مرتبطا كذلك بتغير أكثر جذرية في طبيعة حبى ، وكما هو الشأن من قبل أبقيت هذا الشعور الجديد طي الكتمان في سويداء قلبي ، لكن إلى جوار عشقى لمن هو وحشى أضيف الآن عشق لمن هو رشيق ومهذب ، ومع نموى الطبيعي نما في أعماق شيء يحاكى عشق الوصي ، شيء يشبه حب الغلمان .

يقسم هيرشفيلد اللواطيين إلى فئتين : الأندروفيليين الذين لا ينجذبون إلا إلى البالغين ، والايفيبوفيليين الذين يولعون بالفتية ممن هم بين الرابعة عشرة والحادية والعشرين . كنت أوشك على فهم مشاعر الفئة الثانية . . . في بلاد الإغريق كان الفتى يدعى ايفيبى وهو في الفترة من الثامنة عشرة إلى العشرين من عمره وذلك خلال تلقيه التدريب العسكري ، وقد استمد الاصطلاح من الكلمة الإغريقية ذاتها التي تبدو في اسم هيبي ، ابنة زيوس وهيرا ، حاملة قدح الألهة في الاوليمب ، زوجة هرقل الخالد ، ورمز ربيع الحياة .

كان هناك فتى جميل المحيا ، لم يبلغ السابعة عشرة من عمره ، التحق لتوه بالمدرسة الثانوية ، كانت له بشرة فاتحة اللون ، وشفتان رفيقتان وحاجبان مكتملا الاستدارة ، علمت أن اسمه ياكوم ، . اجتذبتنى ملامحه إلى حد كبير .

دون أن يدرك الأمر ، شرع يهديني سلسلة من الهدايا ، يتألف كل منها من أسبوع كامل من السرور ، كان عرفاء القسم من طلاب الصف الأعلى ، الذين كنت واحدا منهم ، يصدرون الأوامر في نوبات أسبوعية في الاصطفاف الصباحي والتمارين الرياضية والتدريب العسكري في الأصيل (كان هذا

الأخير ، على نحو ما هو مفروض في المدارس الثانوية في تلك الأيام ، يضم نصف ساعة من الرياضات البحرية ، كنا نحمل الأدوات في أعقابها ، ونمضى لحفر ملاجئ الغارات ، أو اجتزاز العشب) . كانت نوبتي في إصدار الأوامر تحل مرة كل شهر ، وقد بدا أنه حتى مدرستنا رغم كل أساليبها الحساسة قد انصاعت لصرعات العصر الخشنة ، ومع مقدم الصيف أمرنا بالتجرد من ملابسنا ، حتى الخاصرة ، لأداء تدريبات الصباح والرياضات البحرية في الأصيل .

كان النظام يقضى بأن يصدر العريف أولا الأوامر بالاصطفاف الصباحي من فوق المنصة ، وحينما يتم الاصطفاف كان عليه أن يصدر الأمر :«سترات إنزع!» وبعد أن يشرع الجميع في نزع السترات كان عليه أن يهبط ، يقف إلى جانب الصف ، وعندئذ يصدر الأمر للطلاب بالانحناء لمدرب التربية البدنية ، الذي يكون قد احتل مكانه فوق المنصة ، وهنا تنتهى مهمة العريف ، حيث يأخذ المدرب في توجيه التدريبات ، من ثم يسرع عائدا للطابور الأخير من صفه الدراسي ، حيث ينزع بدوره سترته ، يتجرد من ملابسه حتى الخاصرة ، ويشارك في التدريبات .

كنت أرهب إصدار الأوامر للغاية ، حتى أن مجرد التفكير فيه كان يجعلني أتجمد خوفا ، مع ذلك فقد كانت المراسم الشكلية العسكرية المتصلبة لهذا الإجراء تتيح لي فرصة بالغة الندرة ، حتى أنني كنت بشكل ما أتوق إلى الأسبوع الذي يحل فيه دوري لإصدار الأوامر ، ذلك أنه بفضله كان جسد ياكومو ، نصف العاري ، يوضح أمام عيني مباشرة ، دون خطر مشاهدته لعريي البشع .

كقاعدة عامة ، كان ياكومو يقف أمام المنصة مباشرة في الصف الأول أو الثاني ، وخداه المراوحان بين البنفسج المعتدل والأرجوان الباهر يتوقدان حمرة ، فتداخلني البهجة لمرآهما ، يلهث قليلا حينما يقبل عدوا إلى مكان الاصطفاف ، ويحتل مكانه في الصف ، لاهثا كان يفك دائما أزرار قميصه بحركات خشنة ، ثم ينتزع ذيل قميصه بعنف من سراويله كأنما ليمزقه إربا .

ألفيت أنه من المستحيل أن أشيح بناظري بعيدا عن بدنه الحليبي اللدن ، فيما هو معرى هكذا ، نهبا للأنظار بمثل هذه اللامبالاة ، حتى حين أعقد العزم على ألا أنظر إليه (ذات مرة تجمد الدم في عروقي حينما استمعت إلى ملاحظة بريئة لصديق وهو يقول :«إنك تنكس عينيك دائما حين تلقى الأوامر من المنصة ، أحقا أنت «خرع» هكذا؟) . لكنني في المناسبات لم تتح لي فرصة المزيد من الاقتراب من عريه النصفي المورد .

حينما حل الصيف مضت كل الصفوف العليا لقضاء أسبوع من الدراسة والمراقبة في مدرسة للهندسة البحرية في مدينة «م» ، وذات يوم ، فيما كنا هناك ، تم اصطحابنا جميعا للسباحة في المسبح ، وبدلا من الإقرار بأني لا أستطيع السباحة اعتذرت بدعوى الإصابة بألم في المعدة ، توقعت أن أظل متفرجا لا غير ، غير أن نقيبا قال إن حمام الشمس علاج لجميع الأمراض ، وحتى أولئك الذين ادعوا أن المرض ألم بهم وما عاد بوسعهم السباحة أجبروا على نزع ملابسهم ، عدا سراويلهم القصيرة .

فجأة لاحظت أن ياكومو بين مجموعتنا . كان يرقد ، وقد عقد ذراعيه الأبيضين بعضلاتهما الناتئة ، معرضا صدره الذي لوحته الشمس قليلا للنسيم ، عاضا شفته السفلى باستمرار ، كأنما يداعبها بأسنانه البيضاء شرع

المتمارضون في التجمع تحت ظل شجرة إلى جوار المسبح ، لم أجد صعوبة في الاقتراب منه ، جلست إلى جواره ، قست بعيني خصره النحيل ، حدقت في بطنه ، التي راحت تعلو وتنخفض مع تنفسه ، فيما كنت أقوم بذلك استعدت بيتا من الشعر لوايتمان يقول :

طفا الشباب على ظهورهم وبطونهم البيضاء تبرز نحو الشمس . . .

مرة أخرى التزمت الصمت ، لفنى الخجل من صدري المهزول وذراعي الشاحبتين ناتئتى العظام . .

في سبتمبر 1944 ، العام الذي سبق نهاية الحرب ، غادرت المدرسة التي التحقت بها منذ طفولتي ، التحقت بكلية الحقوق ، لكن ذلك لم يضايقني كثيراً ، حيث كنت مقتنعا بأنني سرعان ما أستدعي إلى الجيش ، فألقى حتفى في الميدان ، وستلحق الرحمة بأسرتي كذلك ، فتقتل في الغارات الجوية ، دون أن ينجو منا ناج .

وعلى نحو ما كان مألوفا في ذلك الحين ، اقترضت ثوبا جامعيا من طالب بصف أعلى ، كان على وشك الذهاب إلى الميدان ، لدى التحاقي بالجامعة ، مع وعد بإعادته إلى أسرته ، حينما يأتي عليّ الدور في الذهاب إلى الميدان . ارتديت هذا الزي ، وشرعت في شهود المحاضرات .

أضحت الغارات أكثر تواترا ، كنت أرهبها على نحو غير مألوف ، رغم ذلك كنت في الوقت نفسه أترقب الموت بصبر نافذ وبتوقع عذب . كما سبق أن أشرت مرات عديدة ، كان المستقبل وقرا ثقيلا ، منذ البداية ذاتها أبهظتني الحياة بشعور ثقيل بالواجب ، وعلى الرغم من أنني كنت عاجزاً بصورة جلية

عن أداء هذا الواجب ، فإن الحياة ما فتئت تقض مضجعي لوما وتعنيفا لتقصيري . هكذا كنت أتوق للشعور العظيم بالارتياح ، الذي من المؤكد أن الموت سيجلبه لو أني استطعت أن أزيح كمصارع وقر الحياة الثقيل عن كاهلي . تقبلت بأحاسيس الإيمان بالموت ، الذي كان شائعا خلال الحرب ، اعتقدت أنني إذا استطعت بالمصادفة أن ألقى حتفى على نحو مجيد في الميدان (كم كان ذلك حريا ألا يناسبنى!) فإن ذلك سيكون نهاية ساخرة حقا لحياتي ، وسيغدو بمقدوري أن أضحك ساخرا منه للأبد في قبري . . حينما كانت صفارات الإنذار من الغارات تدوى ، كان ذلك الشخص ذاته الذي يقبع في إهابي يندفع سابقا الجميع إلى المخابئ .

سمعت صوت بيان ، يعزف دونما إتقان .

كان ذلك في دار صديق قرر التطوع قريبا كطالب خاص بالكلية الحربية . كان اسمه كوسانو ، كنت أقدره وأعده الصديق الوحيد بالمدرسة الثانوية الذي أستطيع مجاذبته أطراف الحديث حول موضوعات جادة . بل إني لازلت حقا أقدر صداقته اليوم حق قدرها . أنا إنسان ليست لديه رغبة خاصة في أن يكون له أصدقاء ، لكنني أشعر بالأسى إزاء شيء ما في أعماقي يجبرني على أن أقول ما سيلي من حديث ، وذلك على الرغم من أنه يحتمل إلى حد كبيرأن يقضى على الصداقة الوحيدة التي لي :

- ترى أيبدو واعدا من يعزف على البيان ، في بعض الأحيان يبدو العزف أقل توازنا ، ألا يبدو كذلك؟

- هذه أختى ، وقد خرج مدرسها لتوه ، وهي تراجع الدرس .

توقفنا عن الحديث ، أصغينا بانتباه ، وبما أن التحاق كوسانو بالكلية الحربية كان وشيكا ، فربما لم يكن صوت البين وحده والذي يتردد في مسامعه ، وإنما كان شيئاً يومياً مألوفاً ، ضرباً من البهاء المربك ، الذي يبعث الضيق ، والذي سرعان ما يتعين عليه أن يخلفه وراءه ، كان في اللون النغمي لأصوات البيان تلك شعور بالحميمية ، يحاكي لونا من الحلوى ، أعده طاه هاو وفيما ينظر في كتاب للطهو . لم أملك إلا أن أتساءل :

- كم عمرها؟

رد كوسانو :

- سبعة عشر عاما ، إنها أختى التي تصغرني مباشرة .

كلما أمعنت في الإصغاء أمكنني أن أدرك بالسماع أنه صوت بيان حقا تعزف عليه فتاة في السابعة عشرة من عمرها ، ممتلئة بالأحلام ، لم تدرك بعد جمالها ، ولا تزال أطراف أصابعها تحتفظ بلمسات الطفولة ، دعوت أن يستمر مرانها إلى الأبد .

استجيب دعائي ، ففي فؤاد لا يزال يتواصل نغم ذلك البيان اليوم وبعد انقضاء خمس سنوات ، كم من مرة حاولت أن أقنع نفسي بأن الأمر لم يعد كونه هذيانا! كم من مرة سخر عقلى من هذا الوهم! كم من مرة سخرت إرادتي المتهافتة من قدرتي على خداع النفس؟ رغم هذا كله تظل قائمة حقيقة أن ذلك البيان تملك ناصيتي ، ذلك يعني بالنسبة لي إذا ما أمكن أن نحذف الإسقاطات المعتمة من الكلمة- أنه كان حقا شيئا بعث به «القدر» .

منذ وقت قريب فحسب كنت أتذكر الانطباع الغريب الذي تركته كلمة

«القدر» هذه عندي ، بعد إنهاء الدراسة بالمدرسة الثانوية ، ذهبت في سيارة مع ناظر المدرسة- الأميرال العجوز- للقيام بزيارة شكر وعرفان رسمية للقصر . فيما كانت السيارة تمضى بنا شرع هذا العجوز الجهم ، الذي تجمعت الإفرازات في ركني عينيه ، ينتقد قراري بعدم التطوع كطالب بالكلية الحربية وانتظار التجنيد العادي ، راح يؤكد لي أنني بضعف بنيتي لن أتمكن أبدا من احتمال مشاق الحياة في صفوف الجنود العاديين .

- لكني حسمت رأيي .

- تقول هذا لأنك لا تدرك ما يعنيه ، ، لكن يوم التطوع انقضى بالفعل وما عاد بالوسع القيام الآن بشيء حيال هذا الأمر . إنه قدرك .

استخدم الكلمة الانجليزية مسيئا نطقها بالطريقة العتيقة . تساءلت : ماذا؟

- القدر ، إنه قدرك .

كرر قوله على نحو مضجر ، مستخدما نبرة الصوت اللامبالية الخجول ، التي تميز الكهول ، الذين يحذرون أن يظن بهم شبها بالجدات الثرثارات .

لابد أنني كنت قد شاهدت خلال زيارات سابقة لدار كوسانو تلك الأخت التي كانت تعزف على البيان ، لكن أسرة كوسانو كانت شديدة التزمت ، لا تشبه من قريب أو بعيد أسرة نوكادا المتحررة ، وحينما كان أصدقاء كوسانو يقبلون لزيارته كانت الشقيقات الثلاث يختفين عن العيان ، على الفور ، مخلفات وراءهن ابتساماتهن الحيية .

فيما كان موعد التحاق كوسانو بالكلية الحربية يزداد اقترابا تواترت زياراتنا أحدنا للآخر ، تعمق ترددنا في الافتراق ، أصابتني تجربة الإصغاء إلى ذلك البيان بتبلد تام حيال تلك الأخت ، كان سماعه يشبه التلصص على سر من أسرارها ، منذ ذلك الوقت لم أعد قادرا بشكل ما على أن أحدق في عينيها أو أحدثها مباشرة ، وحينما يتصادف أن تجلب الشاي كنت أنكس رأسي ، فلا أرى منها إلا ساقيها الرشيقتين وقدميها ، وهما تطآن الأرض بخفة . فتنت بجمال ساقيها ، ربما لأني لم أكن قد اعتدت بعد على رؤية نساء المدينة وهن يرتدين سراويل الفلاحات تحت تنورة قصيرة ، أو هذه السراويل الفضفاضة ، التي غدت صرعة تلك الأوقات المحفوفة بالمخاطر .

مع ذلك ، سيكون من قبيل الخطأ أن أترك الانطباع بأن ساقيها أحدثت أي استثارة جنسية لديّ ، فكما سبق لي القول كنت أفتقر تماما إلى أي شعور بالرغبة الجنسية تجاه الجنس الآخر ، تبرهن على ذلك إلى حد كبير حقيقة أنه لم تساورني أبدا أدنى رغبة في أن أرى جسد أمرأة عاريا ، لهذا كله ما إن أشرع في التصور جادا بأنني أحب فتاة ما ، ويبدأالإعياء الحاقد الذي تحدثت عنه قبلا في عرقلة ذهني ، حتى استشعر فرصة في النظر إلى نفسي كشخص يحكم العقل حياته ، وأرضي رغبتي المزهوة في أن أبدو ناضجا ، بتشبيه عواطفي المتصلبة المتقلبة بعواطف رجل سئم النساء غدا هذا الدوران الذهني حول نقطة واحدة تلقائيا عندى ، كأنما كنت إحدى آلات الحلوى تلك التي تعمل فتقذف قطعة من الحلوى منزلقة خارجا ، في اللحظة التي تدس بها عملة معدنية .

توصلت إلى أن بمقدورى أن أحب فتاة دون أن أشعر بأية رغبة على الإطلاق نحوها ، وربما كان ذلك أكثر المشروعات طيشا منذ بداية التاريخ

الإنساني ، فدون أن أدرك الأمر بنفسي أخذت على عاتقى- وأرجو أن تغتفر لي ميلى الطبيعي إلى الإغراق ، والمبالغة- أن أكون كوبرنيكوس نظرية الحب ، فبقيامي بذلك وصلت دونما قصد إلى ما لا يتجاوز الإيمان بمفهوم أفلاطون للحب . وعلى الرغم من أنني قد أبدو لو كنت أناقض ما قلته من قبل ، فقد كنت أومن بهذا المفهوم الأفلاطوني مخلصا ، أعني بقيمته الإسمية الكاملة وبصورة نقية . على أية حال أما كان النقاء نفسه لا المفهوم هو ما أؤمن؟ ألم يكن النقاء هو الذي أقسمت يمين الولاء له؟ لكنى سأفصل القول بهذا فيما بعد .

إذا كنت أبدو في بعض الأحيان كما لو كنت لا أؤمن بالحب الأفلاطوني ، فإن ذلك يمكن أن يلام عليه ذهني ، الذي يبالغ في الميل إلى تفضيل مفهوم الحب الشهواني ، الذي كان قلبي خاويا منه ، وذلك الإعياء الذي يفرزه إدعاء بالغ الميل إلى مصاحبة أي إرضاء لجنوني بالظهور بمظهر الرجل الفاضح ، وباختصار فإن ما ألام عليه هو قلقي .

أقبل العام الأخير من الحرب . بلغت العشرين من العمر . في مطالع ذلك العام ، أرسل جميع طلاب جامعتي للعمل بمصنع «ن» ، للطائرات ، بالقرب من مدينة «م» . أصبح ثمانون بالمائة من الطلاب عمالا بالمصنع ، أما الطلاب المهزولون ، الذين شكلوا العشرين بالمائة الباقية ، فقد عهد إليهم بأعمال كتابية ، وكنت ضمن هذه الفئة الأخيرة ، ومع ذلك فقبل عام ، ولدى حلول موعد الفحص الطبي للتجنيد صنفت ضمن الفئة الثانية (الشريحة ب) وبعد أن أعلنت لائقا للخدمة العسكرية ساورني القلق حول أن أوراق استدعائي يمكن أن تصل غدا ، إن لم يكن اليوم .

كان مصنع الطائرات الواقع في منطقة معزولة ، تتقد بلفح الغبار ، ومن الضخامة بحيث أن عبوره سيرا على الأقدام من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر كان يستغرق نصف ساعة ، ويموج بعمل عدة آلاف من العمال ، كنت واحد منهم ، أحمل تصنيف الموظف المؤقت رقم 953 وبطاقة الهوية رقم 4409 .

هذا المصنع الهائل كان يعمل وفقا لنظام تكاليف إنتاج غامض : ففي إطار تجاهل القول الاقتصادي الفصل الذي يقرر أن استثمار رأس المال لابد أن يدر عائدا ، كان المصنع مكرسا لعدم «وحشى» ، فلا عجب إذن أن العمال كان يتعين عليهم كل يوم أن يؤدوا قسماً طقوسياً . لم أر أبدا مثل هذا المصنع الغريب ، ففيه كانت الأساليب الفنية ، التي أبدعها العلم والإدارة الحديثان ، تكرس جنبا إلى جنب مع التفكير الدقيق والعقلاني للعديد من العقول النابهة لتحقيق غاية واحدة ، هي الموت . كان هذا المصنع الهائل بإنتاجه للنمط صفر من الطائرة المقاتلة ، التي تستخدمها الأسراب الانتحارية ، يحاكي طائفة سرية ، تعمل على نحو راعد متنمر ، صارخ ومزمجر ، لم أفهم كيف يمكن لمثل هذا التنظيم الهائل أن يوجد ، دون بعض التضخيم الديني ، وفي الحق أن المصنع كان يتمتع ببعض الجلال الديني ، حتى إلى الحد الذي يضخم به المديرون المترهبنون أكراشهم .

بين الحين والآخر ، كانت أصوات صفارات الإنذار بالغارة تعلن حلول الساعة التي ينبغي أن تقيم فيها هذه الطائفة المرتكسة قداسها المظلم .

عندئذ يبدأ المكتب في الهياج . لم يكن هناك مذياع في الغرفة ، لذا لم تكن لدينا طريقة نعرف بها ما يجرى ، يقول أحدهم متحدثا بلهجة ريفية

غليظة :«ترى ما الذي يجرى؟» . وفي هذا الوقت تقبل فتاة من الاستقبال بمكتب المدير بنبأ من قبيل :«شوهدت تشكيلات لطيران العدو» وسرعان ما تصدر الأصوات العملاقة لمكبرات الصوت الأمر للطالبات وفتية المدارس باللجوء إلى المخبأ ، يمر المسؤولون عن أعمال الانقاذ ، وموزعين بطاقات حمراء تحمل الكلمات المطبوعة :«أوقف النزيف الساعة- الدقيقة-» . فإذا ما جرح أحد تملأ إحدى هذه البطاقات ، وتعلق حول رقبته موضحة الموعد الذي ثبتت فيه المرقاة ، وبعد حوالي عشر دقائق من تردد دوي صفارات الإنذار ، تعلن مكبرات الصوت :«جميع العاملين يتجهون إلى المخابئ» .

يسارع العاملون بالمكاتب ، متأبطين ملفات الأوراق المهمة لإيداعها في قبو تحت الأرض ، حيث تحفظ السجلات المهمة ، ثم يندفعون خارجين ، فينضمون إلى أسراب العمال المسرعين عبر الميدان ، وقد وضعوا على رؤوسهم خوذات الغارات أو أغطية الرأس المدثرة ، فيتدفق الجمع نحو البوابة الرئيسية .

خارج البوابة كانت هناك ساحة مهجورة ، جرداء ، مصفرة ، على بعد سبعمائة أو ثمانمائة متر وراءها حفرت ملاجئ عديدة ، وسط أجمة صنوبر على تل دقيق الانحدار وباتجاه هذه الملاجئ يندفع رتلان منفصلان ، صامتان ، نافذا الصبر من الجمع الأعمى ، عبر الغبار ، نحو ما ليس على أي حال موتا ، بغض النظر عما إذا كان ملجأ قابلا للإنهيار بسهولة من الطين الأحمر ، باتجاه ما ليس موتا على أية حال .

كنت أمضى إلى الدار في إجازاتي العشوائية ، وهناك تلقيت في الحادية عشرة من إحدى الليالي إخطار تجنيدي ، كانت برقية تتضمن أمرا بتقديم نفسي إلى وحدة معينة في منتصف فبراير .

بناء على نصيحة أبي ، كنت قد اجتزت الكشف الطبي ، لا في طوكيو ، وإنّما في المقر الرئيسي للفوج المتمركز بالقرب من الموضع الذي كان الموطن القانوني لعائلتي ، في مقاطعة «هـ» ، بإقليم أوساكابكيوتوه تمثلت نظرية أبي في أن تركيبي الجثماني الواهن سيجذب المزيد من الاهتمام في منطقة ريفية ، على نحو يفوق ما يمكن أن يحدث في المدينة ،حيث لم يكن مثل هذا الوهن أمرا نادرا ، وأنه كنتيجة لهذا قد لا أجند . وفي الحقيقة فقد قدمت للمسؤولين عن الكشف الطبي مبررا للإغراق في الضحك ، حينما عجزت عن رفع جوال من الأرز حتى مستوى صدري ، فيما كان الفتية الريفيون يرفعونه بسهولة فوق رؤوسهم عشرات المرات ، ورغم ذلك صنفت في النهاية ضمن الفئة الثانية (الشريحة ب) .

الآن أصبحت مستدعى للإلتحاق بوحدة ريفية خشنة . بكت أمي أسفا ، وبدا أبي مغتماً هونا ما . أما عنى أنا الذي تصورت نفسي بطلا فإن منظر أوراق الاستدعاء لم يثر في نفسي حماسا ، من ناحية أخرى كان هناك أملى في أن ألقى حتفى على نحو يسير . وإجمالا بأن كل شيء على ما يرام .

تفاقمت نوبة البرد التي أصابتنى في المستشفى كثيرا ، خلال رحلتى على ظهر باخرة للإلتحاق بوحدتي ، وفي الوقت الذي بلغت فيه دار عائلة تربطها صداقة حميمة بعائلتي في القرية التي بها موطننا- ما كنا نملك قطعة واحدة من الأرض منذ إفلاس جدي- داهمتني حمى بالغة الشدة حتى أنني عجزت عن الوقوف ، غير أنه بفضل الرعاية التي تلقيتها في هذه الدار ، وبصفة خاصة بفضل التأثير الفعال للكمية الضخمة التي تناولتها من مهدئات الحمى ، تمكنت أخيرا من شق طريقي عبر بوابة الثكنات ، وسط وداع حار من أصدقاء العائلة .

الآن عاودتني الحمى ، التي كانت الأدوية قد كبحت جماحها فحسب ، خلال الكشف الطبي الذي يسبق التجنيد النهائي اضطررت للوقوف عاريا تماما ، منتظرا كحيوان بري ، وقد غلبتني موجة من العطاس المتواصل ، أخطأ الطبيب العسكري الشاب الذي فحصني صفير شعبي الهوائية ، فحسبه صادرا عن الصدر ، ثم أكدت له ردودي العشوائية حول تاريخي الطبي خطأه ، ومن هنا أجرى لي فحص للدم أدت نتائجه المتأثرة بالحمى المرتفعة الناتجة عن نوبة البرد إلى تشخيص خاطئ لمرحلة أولى من السل . في اليوم نفسه تلقيت أمرا بالعودة إلى داري ، باعتباري غير لائق للخدمة العسكرية .

حينما وليت بوابة الثكنات دبري ، انطلقت عدوا عبر المنحدر الشتوى الكابى الهابط نحو القرية ، وكما كان الحال في مصنع الطائرات تماما قادتني قدماى عدوا نحو ذلك الشيء الذي ليس موتاً على أية حال ، وأيا كان شأنه فإنه لم يكن موتاً .

عانيت بالقطار في تلك الليلة وقد انكمشت من الريح ، التي كانت تنفذ من نافذة زجاجية مكسورة ، من موجات الرعدة الناتجة عن الحمى ، فضلا عن صداع قاس . إلى أين أمضى الآن؟ رحت أساءل نفسي ، بفضل عجز أبي الموروث عن اتخاذ أي قرار حول أي شيء ظلت عائلتي قابعة دون اخلاء من دارنا في طوكيو . أتراني أمضي إلى هناك ، إلى تلك الدار التي يرقد فيها الجميع خوف الفجاءة؟ إلى تلك المدينة التي تطوق الدار برهبتها المعتمة؟ إلى خضم هذه الحشود حيث للجميع عيون كعيون الخراف ويبدو كل منهم دائما وكأنه يرغب في أن يسأل الآخر : «أأنت بخير؟ أأنت بخير»؟ أو إلى مهجع مصنع الطائرات الخاوى إلا من وجوه طلاب الجامعة المصدورين التي تجردت من الروح؟!!

راحت العوارض الخشبية للمقعد التي أسندت ظهري إليها تتقلقل ، وقد تعتعها الضغط مع اهتزازات القطار . بين الفينة والأخرى أغمض عيني ، وأتخيل مشهداً تلقى فيه عائلتي بكاملها حتفها في غارة تقع خلال زيارتي لها . كانت الفكرة فحسب تفعمني باشمئزاز لا يوصف . ما من شيء أثار فيّ مثل هذا الشعور الغريب بالتقزز على نحو ما أثارته فكرة الربط بين الحياة اليومية والموت . ألا تخفى القطة نفسها حين يقترب الموت حتى لا يراها أحد تلفظ أنفاسها الأخيرة؟ أدى مجرد التفكير في أنني قد أرى المصارع الضاربة التي تلقاها عائلتي ، وأنها قد تشهد مصرعي إلى جعل موجة غثيان مقيئة تعلو في صدر ، التفكير في الموت وهو يدفع أسرة نحو هذا المجاز ، في أن الموت سيسيطر على الأم ، الأب ، الأخت ، الأبناء ، البنات ، ويجعلهم يتقاسمون الشعور بالاحتضار ، في النظرات التي سيتبادلونها فيما بينهم- بدا هذا كله لي تقليدا فاحشا وساخرا لمشاهد السعادة والوئام العائليين الكاملين .

كان ما أوردته هو أن ألقى حتفي وسط غرباء ، دونما اضطراب ، تحت سماء لا تشوب السحب صفاءها ، مع ذلك فقد اختلفت رغبتي عن مشاعر ذلك الاغريقي القديم الذي أراد أن يموت تحت شمس وهاجة . كان ما أردته انتحاراً طبيعياً ، عضوياً ، أردت موتا كذلك الذي يلقاه ثعلب لم يتمرس بعد بالخداع ، فيسير دونما حذر على امتداد ممر جبلي ، فيرديه صياد قتيلا بسبب بلاهته .

لو أن الأمر كذلك ، أما كان الجيش يغدو مثاليا لتحقيق هدفي؟ لماذا بدوت بالغ الصراحة فيما كنت أدلي بالأكاذيب لطبيب الجيش؟ لماذا قلت إن الحمى كانت تداهمني طوال ما يزيد على نصف العام ، وإن كتفي متصلبان بصورة مولمة ، وإنني أبصق دما ، بل وإنني كنت في الليلة الماضية غارقا في

العرق؟ (تصادف أن هذه النقطة الأخيرة كانت حقيقة ، ولكن لا عجب في ذلك إذا ما تذكرنا عدد أقراص الأسبرين التي تناولتها) لماذا حين حكم عليّ بالعودة إلى الدار شعرت بوقر ابتسامة تنهل ضاغطة في إصرار بالغ على شفتى ، حتى أنى وجدت صعوبة في حجبها؟ لماذا عدوت على هذه النحو حين اجتزت بوابة الثكنات؟ ألم تنهر آمالى؟ لماذا إذن لم أنكس رأسي وأبتعد بخطى متثاقلة؟

أدركت بجلاء أن حياتي في المستقبل لن ترقى أبداً إلى ذرى المجد ، التي تكفي لتبرير هربي من الموت في الجيش ، ومن هنا لم استطع فهم مصدر القوة التي جعلتني أعدو بمثل هذه السرعة ، مبتعدا عن بوابة الفوج . هل عني ذلك أنني أردت الحياة في النهاية؟ وتلك الاستجابة التلقائية تماما ، التي تجعلني أندفع لاهث الأنفاس نحو الملجأ في الغارات ، ترى ماذا كانت غير رغبة في الحياة .

فجأة تناهي إليّ صوتي الآخر يحادثني ، ويخبرني بأنني لم أرغب ، ولو مرة واحدة ، في أن ألقى حتفى . عند سماع هذه الكلمات اكتسح شعوري بالعار السر الذي كنت أحتجزه خلفه . كان إقرارا مؤلما ، لكنني عرفت في تلك اللحظة أنني كنت أكذب على نفسي حينما أقول إنني أردت دخول الجيش لألقى حتفي . في تلك اللحظة أدركت أنني كنت آمل في قرارة نفسي أن الجيش سيتيح لي أخيرا فرصة إرضاء رغباتي الحسية الغريبة تلك . عرفت أنني أبعد ما أكون عن الرغبة في الموت ، وأن الشيء الوحيد الذي جعل من الممكن على الإطلاق أن أتطلع إلى حياة الجيش هو القناعة الثابتة ، التي تنشأ من إيمان بسحر بدائى مألوف لدى جميع الرجال ، بأنني وحدى لا يمكن أن ألقى حتفى أبداً . .

لكن ما كان أبعد هذه الأفكار عن أن تناسبني! كنت أوثر التفكير في نفسي بحسباني شخصا تخلى عنه كل شيء ، وهجره الجميع ، حتى الموت ، وبالطريقة ذاتها فإن الطبيب الذي يقوم بجراحة لعضو داخلي يركز بدقة جميع ملكاته في العملية التي يجريها ، مع ذلك فإنه يظل متجردا من الشخصية ، هكذا ابتهج بتصوير المعاناة الغريبة التي يلقاها شخص يريد الموت ، لكن الموت ، رده عن رحابة ، بدت درجة النشوة الذهنية التي وصلت إليها على هذا النحو لا أخلاقية تقريبا .

اختلفت الجامعة والمصنع في الرأي ، فتم سحبنا جميعا من المصنع في نهاية فبراير ، كانت الخطة بالنسبة لنا تقضي بتلقينا محاضرات مرة أخرى في مارس ، على أن نرسل عقب ذلك إلى مصنع مختلف في أبريل ، لكن في نهاية فبراير قام حوالي ألف طائرة من طائرات العدو بتوجيه ضربة جوية ، وأصبح جليا أن المحاضرات التي ستلقى في مارس ستكون شكلية فحسب . هكذا منحنا شهرا كعطلة في سمت الحرب ، كان ذلك يشبه أن تعطى هدية من الألعاب النارية المبتلة ، رغم ذلك كنت أوثر تلقي هذه الألعاب المبللة على تلقي ضرب من الهدايا العملية على نحو سخيف ، والتي كان يمكن ان تكون أكثر اتساقا مع روح الجامعة ، ولنشبهها بصندوق من رقائق الصودا الجافة ، كان الإسراف المحض في الأمر الذي هو بعث السرور في نفسي ، وجعلت الحقيقة القائلة بأن هذه الهدية لا جدوى منها ، جعلتها أمرا هائلا في تلك الأيام .

بعد أيام من شفائي من نوبة البرد التي ألمت بي ، اتصلت بي أم كاوسانو هاتفيا ، قالت إنه سيسمح لأول مرة بالزيارات للفوج الذي إلتحق به كاسونا في مدينة «م» . في العاشر من مارس ، وسألتني عما إذا كنت أود الذهاب معهم لزيارته .

قبلت الدعوة ، بعد فترة قصيرة مضيت إلى دار كوسانو ، لإعداد الترتيبات الضرورية . في هذه الأيام كانت الساعات فيما بين الغسق والثامنة مساء تعد أكثر ساعات اليوم أمانا . حينما بلغت الدار كانت العائلة قد فرغت لتوها من تناول طعام العشاء .

بما أن والد كونسانو كان قد رحل عن عالمنا ، فإن العائلة تألفت من أمه وجدته وشقيقاته الثلاث . دعيت للإنضام إليهن حول المدفأة الصغيرة ، حيث يجلسن ، وقدمتني الأم للأخت التي كنت قد سمعتها تعزف على البيان في تلك المرة السابقة .

كان اسمها سونوكو .

ألمحت ضاحكا إلى أني كنت قد سمعت عزفها من قبل ، مشيرا إلى أن هناك عازفة بيان شهيرة تحمل الاسم نفسه ، فتضرجت وجنة الفتاة ذات الثمانية عشرة ربيعا في الضوء الكابي ، الذي كان المصباح الخافت بسبب تقييد الإضاءة يلقيه ، والتزمت الصمت ، كانت ترتدي سترة جلدية حمراء اللون .

في صباح التاسع من مارس انتظرت عائلة كوسانو على رصيف محطة قريبة من دارها ، كانت الحكومة قد أصدرت أمرها . بهدم صف المحال الواقع على الجانب الآخر من القضبان ، لإفساح المجال لحاجز النار ، وكان بالوسع مشاهدة العمل في الهدم ، الذي كان قد بدأ بالفعل تفصيلا ، اندلع النشاط عبر هواء مطالع الربيع الصافي بضوضاء صاكة حديثة العهد ، وسط الهياكل المهدمة كان من الممكن رؤية الأسقف المشكوفة حديثا ، والمؤلفة من الخشب العاري الذي يخطف البصر . كان الصباح لا يزال ملتفا بالبرد لم تدو منذ أيام عديدة

صفارة غارة واحدة . خلال هذه الفترة الانتقالية القصيرة تزايد لمعان الهواء وامتداده خفيفا ، إلى حد أنه بدا الآن معرضا لخطر الانهيار . بدا المناخ كوتر سميسن[1] ، مشدود بإحكام ، متأهب للتذبذب لدى أول لمسة ، ذكرني بواحدة من لحظات الصمت القليلة تلك الثرية في خوائها ، و التي تتحقق في اندلاع الموسيقى حتى شعاع الشمس الباردة الذي سقط على ا لرصيف المهجور كان يرتعش بشيء يحاكي هاجس الموسيقى .

ثم ظهرت سونوكو مرتدية معطفا أزرق اللون مقبلة على الدرج المقابل مع أختها . أمسكت بيد أختها الصغرى ، وهي تراقبها بعناية هابطة الدرج فأخرى . بدت الأخت آنذاك في حوالي الرابعة عشرة من عمرها أو الخامسة عشرة ، نافذة الصبر إزاء هذا البطء في الهبوط لمكنها بدلامن أن تسبق أختها أقبلت هابطة الدرج الخاوي في خط متعرج .

لم يلح عليها أنها لاحظتني ، كان بوسعي أن أراها بجلاء من حيث وقفت ، لم يحدث أبدا طوال حياتي أن مس قلبي على هذا النحو مرأى الجمال الذي تجسده امرأة ، خفق قلبي ، شعرت بالنقاء .

ربمايرفض القارئ الذي تبعني إلى هذا الحد ، أن يصدق أي شيء أقوله ، لسوف يراوده الشك فيّ ، لأنه لن يبدو أن ثمة خلافا بين حبي المصطنع المهدر لأخت نوكادا وخفق قلبي الذي أتحدث عنه الآن ، حيث لن يلوح سبب ظاهر كعدم قيامي في هذه المناسبة دون غيرها بإخضاع انفعالاتي لذلك التحليل

---

1 - السميسن: آلة موسيقية يابانية الأوتار تشبه الكمان في شكلها العام غير أن الصندوق الرنان أصغر حجما ومربع الشكل (هـ.م).

الذي لا يعرف الرحمة ، الذي استخدمته في الحالة الأولى ، وإذا أصر القارئ على هذه الشكوك فإن فعل الكتابة يكون قد غدا منذ البداية أمرا لا طائل وراءه ، إذ سيظن أنني أقول شيئا ما لأنني أريد قوله على هذا النحو ، دون أي اعتبار للحقيقة ، وسيكون أي شيء أقوله لا غبار عليه ما دام أنني أجعل قصتي متماسكة . ورغم ذلك فإنه جزء بالغ الدقة من ذاكرتي ذلك الذي يزعم أن هناك نقطة خلاف جوهرية بين الانفعالات التي ساورتنى قبل هذا وبين تلك التي تثيرها فيّ سونوكو الآن . تمثل الخلاف في أنني الآن يساورني شعور بالندم .

حينما بلغت سونوكو نهاية الدرج لمحتني ، فابتسمت ، كانت وجنتاها الفتيتان متضرجتين إحمرارا بتأثير البرد ، أما عيناها- كان بؤبؤاها الواسعان السوداوان وأجفانها الوطفاء تخلع عليها مظهر الوسنى- فتألقتا كأنما تحاولان الحديث ، ثم عهدت بيد أختها الصغرى إلى شقيقتها الثانية ، وأقبلت تعدو عبر الرصيف نحوي بحركة رشيقة مثل ارتعاشة النور .

لم يكن ما رأيته مقبلا يعدو نحوى فتاة ، لم يكن ذلك التجسيد من اللحم الحي الذي صوته لنفسي عنوة منذ الطفولة ، وإنما هو شيء يحاكى رسولا يحمل أنباء الصباح ، ولولا هذه الحقيقة لاستطعت أن ألقاها بأمالي الخادعة في سونوكو وحدها . أفعمني هذا بشعور عميق بالخجل لعدم جدارتي بسونوكو . مع ذلك لم يكن هذا شعورا بالتدنى العبودي نحوها . في كل ثانية أمضيتها مراقبا سونوكو هاجمني حزن لا طاقة لي به .حتى تلك اللحظة كان الشعور الذي أجابه به النساء هو مزيج مفتعل من الفضول الطفولي والرغبة الجنسية الزائفة . لم يترنح قلبي أبدا على هذا النحو ، وعند النظرة الأولى ، أمام مثل هذا الحزن

الغامض العميق ، حزن لم يكن فوق ذلك جزءا من قناعي .

كنت أدرك أن هذا الشعور هو شعور بالندم ، لكن أتراني اقترفت خطيئة يتعين على الندم عليها؟ رغم ما قد يبدو في ذلك من تناقض ، أترى هناك ضرب من الندم يسبق الخطيئة؟ أكان ندما على حقيقة وجودي ذاتها؟ هل ناداني مرآها وأيقظهذا الندم؟ ألا يحتمل أن شعوري لم يكن إلا إحساسا مسبقا بالخطيئة؟ . .

كانت سونوكو تقف أمامي بالفعل في رزانة ، شرعت فعلا في الانحناء تحية لي ، لكنها حينما ألفتني غارقا في أفكاري بدأت في الانحناء من جديد بدقة بالغة .

- هل أبقيتك منتظرا؟ إن أمي وجدتي . . .

استخدمت صيغ التشريف في الإشارة إلى هاتين العضوتين من أعضاء عائلتها ، فتوقفت عن الحديث ، وتوردت وجنتاها خجلا ، على نحو مفاجئ ، حين أدركت إلى أي حد جانب التوفيق كلماتها ، إذ وجهت إلى من لا ينتمي لدائرة العائلة .

- طيب ، إنهما لم تستعدابعد ، وستتأخران قليلا ، لذا انتظر قليلاً . .

توقفت مرة أخرى ، ثم في رقة صوبت حديثها :

- لذا إذا سمحت عليك بالانتظار قليلاً ، فاذا لم تصلا سنمضي إلى محطة القطار ، أي إذاأردت ذلك .

بعد أن أفلحت في أن تغمغم بهذا الخطاب الطويل بلغة رسمية متعثرة

ندت عنها تنهيدة ارتياح طويلة .

كانت وافرة البدن ، هيفاء حتى لتبلغ جبيني ، جسمها رشيق ، على نحو غير عادي ، متناسق الأعضاء ، تتمتع بساقين بديعتين ، بدا وجهها البدري الطفولي ، الذي لم تستخدم أية مادة لتجميله ، انعكاسا لروح طاهرة لا تعرف التبرج ، كانت شفتاها مشققتين قليلا ،وبدتا كذلك أكثر حمرة .

تبادلنا كلمات قلائل مرتبكة ، رغم كراهيتي لنفسي في هذا الدور فقد حاولت بكل قوتي أن أظهر مرحا خفيف الروح ، لأبدو شابا موفور الذكاء .

توقف عدد كبير من قطارات المدينة إلى جوارنا صافرا ، ناضحا الضوضاء ، ثم انطلق راحلا ، غدا ضغط الركاب الهابطين والصاعدين أثقل فأثقل ، في كل مرة يقبل قطار كان يحال بيننا وبين دفق أشعة الشمس الذي كان يحممنا في دفئه البهيج ، وفي كل مرة يرحل فيها قطار كان الرعب يجتاحني مجددا ، إزاء رهافة شعاع الشمس الذي سمح له بالسقوط مرة أخري على وجنتي .

اعتبرت أنه من قبيل نذر الشؤم أن تسقط الشمس وارفة الزخم عليّ هكذا، وأن يمتلئ فؤادي بلحظات لا تترك بعدها رغبة تتوق إليها النفس، يقينا ستقع غارة خلال دقائق قليلة أو حادث فاجع بالقدر ذاته يصرعنا حيث نقف. رحت أحدث نفسي قائلا إننا لا نستحق يقينا حتى القليل من السعادة، أو ربما كنا قد اكتسبنا العادة السيئة المتمثلة في النظر إلى القليل من السعادة بحسبانه جميلا كبيرا سيتعين علينا رده. كان ذلك هو على وجه الدقة الشعور الذي خالجني من جراء وقوفي وجها لوجه مع سونوكو على هذا النحو. لاحت هي كذلك كما لو كان الإحساس ذاته قد غلبها.

انتظرنا طويلا، لكن أم سونوكو وجدتها لم تصلا، فاستقلنا أخيرا أحد قطارات المدينة، ومضينا إلى محطة «ي».

وسط صخب المحطة حيانا السيد أوهبا، الذي كان في طريقه إلى زيارة ابنه بالفوج نفسه الذي التحق به كوسانو. كانت بصحبة هذا المصرفي الكهل- الذي يمقت الزي المدنى الكاكي الذي حظى وقتها بتعاطف رسمي وتشبث في عناد بقبعة هومبورج وسترة رجالية قصيرة فضفاضة- ابنته التي كنت وسونوكو على معرفة يسيرة بها. ترى لماذا ابتهجت إزاء كون هذه الفتاة أقل جمالا بكثير من سونوكو؟ ما هو هذا الشعور؟ على الرغم من مرح سونوكو الساذج، الذي تبدى أمام عيني هناك، حيث كانت تعانق ابنة أوهبا، وتظهر مودتها الحميمة لها، أدركت أن سونوكو قد وهبت السماحة المشرقة التي تلازم الجمال، وأن هذا جعلها تبدو أكبر بسنوات عديدة مما هي عليه بالفعل.

حينما ولجنا القطار كان خاويا. اقتعدت وسونوكو، وكأنما مصادفة، مقعدين متقابلين إلى جوار النافذة.

بإضافة الخادم التي تصاحب جماعة أوهبا فإن عددهم يغدو ثلاثة أشخاص أما جماعتنا التي اكتمل جمعها أخيرا فتتألف من ستة أشخاص ، وبما أن مجموع الكل تسعة أشخاص فقد كنا جميعا أكبر عدد من أن نشغل فحسب مجموعتين متقابلتين عبر الممر من المقاعد .

قمت بهذا التقدير سريعا حتى دون أن أدرك ما أنا فاعله . ترى أيمكن أن تكون سونوكو قد قامت بالشيء نفسه؟ على أية حال حينما جلسنا بدقة أحدنا أمام الآخر تبادلنا ابتسامات مرحة .

بالنظر إلى عدد جماعتنا المشتركة ، الذي لا يمكن تدبر أمره ، وافق الآخرون صامتين حينما شكلت وسونوكو هذه الجزيرة الصغيرة المنفصلة لنفسينا . وكمسألة تتعلق بقواعد الذوق اضطرت أم سونوكو وجدتها للجلوس في مواجهة أوهبا وابنته . على الفور اختارت أخت سونوكو الصغرى الجلوس بالمقعد المواجه للنافذة ، عبر الممر الذي يمكنها منه أن ترى أمها وتتطلع من النافذة في وقت واحد ، وحذت الأخت الثالثة حذوها ، فتحول مقعدها إلى ملعب مع انضمام خادم آل أوهبا إليهما لرعايتها . وعزلني مسند المقعد العتيق مع سونوكو عن الآخرين .

سيطر السيد أوهبا الثرثار على مقاليد الحديث ، حتى قبل أن يغادر القطار المحطة . لم تدع ثرثرته النسوية خفيضة الصوت لمستمعيه إلا موافقته فيما يذهب إليه . بل إن الدهشة ألزمت الجدة خفيفة الروح التي تعد الممثل الثرثار لأسرة كوسانو الصمت ، وما عاد بوسعها هي والأم إلا أن تقولا :«نعم ، نعم» وأن تنشغلا تماما بمهمة الضحك ، أما ابنته فلم تند عنها كلمة واحدة .

سرعان ما بدأ القطار في التحرك ، حينما ابتعدنا عن المحطة تدفقت أشعة الشمس عبر زجاج النوافذ المتسخ ، سقطت على إطار النافذة المنبعج الذي جلست وسونوكو إلى جواره ، وانسكبت على حجرينا . التزام كلانا الصمت ، رحنا نصغي إلى ثرثرة السيد أوهبا المتناهية من المقعد المجاور . بين الحين والاخر كانت ابتسامة ترف على شفتي سونوكو ، وتدريجيا تسلل إليّ مرحها ، حينما تلتقي أعيننا كانت تصطنع نظرة متألقة ، عابثة ، منطلقة كمن يصغى إلى الصوت القريب وتتجنب لقاء عيني .

- . . . وحينما أموت أعتزم أن يحدث لي ذلك وقد ارتديت ملابسي على هذا النحو تماما ، فالاحتضار في زي مدني رسمي واربطة للساقين سيكون مما لا ينتمى للموت في شيء . أتراه كذلك؟ ولن أدع ابنتي ترتدي سراويل فضفاضة كذلك . أليس من واجبي كأب أن أهتم بأن تلقى حتفها وهي بمظهر النساء .

- نعم ، نعم .

- وعلى فكرة ، أخبروني من فضلكم حينما ترغبون في إخلاء أمتعتكم من المدينة ، فلابد أنه من العسير على أسرة دون مساعدة رجل أن تقوم بذلك ، أيا كان الأمر أخبروني من فضلكم .

- أنت بالغ اللطف حقا .

- استطعنا شراء مخزن في منتجع «ت» . وتقوم الآن بإرسال أمتعة كل موظفي البنك إلى هناك ، وبمقدوري أن أؤكد لكم أن أمتعتكم ستكون آمنة هناك ، سيكون مناسبا أي شيء ترغبون في إرساله ، بيانكم أو أي شيء .

- هذا لطف منك .

- وعلى فكرة ، من حسن الحظ أن قائد وحدة ابنكم فيما يبدو رجل طيب ، سمعت أن قائد وحدة ابني يحصل على حصة من الطعام المجلوب في يوم الزيارة ، هذه هي النوعية التي يمكن توقعها من أولئك الذين يأتون عبر البحر ، ويقولون إن القائد يعاني من المغص دائما عقب يوم الزوار .

- يا إلهي ، يا إلهي . . .

مرة أخرى أطلت ابتسامة على شفتي سونوكو ، بدت قلقة ، أخيرا أخرجت كتابا من الحقيبة التي كانت تحملها ، فشعرت بقليل من خيبة الأمل ، لكنني أبديت اهتماما بعنوان الكتاب .

تساءلت :

- ما الذي تقرأين؟

أرتني غلاف الكتاب المفتوح مبتسمة ، فيما هي ترفعه كالمروحة أمام وجهي ، كان العنوان «قصة عفريت الماء» وتبعه بين أقواس العنوان الألماني الأصلي «أوندين» .

استطعنا سماع أحدهم ينهض من المقعد خلفنا ، كانت أم سونوكو ، اعتقدت أنها تحاول الهرب من ثرثرة السيد أوهبا ، بالمضي لتهدئة ابنتها الصغرى ، التي كانت تتقافز وتعبث فوق المقعد المقابل ، لكنها كما اضتح كان لها هدف آخر ، فقد أقبلت جالبة الطفلة المزعجة وأختها الأكبر منها والمفعمة بالحيوية إلى مقعدنا قائلة :

- تعاليا ، من فضلكما دعا هؤلاء الأطفال الأشقياء ينضمون إليكما!

كانت أم سونوكو جميلة ورشيقة ، في بعض الأحيان كانت الابتسامة التي تصاحب طريقتها الهادئة في الحديث تثير الاشفاق ، على وجه التقريب . لاحت لي ابتسامتها ، و هي تتحدث هذه المرة ، بلغة الحزن والقلق ، تركت الطفلتين تجلسان معا ، وعادت إلى مقعدها ، فيما اختطفت وسونوكو نظرة متبادلة ، أخرجت دفترا صغيرا من جيب سترتي ، وانتزعت ورقة منها ، كتبت عليها بالقلم الرصاص :

«أمك تلتزم الحرص!» .

- ما هذا؟

قالتها سونوكو ، وهي تهطع برأسها في خجل ، فيما أعطيتها الورقة ، كان لشعرها رائحة شعر طفلة حينما انتهت من قراءة الكلمات المسطرة على الورقة احمرت خجلاً حتى قفاها وخفضت عينيها .

قلت :

- أليس هذا صحيحاً؟

- أوه . . إنني . . .

مرة أخرى التقت أعيننا ، وفهم أحدنا الآخر ، كان بوسعي أن أشعر أن خديّ يتفجران لهبا كذلك .

مدت الأخت الصغرى يدها قائلة :

- أختي ، ما هذا؟

في لمحة خاطفة أخفت سونوكو الورقة ، كان للأخت الأخرى من النضج ما يكفي لفهم المعنى الكامن وراء ما نفعله ، غضبت وانعكس استياؤها على ملامحها ، كان بوسع المرء أن يحدد ذلك أيضا من الطريقة المبالغ فيها التي شرعت تلوم بها أختها الصغرى .

بدلا من أن تخفض هذه الحادثة معنوياتي ومعنويات سونوكو ، جعلت الحديث أكثر يسرا بيننا تحدثت عن مدرستها ، بعض الروايات التي كانت تقرؤها ، عن أخيها ، ومن جانبي سرعان ما حملت الحديث إلى موضوعات عامة ، متخذا الخطوات الأولى في فن الإغواء ، وفيما واصلنا الحديث معا بمثل هذه الألفة ، متجاهلين الأختين الأخريين ، عادتا إلى مقاعدهما الأصلية ، بدا جليا أنهما ليستا جاسوستين قديرتين ،لكن الأم على الفور جعلتهما ، وهي تبتسم ابتسامتها القلقة ، تعودان مرة أخرى للجلوس معنا .

حينما وصلنا جميعا إلى مدينة «م» . قرب مقر وحدة كوسانو كان وقت الرقاد قد حان تقريبا .خصصت غرفة لي وللسيد أوهبا .

عندما انفردنا بنفسينا شرع السيد أوهبا في الحديث ، منطلقا على سجيته ، دون أية محاولة لإخفاء معارضته للمضي قدما في الحرب ، كنت مثل هذه الآراء المناهضة للحرب موضع تبادل هامس بين الناس بالفعل ، عند لقائهم ، حتى في ربيع 1945 ، وكنت قد سئمت سماعها ، مضى السيد أوهبا يثرثر على نحو لا يطاق بصوته الخفيض ، قائلا إن شركات الخزف الكبرى التي كانت له استثمارات بها قد شرعت بالفعل في الاستعداد للسلام ، وإنها قامت

بدعوى إصلاح ما أفسدته الحرب بالإعداد لإنتاج ضخم من الأدوات الخزفية للإستعمال المنزلي ، وإننا فيما يبدو نتقدم في الوقت الراهن بعروض لإقرار السلام على طريق الاتحاد السوفييتي .

أما عنى فقد كان ثمة ما أرغب على نحو حاد في الانفراد بنفسي للتفكير فيه . أخيرا أطفئت الأنوار ، اختفى في الظلال وجه السيد أوهبا ، الذي بدا متهدلا بصورة غريبة دون عويناته . ببطء غمرت تنهداته البريئة الفراش مرتين أو ثلاث مرات ، عندئذ أفصح تنفسه عن أنه غرق في النوم . تحسس الغطاء الجديد الذي احاط بالوسادة ، والذي احتك بخدي المتهوجين ، وغرقت في لجة التفكير .

إلى جوار الضيق القابض الذي يتهددني دائما حينما أنفرد بنفسي ، استيقظ في قلبي أكثر إيلاما ذلك الحزن ، الذي هز دعائم وجودي هذا الصباح حينما رأيت سونوكو . صرخ بأن كل كلمة نطقتها وكل فعل آتيته كان زائفا ، بعد اكتشافي أن القطع بكون شيء ما زائفا في كليته أقل إيلاما من تعذيب نفسي بالشكوك ، حول أي جوانبه يمكن أنيكون زائفا وأيها قد يكون حقيقيا ، اعتدت تدريجيا هذه الطريقة في الكشف عمدا عن زيفي أمام نفسي ، وحتى حينما رقدت غارقا في التفكير فإن قلقي العنيد حول ما أسميه بالشرط الأساسي لكون المرء إنسانا إزاء ما أدعوه بالسيكولوجية الإنسانية لم يجترح شيئا ، إلا أن قادني في دوائر الاستبطان للانهائية .

ترى أي شعور ينتابني لو كنت فتى آخر؟ أي إحساس يخالجني إذا كنت شخصا عاديا؟ تملكتني هذه الأسئلة ، عذبتنى ، قضت تماما ، وفي التو ، على القليل من السعادة الذي اعتقدت يقينا أنه في قبضتي .

رحت أحدث نفسي بأن «سلوكي» أنتهى إلى أن أصبح جزءا لا يتجزأ من طبيعتي ،لم يعد سلوكا ، بل إن معرفتي بأنني أتنكر في إهاب شخص عادى أفسدت ما كان لي اصلا من العادية ، بتعبير آخر ، فإني أتحول إلى تلك النوعية من الاشخاص الذين لا يؤمنون بشيء إلا بالزيف ، لكن إذا كان هذا صحيحا فإن شعوري بالرغبة في النظر إلى اجتذاب سونوكو لي باعتباره زيفا محضا قد لا يعدو أن يكون قناعا يخفي رغبتي الحقيقية في الاعتقاد بأنني أحبها بصورة أصيلة ، هكذا فإنني ربما أتحول الآن إلى ذلك الضرب من الأشخاص العاجز عن التصرف بما يتعارض وطبيعته الحقة ، وربما كنت أحبها حقاً . .

أوشكت أخيرا على الإغفاء ، ومثل هذه الأفكار تنسج دوائر داخل رأسي ، حينما تناهي إليّ فجأة على أجنحة هواء الليل عويل صوت يتردد منذراً دائماً ، وإن كان رغم ذلك فاتنا بشكل ما .

- أليس هذا صوت إنذار بغارة؟

قالها المصرفي توا ، فذهلت لخفة نومه .

أجبت في غموض :

- ترى أهو كذلك!

لوقت طويل واصلت صفارات الإنذار عويلها .

بما أن ساعات زيارة الفوج كانت تبدأ في الصباح الباكر ، فقد استيقظنا جميعا في الساعة السادسة .

كانت سونوكو في المغسل حينما وجدته ، بعدما تبادلنا تحية الصباح قلت :

- لقد دوت صفارات الإنذار ليلة أمس . أليس كذلك؟

قالت بوجه جاد :

- كلا .

حينما عدنا إلى غرفنا المجاورة ، حيث كان الباب الواصل بينها مفتوحاً ، قدم ردها على سؤالي مادة طيبة لاختيها لمعابثتها .

قالت الأخت الأصغر مقتدية بأختها الأخرى .

- أختي هي الوحيدة التي لم تسمع صفارات الإنذار ، يا إلهي ، كم هو أمر مضحك!

- أما أنا فاستيقظت فورا ، وسمعت أختى تصدر شخيراً عاليا .

- هذا صحيح فقط سمعتها كذلك ، كان شخيرها عاليا للغاية حتى أني بالكاد استطعت سماع صفارات الإنذار .

تضرجت سونوكو خجلا لوجودي ، فتجهمت قائلة :

- هذا هو ما تقولانه . لكنكما لا تستطيعان إثباته ، وإذا أدليتما بمثل هذه الأكاذيب فستندمان فيما بعد .

ليست لي إلا أخت واحدة ، ومنذ الطفولة كنت أتوق إلى أسرة تضج بالحياة ، فيها العديد من الشقيقات . رنت هذه المعابثة الصاخبة الضاحكة بين الأخوات في أذني كانعكاسة بالغة الروعة والأصالة لسعادة الدنيا ، وأيقظت أيضا عذابي من مهجعه .

كان إنذار ليلة الأمس ، وهو الأول من نوعه منذ أوائل مارس ، الموضوع الوحيد للحديث خلال الافطار ، أحس الجميع بالطمأنينة ، حيث أنه لم تدو إلا إشارة الإنذار ، دون أن تسمع إشارة الهجوم الفعلي على الإطلاق واستنتجوا أنه لم يقع الكثير ، أما عنى فلم يعننى الأمر على وجهيه ، حدثت نفسي بأنه حتى إذا احترقت داري ، حتى سويت بالأرض خلال غيابي ، وحتى إذا لقى أبي وأمي وأختي جميعهم مصرعهم فسيكون الأمر على ما يرام بالنسبة لي .

في ذلك الوقت لم يكن هذا تفيكرا خسيسا بشكل خاص ، ففي تلك الأيام خبت قدراتنا على التصور ، أمام الحقيقة القائلة بأن أكثر الأحداث إثارة للفزع مما يمكن أن نتصوره قد تقع بالفعل في أية لحظة كأمر عادي .

كان تصور فناء عائلة المرء عن بكرة أبيها أيسر كثيرا من تخيل أمور أصبحت الآن تنتمي إلى ماض بعيد ومستحيل ، كصف من زجاجات الخمور المستوردة مثلا في واجهة متجر جينزا ، أو مشهد أضواء النيون تتوهج في سماء الليل فوق هذا المتجر ، وكنتيجة لهذا اقتصر تصورنا على الدروب الأكثر سهولة ، وتصور كهذا يتبع درب المقاومة الأدنى لا علاقة له بتحجر القلب . أيا كانت القسوة التي يبدو بها ، فهو لا يعود أن يكون نتاجا لذهن فاتر كسول .

في مقابل الدور المأساوي الذي تقمصته خلال الليل ، أردت بمجرد مغادرتنا للفندق صباح اليوم التالي القيام بدور الفارس المرح وحمل حقيبة سونوكو ، كان ذلك أيضا مقصودا ، بهدف إحداث تأثير بمرأى من الجميع . حدثت نفسي بأنني إذا أصررت على حمل حقيبتها فمن المؤكد أنها ستعترض ، بدافع من شعورها الطبيعي بالتحفظ تجاهي ، لكن أمها وجدتها ستعتقدان أن وشائج العاطفة تربطنا بالفعل ، وستفسران ترددها باعتباره خوفا مما

ستظنانه ، وكنتيجة لذلك فإن سونوكو نفسها ستستدرج بدورها إلى الإدراك الواضح لشعور بالحميمية تجاهي ، يكفي لجعلها تخاف أمها وجدتها .

كللت حيلتي الصغيرة بالنجاح ، مكثت سونوكو إلى جواري كأنما أتاح تركها حقيبقها لديّ فرصة معقولة أمامها للقيام بذلك على الرغم من أن ابنة أوهبا كانت صديقة في مثل عمرها ، فإنها لم تبد اهتماما بها ، وراحت تتجاذب أطراف الحديث معي وحدي ، بين الفينة والأخرى استرقت النظر إليها ، وقد تملكني شعور غريب . كان صوتها من العذوبة والصفاء بحيث جعلني أشعر بالحزن بشكل ما ، حملته معها متكسرا رياح مطالع الربيع المثقلة بالغبار ، التي كانت تهب في وجوهنا مباشرة .

رفعت كتفي وأنزلته مختبرا ثقل الحقيبة . لم يكن ثقلها يبرر الشعور الذي تنامي غائرا في قلبي ، كأنه الشعور الذي يثقل الضمير المذنب لهارب من وجه العدالة .

عندما بلغنا مشارف البلدة شرعت جدة سونوكو في التذمر ، من طول المسافة ، فعاد المصرفي أدراجه إلى المحطية حيث لابد أنه قد لجأ إلى حيلة بارعة ليستأجر سيارتين ، وكانت السيارات نادرة في تلك الأيام- عاد بهما على الفور .

- إيه . . مرّ وقت طويل منذ التقائنا لآخر مرة .

صافحت كوسانو ، ففزعت كأنما أمسكت بقوقعة سرطان بحرى خشنة .

- يدك . ماذا دهاها؟

ضحك كوسانو قائلا :

- لقد دهشت . . أليس كذلك؟

كان جسمه قد اكتسب بالفعل ذلك الهزال البائس الذي يعد السمة المميزة للمجند حديثا ، مد يديه لأراهما ، وقد وضعهما جنبا إلى جنب ، كانتا مشققتين على نحو سيء ، وعلاهما قذر متجمد ، ولصق الزيت بتشققاتهما وخدوشهما وقروحهما ، حتى غدتا تحاكيان حقا قوقعة سرطان بحرى . كانتا أيضا رطبتين وباردتين .

أفزعتني يداه ، على نحو ما كان الواقع يفزعني ، شعرت برعب غريزي من هاتين اليدين . كان ما أرهبه حقا هو شيء بداخلي ، كشف هاتان اليدان الضاربتان النقاب عنه ، شيء كانت تتهماني وتدينانني من أجله . كان خوفا من ألا أستطيع أن أخفي عنهما شيئاً ، وأن الخداع بأسره سيكون بلا جدوى أمامهما . في التو اكتسبت سونوكو معنى جديدا بالنسبة لي : كانت الدرع الوحيد ، الزرد الوحيد الذي يقى ضميري المتهافت في نضاله ضد هاتين اليدين .

حدثت نفسي بأنني «يجب» أن أحبها ، سواء أكان هذا صوابا أم خطأ ، وسواء سلكت لذلك سبلاً مستقيمة أم معوجة . أصبح هذا الشعور التزاما أخلاقيا ، بالنسبة لي ، يقبع في أغوار قلبي أكثر وقرا حتى من شعوري بالخطيئة .

ببراءة ، دون أن يدري شيئا من هذا ، قال كوسانو :

- لا تحتاج إلى ليف للاستحمام حينما تكون لك يدان كهاتين تستخدمهما .

ندت تنهيدة قصيرة عن شفتى الأم . لم أستطع في وقفتى مقاومة الشعور بأني ضيف لا يستحى ، لم توجه له الدعوة ، تصادف أن رمقتنى سونوكو في هذه اللحظة ، فنكست رأسي ، راودنى شعور عبثى ، كما لو كان عليّ أن أطلب منها الغفران لأمر آتيته .

قال كوسانو وهو يدفع أمه وجدته أمامه في غمار حرجه : دعونا نخرج!

كانت كل عائلة قد جلست متحلقة على النجيل الزاوي لفناء الثكنات الكابى ، داعية الطالب الذي تربطها به صلة القرابة إلى وليمة . ويؤسفني أن أقول إنه حيثما نظرت ما كان بوسعي أن أجد جمالا في هذا المشهد .

سرعا ما صنعنا حلقتنا بدورنا ، واقتعد كوسانو وسطها متربعا . . . أقبل في نهم على بعض الحلوى غريبة الطراز ، راح يدسها في فمه ، ما كان بمقدوره إلا أن يومئ بمقلتيه فحسب حينما أراد أن يجذب انتباهي إلى صفحة السماء باتجاه طوكيو . من المنطقة المرتفعة حيث أمكنني أن أحدق عبر الحقول الزاوية إلى الحوض الذي امتدت فيه مدينة «م» ، وخلفها استطعت أن أرى بين هو شكلها التقاء آماد جيلين منخفضين ما قال كوسانو إنه السماء فوق طوكيو . كانت سحب الربيع الباكر الباردة تنشر أشكالها فوق تلك المنطقة النائية .

- ليلة أمس كانت السماء متوهجة الحمرة هناك . كانت شيئا رهيبا ، لا يمك ان تخمنوا ما إذا كانت داركم لا زالت قائمة أم لا ، أبدا لم تقع غارة من قبل جعلت السماء كلها تحمر على هذا النحو . .

بشجاعة قالت الجدة :

- أوافقك على ما تقول ، سنعزل في التو . أعدك بهذا .

ومن زنارها العتيق انتزعت دفتراً صغيراً وقلماً فضياً ، لا يتجاوز طوله خلال الأسنان ، وشرعت في كتابة شيء ما بمشقة .

عمت الكآبة القطار في رحلة العودة ، بل إن السيد أوهبا ، الذي التقيناه وفقا لموعدنا بالمحطة ، بدا شخصا مختلفا ، وأمسك عليه لسانه ، بدا الجميع وكأنما سقطوا أسرى في قبضة الشعور المعروف باسم «حب المرء للحمه ودمه» بدا الأمر كما لو أن العواطف التي يكنها المرء في أعماقه قد طفت على السطح ، وراحت تخزه بفجاجة على نحو مؤلم . كانوا قد التقوا أبناءهم ، إخوتهم ، أحفادهم ، وأظهورا قلوبهم مجردة من غلائلها ، كما هذا هو كل ما عليهم إظاره ، أما الآن فربما أدركوا فوق ذلك أن الأمر كله لا يعدو أن يكون سكبا عبثيا للدماء قام كل منهم به أمام الآخر . أما أنا فقد كانت لا تزال تطاردني رؤية هاتين اليدين المثيرتين للإشفاق ، كان الغسق قد حل على وجه التقريب ، الوقت الذي تضاء فيه المصابيح حينما يلج قطارنا المحطة في ضوء في طوكيو ، حيث كان علينا أن نستقل القطار الداخلي .

هنا للمرة الأولى وقفنا وجها لوجه مع الدليل الإيجابي على الدمار الذي أوقعته غارة ليلة الأمس . كان الممر فوق خط السكة الحديدية محتشدا بضاحيا الغارة . ، لفتهم الأغطية ، حتى ما كان المرء ليرى منهم إلا أعينهم ، أو إذا شئنا الدقة في التعبير محاجرهم ، فقد كانت تلك أعين لا ترى شيئا ، ولا تفكر بشيء . ثمة أم بدت وكأنها تعتزم أن تهدهد الطفل في حجرها إلى الأبد ، دون

أن تغير ولو بمقدار شعرة القوس الذي تؤرجح فيه بدنها جيئة وذهابا ، هناك فتاة وسنى ، منحنية على قطعة من أثاث خيزراني ، ولا تزال زهور صناعية محترقة مثبتة في شعرها .

فيما مضينا عبر الممر لم نتلق حتى نظرة لوم . كنا موضع تجاهل . محت وجودنا ذاته حقيقة أننا لم نشاركهم بؤسهم ، فبالنسبة لهم لم نكن إلا ظلالا .

على الرغم من هذا المنظر توهج شيئ ما بداخلي ، شد من أزري وعضدني استعراض البؤس الذي مرّ أمام ناظري . عايشت الاستثارة ذاتها التي تحدثها الثورة . في غمار اللهب شاهد هؤلاء البؤساء دمار جميع الأدلة على وجودهم كبشر ، وبأعينهم رأوا العلاقات الإنسانية ، ضروب الحب والبغض ، العقل والملكية جميعا يعمها اللهب ، في الوقت نفسه لم تكن ألسنة اللهيب هي ما حاربوه ، وإنما العلاقات الإنسانية ، حاربوا ضروب الحب والبغض ، حاربوا العقل والملكية . في ذلك الوقت ، شأن طاقم سفينة غارقة ، وجدوا أنفسهم في موقف يسمح فيه بقتل شخص لكي يحيا آخر ، فالرجل الذي لقى حتفه في غمار محاولته إنقاذ حبيبته لم يقتله اللهب ، وإنما اغتالته حبيبته ، ولم يكن ثمة إلا الوليد هو الذي اغتال أمه ، فيما كانت تحاول إقاذه ، وربما كان الشرط الذي واجهوه ، وحاربوا ضده هناك- شرط الحياة بالحياة- هو أكثر الشروط التي واجهتها الإنسانية شمولا وبديهية .

رأيت في وجوههم آثار ذلك الإعياء الذي ينبع من مشاهدة مأساة مدوية ، إنسكب في أعماقي نوع من الشعور الحار بالثقة في النفس ، ورغم أنه لم يدم إلا ثوان قلائل ، فقد أحسست أن لك شكوكي التي دارت حول المتطلب الأساسي للرجولة ، قد جرى كلية اكتساحها بعيدا . امتلأت نفسي بالرغبة في

الصراخ ، ربما لم أنى كنت أكثر ثراء في القدرة على فهم الذات ، لو أني أوتيت قدرا أكبر قليلا من الحكمة ، إذن لمضيت إلى فحص وثيق لذلك المتطلب ، ولا ستطعت أخيرا فهم المعنى الحقيقي لنفسي كإنسان ، بدلا من ذلك ، ويا للسخرية ، جعلني دفء نوع من الخيال الجامح ألف ذراعي حول خصر سونوكو ، للمرة الأولى . ربما كان هذا السلوك وروح الأخوة والحماية التي دفعتني إليه قد أوضحت لي بالفعل أن ما يسمى بالحب لا معنى له بالنسبة لي ، وإذا كان الأمر كذلك فإن استبصارا مفاجئاً للحقيقة هو ذاك الذي نسى سريعا مثلما أقبل .

سرنا ، وذراعي لا يزال حول خصرها ، أمام الآخرين ، عبرنا الممر الكثيب مسرعين ، ولم تنبس بكلمة .

استقللنا قطار المدينة ، بدت أنواره زاهية على نحو غريب ، كان بوسعى أن أرى سونوكو تحدق فيّ ، بشكل ما بدت عيناها ، رغم سوادهما ورقتهما ، وكأنهما تبتهلان في نزق .

حينما بلغنا قلب المدينة كان تسعون بالمائة من الركاب من ضحايا الغارة ، سادت الآن رائحة النار ، على نحو أشد وضوحا . علت أصواتهم ، تلونت بالتفاخر ، وكل منهم يقص على الآخر الأخطار التي خاض غمارها ، كانوا تجمعا غوغائيا ، متمردا ، بالمعنى الحق للكلمة ، تجمعا يكن سخطا متوهجا ، استياء متدفقا ، منتصرا ، شامخ الروح .

بلغنا محطة «س» حيث كان عليّ أن أترك الآخرين ، أعدت إلى سونوكو حقيبتها وترجلت ، فيما كنت أسير على امتداد الشوارع الغارقة في الظلام نحو

داري ، ذكرت مراراً وتكرارا بأن يديّ ما عادتا تحملان حقيبتها . أدركت أخيرا أهمية الدور الذي قامت به الحقيبة في علاقتنا ، كانت قد مثلت دور عمل صغير شاق ، وبالنسبة لي كان وقر مثل هذا العمل أمراً تمس الحاجة إليه دائما ، للحيلولة دون أن يرفع ضميري رأسه عاليا بأكثر مما ينبغي .

حينما بلغت الدار حيتني العائلة ، وكأن شيئا لم يقع ، ففي النهاية كانت طوكيو تغطي مساحة شاسعة ، حتى أن مثل هذه الغارة التي وقعت ليلة أمس لم تكن قادرة على التأثير عليها كلها .

زرت دار كوسانو بعد أيام قلائل مصطحبا بعض الكتب ، التي وعدت سونوكو بإعارتها لها . و لن تكون هناك حاجة لذكر عناوين هذه الكتب حينما أقول إنها كانت من ذلك النوع من الروايات ، التي يمكن لشاب في العشرين أن يختارها لفتاة في الثامنة عشرة . شعرت ببهجة غير مألوفة في القيام بأمر تقليدي ، تصادف أن سونوكو لم تكن بالدار ، لكنها كانت على وشك العودة ، فانتظرتها في غرفة الاستقبال .

فيما كنت انتظر ، حفلت السماء بالسحب ، هطل المطر ، ويبدو أنه طاردها فيما كانت في طريقها للدار ، فحينما هلت على غرفة الاستقبال الكابية كانت قطرات منه لا تزال تلتمع في شعرها هنا وهناك . هزت كتفيها ، جلست غارقة في الظلال ، عند أحد طرفي الأريكة الوثيرة . مرة أخرى اتسعت الابتسامة على شفتيها ، كانت ترتدي سترة قرمزية ، بدت استدارة نهديها ، وكأنها تتقافز خارجة منها في العتمة الواهنة .

ما كان أشد حيائنا في الحديث ، وما أندر كلماتنا! كانت تلك هي

الفرصة الأولى التي أتيحت لنا على الإطلاق للانفراد بأنفسنا ، بدا من الجلي أن الطريقة المنطلقة التي تحدث بها أحدنا للآخر ، في رحلة القطار القصيرة تلك ، كانت راجعة بالأساس إلى وجود الثرثار خلفنا والأختين معنا . أما اليوم فلم تبق ذرة من تلك الجرأة ، التي دفعتني قبل أيام قلائل إلى تسليمها خطابا عاطفيا من سطر واحد ، كتب على ورقة مجعدة .

غلبني أكثر من أي و قت آخر شعور بالوضاعة ، كنت شخصا لا يستطيع مقاومة التحول للجدية حينما يترك على سجيته ، لكني لم أخف من حدوث هذا أمامها . ترى هل نسيت دوري؟ هل نسيت أنني عقدت العزم على الوقوع تماما في حبها مثل أي شخص أخر؟ أيا كان الأمر لم يراودني أدنى شعور بأنني أحب هذه الفتاة البديعة ، مع ذلك فقد كنت أحس بالارتياح معها .

أقلعت السماء ، أشرقت الشمس الغاربة ، فأضاءت الحجرة ، تألقت عينا سونوكو وشفتاها ، أصابني جمالها بالاكتئاب ، جعلني أتذكر شعوري بالعجز ، وجعل هذا الشعور سونوكو تبدو شيئا سريع الزوال .

غمغمت قائلا :

- أمامنا ، فمن يدري كم يطاول عمرنا؟ افترضي أن غارة وقعت الآن . ربما تهوى قنبلة علينا مباشرة .

كانت جادة في حديثها ، راحت تعبث بثنايا تنورتها ذات المربعات الاسكتلندية ، تطويها جيئة وذهابا ، لكنها حين قالت هذا رفعت وجهها مس النور تألق الشحوب على وجنتيها ، قالت :

- أوه ، لو أن طائرة تقبل في صمت وتوجه ضربة مباشرة إلينا ونحن هنا على هذا النحو ، ألا تظن ذلك؟

لم تكن تدرك أنها بهذا تدلى باعتراف بالحب ،

- إحم . . بلى ، سيكون ذلك جميلا .

رددت بلهجة من يساير حديثا . ولا يحتمل أن تكون سونوكو قد استطاعت أن تدرك مدى التجذر العميق لردى في جذور رغبتي السرية ، إنه حوار لا يمكن أن يدور في وقت السلم إلا بين شخصين يربطهما حب عميق .

قلت متخذا نغمة رواقية في الحديث ، لاخفي شعوري بالحرج .

- قال لقد ضقت ذرعا بالموت وبالفراق الذي يدوم طول العمر ، ألا تشعرين أحيانا بأن الافتراق في أوقات كهذا أمر عادي وأن اللقاء معجزة . . . وأن كوننا قادرين على أن نلتقي ونتحدث لبعض الوقت هكذا هو أمر يرقي ، حينما تفكرين فيه ، إلى مرتبة اجتراح المعجزة .

- نعم ، أنا كذلك . . .

شرعت في الحديث ببعض التردد ، ثم مظيت قائلة بصفاء عذب ملهوف .

- ولكن الآن وفيما كنت اعتقد أننا بدأنا نلتقى بالفعل فاننا في طريقنا إلى الافتراق ، فجدتي على عجلة من أمرها ، فيما يتعلق بالرحيل ، وما أن رجعنا إلى الدار في ذلك اليوم حتى أرسلت برقية إلى خالتي في قرية «ن» بمقاطعة «ن» تطلب منها العثور على دار لنا وصباح اليوم اتصلت بنا خالتي

هاتفيا وقالت إنه ليست هناك دور متاحة على الإطلاق أيا كان مدى بحث المرء ، لذا دعتنا إلى الإقامة في دارها ، وقالت إنها ستكون سعيدة باستقبالنا ، لأننا سنجعل دارها أكثر حياة ، وقد حزمت جدتي رأيها في الحال ، وقالت إننا سنذهب هناك في غضون يومين أو ثلاثة أيام .

لم أستطع طرح رد عابر . كان الألم الذي شعرت به في قلبي نافذا للغاية ، حتى أنه أثار دهشتي . كان الشعور بالارتياح الذي راودني حيال سونوكو قد أثار فيّ وهما ، قاتناعا بأن أيامنا ستقضى في لقاء ، وأن كل شيء سيبقى على نحو ما هو عليه الآن وبتعبير أكثر عمقا كان وهما مزدوجا ، أعلنت الكلمات التي أصدرت بها حكم الفراق علينا عبث لقائنا الحالي ، كشفت النقاب عن أن شعوري الراهن لم يكن إلا سعادة عابرة ، وفي الوقت الذي قضت فيه على التوهم الصبياني حول الاعتقاد بأن ذلك سيدوم للأبد ، فقد فتحت عيني على الحقيقة القائلة بأنه حتى ولو لم يكن ثمة فراق فإنه ما من علاقة بين فتى وفتاة يمكن أن تظل على نحو ما كنت تماما .

كانت يقظة مؤلمة ، ترى لماذا ترتبك الأمور على نحو ما هي الآن؟ مرة أخرى تراكضت الأسئلة . التي طرحتها على نفسي مرات لا حصر لها منذ طفولتي ، متصاعدة نحو شفتي ، لماذا يلقى على كاهلنا جميعا واجب القضاء على كل شيء ، تغيير كل شيء ، جعل كل شيء زائلا؟ أهذا الواجب الكئيب هو ما يدعوه العالم بالحياة؟ أم تراني وحدى الذي تبدو له هذه المهمة واجبا؟ لم يكن هناك على الأقل شك في أنني وحدى في النظر إلى الواجب باعتباره وقرا ثقيلاً .

تحدث أخيراً :

- هكذا فأنتم راحلون . . ولكن طبعا حتى إذا كنت هنا فإنني سأضطر إلى المضى بعيدا في خلال فترة قصيرة .

- إلى أين تمضى؟

- لقد قرروا إرسالنا للإقامة والعمل في مصنع ما مرة أخرى ، اعتبارا من هذا الشهر أو خلال أبريل .

- لكن مصنع . . . سيكون ذلك خطرا ، مع وجود الغارات وكل هذا .

رددت في يأس :

- نعم سيكون خطرا .

سارعت بالرحيل ما وسعنى ذلك . . .

طوال اليوم التالي لفنى مزاج منبسط ، ولده الظن بأني أغنى بصوت عال ، منحيا موجز القوانين المثير للغيان بعيدا .

دامت هذه الحالة المزاجية المتفائلة الغريبة طوال اليوم ، فجأة أيقظني دوى صفارات الإنذار المتردد بعيدا ، على نطاق واسع ، في منتصف الليل ، هرع أهل الدار إلى الملجأ متكدرين ، لكن الطائرات لم تظهر ، وسرعان ما دوت صفارة الأمان ، كنت آخر من غادر الملجأ ، إذ غفوت هناك ، صعدت وخوذتي ومزادتي تتدليان على كاهلي .

كان شتاء عام 1945 ثقيل الوطأة ، ورغم أن الربيع قد أطل بالفعل ، مقبلا بخطوات مختلسة كالفهد ، فقد صمت الشتاء كأنه قفص حديدي حوله ، يسد عليه الطريق بعناد كئيب .

من خلال أوراق شجرة دائمة الخضرة لمحت عيناي اليقظتان نجوما عديدة ، بدت متناثرة في دفء . اختلط هواء الليل الحاد بأنفاسي ، فجأة غلبتني فكرة أنني أحب سونوكو ، وأن عالما لا أحيا فيه معها لا يعادل شروى نقير بالنسبة لي ، حدثني شيء ما في أعماقي بأنه إذا كان بمقدوري نسيانها فمن الخير لي أن أقول بذلك على الفور ، وكأنما كان جاثما يتربص ، غمرني مجددا ذلك الحزن الذي قوض أسس وجدوى ، على نحو ما حدث في ذلك اليوم الذي شاهدت فيه سونوكو تقبل هابطة الدرج نحو رصيف المحطة .

كان حزنا لا يطاق ، فلطمت الأرض بقدمي .

ورغم ذلك صمدت يوما آخر .

ثم لم أطق صبرا ، فذهبت لرؤية سونوكو ، كان القائمون بحزم الأغراض عاكفين على عملهم خارج باب الدار مباشرة ، هناك على الحصباء كانوا يلفون حبالا ، جدلت من القش ، حول شيء يشبه خزانة مستطيلة غلفت بحصيرة من القش كذلك ، أفعمني المشهد بالقلق .

أقبلت الجدة لملاقاتي في الدهليز . استطعت أن ألمح خلفها أكواما من الأغراض ، التي حزمت بالفعل ، وكانت بانتظار نقلها ، كان المدخل مليئا ببقايا القش ، وحينما لاحظت التعبير الذي شابه ارتباك خفيف على ملامح الجدة قررت مغادرة الدار في الحال ، دون مقابلة سونوكو .

مثل فتى أرسلته مكتبة لتسليم بعض الكتب ، ، مددت يدي بالروايات الخفيفة العديدة التي احضرتها ، قائلا :

- أرجو إعطاء هذه الكتب للآنسة سونوكو .

قالت الجدة دون أن يند عنها ما يشير إلى اعتزامها مناداة سونوكو .

- شكرا جزيلا لكل ما فعلته ، لقد قررنا الرحيل إلى القرية «ن» مساء غد ، وتم إعداد كل شيء بقليل من العناء ، وهكذا فإن بمقدورنا الرحيل قبل الوقت الذي حددناه ، وقد استأجر السيد «ت» . هذه الدار لاستخدامها كمهجع لموظفيه . حقا إن الوداع لأمر محزن ، وقد سعد الأطفال جميعا بمعرفتك ، فارجو أن تزورنا في قرية «ن» . كذلك لسوف نكتب لك حينما نستقر هناك ، فتعال لزيارتنا!

كان سماع أسلوب الجدة الدقيق الودود في الحديث أمراً سارا ، لكن كلماتها ما كانت- مثل طاقم أسنانها ، بالغ الدقة في التصميم- تتجاوز صفا من مادة غير عضوية .

قلت دون أن أتمكن من إرغام نفسي على نطق اسم سونوكو .

- آمل أن تكونوا جميعا في خير حال .

عندئذ ظهرت سونوكو في القاعة عند نهاية الدرج ، وكأنما استحضرها ترددي ، كانت تحمل في إحدى يديها صندوقا كبيرا للقبعات من الورق المقوى ، وكتبا عديدة في اليد الأخرى ، توهج شعرها في النور ، الذي كان يلج القاعة من نافذة مرتفعة . حينما رأتني صاحت على نحو فاجأ الجدة :

- إنتظر لحظة من فضلك!

عادت مرتقية الدرج سريعا ، وصوت خطواتها يدوي صاخبا . أبهجني

مرأى دهشة الجدة ، حيث جعلني أدرك مدى عمق حب سونوكو لي ، اعتذرت السيدة العجوز ، قائلة إن البيت بأسره في حالة من الفوضى ، وإنه ليست هناك غرفة صالحة لاستقبالي فيها . ثم انصرفت في انشغال . فاحتجبت بالداخل .

سرعان ما هلت سونوكو هابطة الدرج ، وضعت قدميها في نعليها صامتة ، فيما وقفت متحجرا في أحد أركان الدهليز ، ثم وقفت وقالت إنها ستصحبني حتى المحطة ، ثم شيء حركني في طبقة صوتها العالية بصورة آمرة ، على الرغم من أنني واصلت التحديق فيها مديرا القبعة التي تشكل جزاء من الرداء الرسمي الذي ألبسه بين يدي مرارا وتكرارا بإيماءة ساذجة ، إلا أنه في أعماق فؤادي كان ثمة شعور بأن كل شيء يبدو كما لو كان قد تجمد فجأة ، خرجنا من الباب جنبا إلى جنب ، سرنا في صمت عبر الممر الحصبائي نحو البوابة .

فجأة توقفت سونوكو لتعيد احكام رباط حذائها ، بدت وكأنها تستغرق وقتا وطويلا ، على نحو غريب في هذا ، لذا سرت نحو البوابة ، وانتظرت هناك محدقا في الشارع . لم أدرك أنها كانت تريدني أن أسبقها قليلا ، واستخدمت هذا الأسلوب الفائق النابع من ذهن فتاة في الثامنة عشرة لتحقيق هذا الهدف .

على حين غرة ، جذبت يدها من خلفي جذبا رقيقا كم ردائي الرسمي ، شعرت بصدمة ، كما لو أن عربة أصابتني خلال سيري شارد الذهن .

- من فضلك . . . هذا . . .

مس راحتي كن مظروف صلب ، أجنبي الطراز . سارعت بإطباق يدي عليه ، حتى أني أوشكت على سحقه تماما كما قد يخنق المرء عصفورا وليدا . بشكل ما لم أستطع تصديق حواسي ، لدى شعوري بثقل المظروف في يدي .

لكنه كـان هناك ، مظروف من النوع الذي تؤثرة الطالبـات ، تحكم قـبـضـتى الإمساك به . أغمضت عيني ، كما لو كان المظروف شيئا ينبغي ألا تقع عليه عينا المرء . .

همست بصوت خافت ومختنق معا ، كأنما تشعر بوخز ما :

- ليس الآن . . . إقرأه بعد ما تعود للدار .

تساءلت :

- إلى أين أرسل الرد؟

- لقـد كـتـبت العنوان ، إنه بالداخل ،على قـرية «ن» ، أكـتـب لي على هناك .

من الطريف أن الفراق أصبح فجأة شيئاً بهيجاً بالنسبة لي ، كان يحاكي ذلك السرور الذي يشعر به المرء في تلك اللحظة من لعبة «الاستغماية» حينما تشرع الضحية في العدو ، ويعدو الجميع لكي يختفوا ، كل منهم في الاتجاه الذي يروقه ، كانت لدى قدرة غريبة على الاستمتاع بكل شيء على هذا النحو ، وبسبب هذه الموهبة المرتكسة كان جبني غالبا ما يساء فهمه- حتى من وجهة نظري- ويفسر على أنه شجاعة .

افترقنا عند بوابة حجز البطاقات بالمحطة ، حتى دون أن نتصافح .

شعرت بنشوة ، لاستلامي الخطاب العاطفي الأول في حياتي . لم استطع الانتظار حتى وصولي إلى الدار لمطالعته ، فتحت المظروف هناك في القطار ، رغم كل العيون المحدقة . فيما كنت أقوم بذلك تناثرت المحتويات جميعها ، كان ثمة

العديد من البطاقات المظللة ، وحزمة من البطاقات البريدية المستوردة ، تلك التي يبدو أنها مصدر ابتهاج لطالبات مدارس الإرساليات ، وقد زينت برسم والت ديزني لهود الأحمر والذنب ، وتحت الرسم كتبت رسالتها القصيرة بحروف رشيقة عكست الجهد الذي بذل في إبداعها :

«غمرني العرفان حقا لرقتك في إعارتي الكتب ، فكشرا لك ، وقد تمكنت من قراءتها باهتمام بالغ العمق ، وإني لأرجو من كل قلبي أنك ستكون على ما يرام ، حتى خلال الغارات ، حينما أصل إلى مقصدى ، وأستقر ، سأكتب لك مجددا ، وعنواني هناك مكتوب أسفل هذا الخطاب ، والمرفقات هي أشياء متواضعة ، لكني أرجوك أن تقبلها إشعارا بعرفاني . . .» .

يا له من خطاب غرامي بديع! لقد اخترق فقاعة نشوتي ، عمني شحوب يحاكي الموتى ، انفجرت ضاحكا . ساءلت نفسي : ترى من سيرد على خطاب كهذا ، سيكون ذلك أمرا سخيفا تماما كقبول خطاب شكر مطبوع .

غير أنني ، منذ البداية شعرت بالرغبة في أن أرسل رداً ، والآن خلال الدقائق الثلاثين أو الأربعين التي بقيت على وصولي إلى الدار تصاعدت هذه الرغبة تدريجيا ، وهبت للدفاع عن «حالة النشوة» الأولى التي مرت بي حدثت نفسي ، على الفور ، بأن التدريب الذي تلقته في الدارس ليس من النوع الذي يكسبها الكفاءة في كتابة الخطابات العاطفية ، لأنه من الطبيعي أن تغل يدها جميع ضروب الشكوك والتردد والخجل ، حينما تكتب خطابها العاطفي الأول لفتى ، ولأن كل حركات قامت بها هذه الأصيل كشفت الستار عن رواية أكثر صدقا من أية كلمة في هذا الخطاب الخاوي .

عند وصولي إلى الدار استولى عليّ الغضب من مصدر آخر من جديد صببت جام هذا الغضب على موجز القوانين ، فضربت به عرض حائط حجرتي . رحت أكيل اللوم لنفسي ، أي كسول أنت ، حينما تقف وجها لوجه أمام فتاة الثامنة عشرة تنتظر في اشتهاء حتى تقع في حبك . لماذا لم تكن أنت البادي بالمبادرة؟ إعلم أنك تتردد بسبب قلقك الغريب ذاك الذي ينبع من حيث لا تدري ، ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن زرتها مرة أخرى؟ أمعن التفكير! حينما كنت في الرابعة عشرة من عمرك كنت فتى كسائر الفتيان وحتى في السادسة عشرة كنت تسير معهم قدما ، على وجه العموم ، ولكن ماذا عن الوقت الحاضر وأنت في العشرين ، قال صديقك ذاك إنك ستلقى حتفك في سن التاسعة عشرة ،لكن نبوءته لم تتحقق ، عندئذ فقدت حتى رغبتك في الموت بالميدان ، الآن وأنت في العشرين تفقد صوابك في غمار حب صبياني لفتاة في الثامنة عشرة من عمرها ، لا تعرف شيئا على الإطلاق . أوف! أي تقدم هذا الذي أحرزت! في العشرين تعتزم تبادل الخطابات العاطفية للمرة الأولى . أتراك لم تخطئ في عد سنوات عمرك؟ أليس صحيحا كذلك أنك لم تقبل فتاة بعد؟ أي نوع يثير الأسى من الكائنات أنت!

عندئذ سخر مني صوت اخر مختلف ، خفي ، وملحاح . كان هذا الصوت مفعما بما يوشك أن يكون إخلاصا محموما ، وهو شعور إنساني ، لم يسبق أن عايشته أبدا . أمطرني بوابل من الأسئلة في تتابع سريع أهو حب ذلك الذي تستشعره؟ إذا كان كذلك . فليكن! ولكن أتشعر برغبة في النساء؟ ألست تخدع نفسك حينما تقول إنك لم تشعر أبدا نحوها وحدها «رغبة شهوانية»؟ ألست تحاول أن تخفي عن نفسك حقيقة أنك لم تشعر أبدا بأية «رغبة شهونية» نحو

أية امرأة؟ أي حق لك بحق الجحيم في استخدام كلمة «شهوانية»؟ هل حدث أبدا أن ساورتك أدنى رغبة في أن ترى امرأة عارية؟ هل تخيلت سونوكو عارية مرة واحدة؟ من المحقق أنك بموهبتك الخاصة في القيام بالقياسات المنطقية قد خمنت شيئا بالغ الوضوح، من قبيل الحقيقة القائلة بأن الفتى في عمرك لا يمكنه أبدا أن يحدق في فتاة شابة دون أن يتخيل كيف تبدو وهي عارية، سل نفسك بإخلاص لماذا أحدثك بهذا! إمض قدما وستخدم قياساتك المنطقية، سيتعين عليك أن تغير إحدى التفصيلات الصغيرة فحسب لتفهم ما يشعر به الفتية الآخرون. ألم تنغمس ليلة أمس فحسب في عادتك الصغيرة قبل أن تخلد للنوم؟ سمها شيئاً من قبيل الصلاة إذا أردت. قل إنها لا تعدو أن تكون طقسا وقتيا يؤديه الجميع، ليكن! فحتى البديل ليس بالشيء المقبض حينما تعتاده، وخاصة عندما تجد أنه جرعة منومة فعالة بصورة فورية، ولكن تذكر أن صورة سونوكو لم تكن هي التي ثارت في ذهنك ليلة أمس، وأيا كان تصورك فقد كان غريبا وغير طبيعي بما يكفي حتى لإدهاشي، أنا الذي اعتدت مراقبتك، قابعا إلى جوارك.

خلال النهار تجوب الشوارع، ولا ترى إلا البحارة والجنود، إنهم يمثلون الشاب بالنسبة لك، العمر الذي تؤثره على وجه الدقة، لوحت الشمس بشرتهم جيدا، شفاه وحشية، وما من أثر لإعمال الذهن يعلق بهم. حينما ترى أحدهم تقيسه بعينيك. يبدو أنك تعتزم أن تغدو حرفيا، من نوعية صناع الثبات، حينما تتخرج في كلية الحقوق. . أترى الأمر كذلك؟ مولع أنت إلى حد كبير بالجسم اللدن لفتى في حوالي العشرين من العمر، جسم يحاكي جسم شبل، ألست كذلك؟ ترى كم فتى من هذه النوعية لم تجردهم بذهنك

من ثيابهم بالأمس؟ إن خيالك مثل إحدى تلك الصوبات التي تستخدم لتجميع أنواع النباتات ، بداخله تجمع الأجساد العارية لكل أولئك الفتية الصغار ، الذين رأيتهم خلال النهار ، وحينما تعود إلى الدار ، وتأوى إلى الفراش ، تختار من بين مجموعتك الضحية الطقوسية لحفلك الوثنى ، فتنحى جانبا ضحية تستأثر بخيالك الخاص . وما يعقب ذلك مثير للإشمئزاز تماما .

تقتاد ضحيتك إلى نصب غريب سداسي الشكل ، فيما تخفى حبلا وراءك تنتشر ذراعيه فوق مستوى رأسه ، تشدد على أن يبدى الكثير من المقاومة ، أن يصرخ عاليا ، تدلى بوصف مفصل للضحية لموته الوشيك ، وذلك كله فيما تتلاعب ابتسامة غريبة بريئة على شفتيك ، تستل من جيبك سكينا حادة ، تدنو منه ضاغطا ، تداعب جلد صدره المشدود بطرف السكين بخفة ورقة ، يطلق صرخة يائسة ، يثنى جسده في محاولة لتجنب السكين ، يصطخب نفسه برعب لاهث ، ترتجف ساقاه ، تصطك ركبتاه ببطء تغرس السكين في جانب صدره (ذلك هو الأمر الفاضح الذي تأتيه) يقوس الضحية جسده ، مطلقا صرخة حادة ، وحيدة ، مثيرة للشفقة ، تتشنج العضلات حول الجرح ، لقد دفنت السكين في اللحم المتموج بهدوء كما لو كانت تدفع في غمد . . . تندفع نافورة من الدم ، تنسكب ، تمضى متدفقة إلى أسفل ، نحو فخذيه الناعمين .

إن البهجة التي تعرفها في هذه اللحظة هي شعور إنساني أصيل ، أقول ذلك لأنك في هذه اللحظة بالتحديد تمتلك ناصية العادية ، التي هي هاجسك ، وأيا كان شكل نزوتك فإنك تستثار جنسيا ، حتى أغوار وجودك البدني ، مثل هذه الاستثارة عادية تماما ، لا تختلف مثقال ذرة عن استثارة

الرجال الآخرين . يرتعد ذهنك تحت اندفاع استثارة بدائية غامضة ، تنبعث في صدرك البهجة العميقة ، التي استشعرها إنسان متوحش ، تلتمع عيناك ، يلتهب الدم في جسدك كله ، تفيض بذلك التجلي للحياة ، الذي عبدته القبائل الوحشية ، وحتى بعد القذف تظل ترنيمة ابتهاج محمومة ووحشية تتردد في جسدك ، لا يهاجمك ذلك الأسى الذي يعقب مضاجعة امرأة ، تتألق بوحدة فاسقة ، لبرهة قصيرة تطفو في ذاكرة نهر عتيق هائل ، ربما من خلال صدفة ما أحكمت ذاكرة أعمق الانفعالات في قوة حياة أسلافك المتوحشين قبضتها تماما على وظائفك ومسراتك الجنسية ، لكنك غارق في الانشغال بادعائك الملاحظة . ألست كذلك؟ ليس بمقدوري أن أفهم لم تجد أنت يا من بوسعك على هذا النحو أحيانا أن تستشعر البهجة العميقة للوجود الإنساني أن من الضروري أن تردد مثل هذا الهراء عن الحب والروح .

بالمناسبة ما رأيك في هذه الفكرة؟ ماذا لو أنه تعين عليك أن تقدم رائعتك المؤلفة من أطروحة دكتوراه أمام سونوكو؟ إنها أطروحة عميقة عنوانها «حول العلاقات الوظيفية بين استدارات جذع فتى شاب ودرجة تدفق الدم» . باختصار فإن الجذع الذي تختاره لحلم يقظتك هو جسد ناعم ، لين ، متماسك ، وفوق كل شيء جسد شاب ، ينساب عليه الدم ، متتبعا أدق الاستدارات ، فيما هو يشخب من جرح السكين . أليس ذلك صحيحا؟ ألا تختار الجسد الذي يعطي أجمل مسيل للدم وأقربه للطبيعة مسيل يحاكي ذلك الذي يشقه جدول متماوج ، يتدفق عبر سهل ، أو يماثل الخضرة في قطاع عرضي في شجرة عتيقة؟ أبوسعك أن تنكر ذلك؟

لم يكن الإنكار قمدوري .

مع ذلك ، فإن قدراتي على تحليل الذات كانت قد بنيت على نحو يتحدى التحديد ، كإحدى تلك الحلقات التي تصنع بلف قطعة من الورق مرة واحدة ثم لصق الطرفين معا . إن ما يبدو الوجه الداخلي هو الوجه الخارجي ، وما يبدو الوجه الخارجي هو الوجه الداخلي ، وعلى الرغم من أن تحليلي الذاتي فيما تلا ذلك من أعوام قد تجاوز حافة الحلقة بمزيد من البطء ، فإنه في العشرين لم يكن يصنع شيئا إلا الدوران ، مغمض العينين ، عبر مدار انفعالاتي ، تستحثه الاستثارة النابعة من شهود المراحل الأخيرة الفاجعة للحرب ،غدت سرعة الدورات كافية لجعلي أفقد كل شعور بالتوازن ، لم يكن ثمة وقت للتأمل الدقيق للأسباب والنتائج ، لا وقت لأي من ضروب التناقض أو الربط ، هكذا مضت التناقضات تدور عبر المدار على نحو ما كنت مرتطمة ببعضها بسرعة ، بحيث أنه ما من عين استطاعت أن تدركها .

بعد ساعة تقريبا من التفكير على هذا النحو ، كانت الفكرة الوحيدة التي بقيت عالقة بذهني هي فكرة تدبيج رد بارع على خطاب سونوكو .

في هذا الوقت أزهرت أشجار الكرز ، غير أنه بدا أن أحدا ليس لديه الوقت للتمتع برؤية الأزهار ، وربما كان طلاب لكيتي هم وحدهم في طوكيو الذين أتيحت لهم فرصة رؤية براعم الكرز ، وهي تزهر في طريق عودتي إلى الدار من الجامعة ، سواء أكنت وحيدا أم بصحبة اثنين أو ثلاثة من أصدقائي ، كنت أسير غالبا ، متمهلاً ، تحت أشجار الكرز ، على ضفاف بحيرة سى .

بدت البراعم جميلة ، على نحو غير مألوف في ذلك العام ، لم تكن هناك ستائر مخططة باللونين الأحمر القانى والأبيض ، والتي يشيع وضعها بين الأشجار المزدهرة دونما استثناء ، حتى أعتقد المرء في النهاية أنها جزء من مظهر

الكرز ، لم تكن ثمة أكشاك شاي صاخبة ، ولا حشود من متأملي الزهور في أيام العطلات ، ولا من يرفع الصوت عاليا مناديا على بالونات الأطفال ، أو يلهو بطواحين الهواء . لم يكن ثمة إلا أشجار الكرز تزدهر وسط الأشجار دائمة الخضرة ، دونما انقطاع ، باعثة في المرء الشعور بأنه يرى الأجسام العارية للبراعم ، أبدا لم تبد هبة الطبيعة السخية وإسرافها العبثي بهذا الجمال ، على نحو ما لاحت في ذلك الربيع . ساورني شك مزعج في أن الطبيعة أقبلت لتسترد الأرض لذاتها ، يقينا كان ثمة شيء غير عادي في ازدهار هذا الربيع . صفرة براعم اللفت ، خضرة النجيل الحديث النبت ، الجذوع السوداء الناضرة لأشجار الكرز ، غطاء البراعم الثقيلة الذي ناءت الأغصان بحمله . . إنعكس هذا كله في عيني ألوانا نابضة بالحياة ، تشوبها الضغينة ، بدت لي حريقا سداه الألوان .

ذات يوم كنا نسير مجموعة كبيرة من الطلاب على النجيل بين صفوف أشجار الكرز وضفاف البحيرة ، متجادلين حول نظرية قانونية عبثية خلال مسيرتنا . كنت في ذلك الوقت مولعا بالسخرية من محاضرات دكتور «ى» في القانون الدولي ، ففي قلب الغارات كان هذا الأستاذ الجامعي يواصل بسعة أفق محاضراته ، التي لا نهاية لها فيما يبدو ، حول عصبة الأمم . أحسست وكأنني أصغى إلى محاضرات حول المهجونغ[1] أو الشطرنج السلام! السلام! . . . لم أستطع ان أصدق أن هذا الصوت الذي يحاكي الجرس والذي يقرع بلا انتهاء في البعيد كان أي شيء أخر غير طنين في أذني .

- أليس الأمر متعلق بالطبيعة المطلقة بالادعاءات الحقيقية بالملكية؟

1- المهجونج: لعبة شائعة في اليابان، غير أنها صينية الأصل (هـ.م).

قال ذلك (أ) مواصلا مناقشتنا . ورغم أن هذا الطالب الريفي كان يبدو طويلا ضخم البنية ، ويتمتع ببشرة مشربة بالعافية ، إلا أن حالة تسيل في الرئة متقدمة أنقذته من التجنيد .

- دعونا نتخلص من هذا الحديث الأبله!

قاطعه «ب» . وكان طالبا شاحب الوجه ، وكما يمكن القول بنظرة واحدة فإنه كان يعاني من السل .

قلت ضاحكا ، في سخرية :

- في السماء طائرات العدو ، وعلى الأرض محاضرات القانون . . إحم ، أهذا ما تعنونه بقولكم المجد على الأعالى وعلى الأرض السلام؟

كنت أنفرد بأنني لست مصابا بمرض صدري حقيقي ، وبدلا من ذلك تظاهرت بأنني مصاب بمرض في القلب ، ففي تلك الأيام كان على المرء أن يتقلد إما سمة الحرب أو الأمراض .

فجأة أوقفنا سماع صوت أحدهم يخطو فوق النجيل ، تحت أشجار الكرز قريبا منا . بدا ذلك الشخص وكأنه فزع بدوره لاقترابنا . كان شابا يرتدي ملابس عمل ملطخة . وينتعل قبقابين خشبين ، وما كان المرء ليدري إنه شاب رلا من لون شعره القصير الذي أطيل من تحت قلنسوته الميدانية ، كانت بشرته العكرة ، ولحيته الخفيفة متناثرة الشعر ويديه وقدميه الملطخة بالزيتة وعنقه الكابى اللون تشير جميعا إلى إعياء بائس ، لا يتفق وسنوات عمره .

وراءه ، وفي غموض ، وقفت فتاة منكسة الرأس ، يبدو عليها الضيق ،

كان شعرها ممشطا للخلف بشكل عاجل وحاد ، وترتيدي القميص الكاكي الذائع الانتشار . كان الشيء الوحيد في هذا الثنائي الذي يبدو على نحو عجيب نظيفا ومبهجا وجديدا هو سراويل العمل التي ترتديها الفتاة .

كان بمقدور المرء أن يخمن في يسر أنهما من العمال المجندين إلزاميا في مصنع واحد ، وأنهما التقيا هنا في موعد عاطفي متهربين قليلا من وقر عملهما بالمصنع ليتمتعا بالتريض وسط الزهور . حينما سمعنا انزعجا ، ربما لأنهما ظنا أننا قد نكون من الشرطة .

نظرا إلينا باستياء ، وهما يبتعدان عنا . لم نشعر عقب ذلك بالرغبة في الثرثرة .

قبل أن ينتهي موسم أزدهار الكرز ، أوقفت كلية الحقوق المحاضرات مرة أخرى ، وأرسلنا في إطار حشد الطلاب إلى ترسانة بحرية على بعد أميال قليلة من خليج سي . في الوقت نفسه رحلت أمي وأختي وأخي إلى دار جدي لأمي ، في مزرعة صغيرة قرب ضواحي طوكيو ، أما خادم االدار ، وهو طالب في الوقت نفسه بالمدرسة الوسطى ، فكان رغم ضآلة حجمه يتصرف على نحو يفوق سنوات عمره ، فقد مكث في دارنا بطوكيو ليعنى بأبي ، وكان في الأيام التي لا يقدم فيها الأرز يسحق حبات الصويا المغلية في هاوون ، يعد عصيدة تبدو كالقيء لنفسه ولأبي ، وكان كذلك يعكف خلسة على استنفاد مخزوننا الضئيل من الخضر المخللة حينما يغادر أبي الدار .

كانت الحياة في الترسانة البحرية هادئة ، أسند إليّ عمل لبعض الوقت في المكتبة ، أما باقي الوقت فكنت أقضيه مع مفرزة مكلفة بالحفر ، تتألف من

عمال صغار السن من فورموزا ، عاكفين على حفر نفق متعدد الأطراف لإخلاء مصنع قطع الغيار . كان أولئك الشياطين الصغار الذين لا تتجاوز أعمارهم الثانية عشرة أو الثالثة عشرة هم رفاقي الوحيدين ، كانوا يعلمونني لغتهم ، وبالمقابل كنت أحكي لهم قصصا خرافية . تملكهم اليقين من أن آلهة فورموزا ستنقذهم من الغارات ، وتردهم ذات يوم سالمين إلى أرضهم ، كانت شهيتهم للطعام هائلة إلى الحد الذي دفعهم لتجاوز القواعد الأخلاقية ، فقد اختلس فتى أريب منهم بعض الأرز والخضراوات تحت سمع وبصر حرس المطبخ ، وسرعان ما حولوه إلى أرز مقلي بطهية في كمية وفيرة من زيت الماكينة ، وقد رفضت شهود هذه الوليمة التي بدت لي مفعمة بنكهة التروس .

خلال أقل من شهر واحد ، شقت مراسلتي لسونوكو طريقها نحو اكتساب خصوصية حميمة . فقد اتسمت خطاباتي بجرأة لا تعرف التحفظ ، وذات يوم عدت إلى مكتبي بالترسانة بعد إطلاق صفارة الأمان من غارة ، فوجدت خطابا من سونوكو في انتظاري . ارتعدت يداى فيما كنت أطالعه ، شعرت كما لو كنت محموما قليلا ، كان خطابها يضم سطرا ، رحت أكرره مرات عديدة بانفاس لاهثة .

« . . . أشتاق إليك . . .» .

كان الغياب قد شجعني . دفعني البعد للزعم بامتلاكي ناصية «العادية» وبتعبير آخر قبلت «العادية» كموظف مؤقت في مؤسسة جسدي . إن الشخص الذي يفصله عن المرء الزمان والمكان يكتسب سمة مجردة ، ربما كان هذا هو السبب في أن الاخلاص الأعمى الذي شعرت به نحو سونوكو ورغباتي الحاضرة أبدا في اللحم البشري قد اختلطت في داخلي ، فغدت كتلة واحدة

متجانسة وجمدتني بإزاء كل لحظة متتابعة من الزمن ، كإنسان يخلو من التناقض مع نفسه .

حرا كنت ، غدت الحياة اليومية شيئا يمج سعادة لا توصف . سرت شائعة تقول إن العدو قد يقوم بعملية إبرار في خليج «سى» ، قريبا وإن المنطقة التي تقع فيها الترسانة ستقتحتم ، ألفيت نفسي مرة أخرى ، وبصورة تفوق المرات السابقة ، منغرسا بعمق في الرغبة في الموت ، لقد اكتشفت في الموت «هدف حياتي» الحق .

ذات يوم من أيام السبت في منتصف أبريل ، حصلت على تصريح بأول عطلة تمنح لي منذ وقت طويل ، مضيت أولا إلى الدار في طوكيو ، معتزما الحصول على بعض الكتب من مكتبتي لمطالعتها بالترسانة ، على أن أتوجه على الفور إلى دار جدي في الضواحي لقضاء الليل هناك ، حيث كانت أمي والآخرون يقيمون بها ، ولكن خلال الطريق ، وفيما القطار يشرع في الانطلاق ويتوقف استجابة لمؤشرات الغارات ، أحكم برد مفاجئ قبضته عليّ شعرت بإعياء حاد مصحوب بدوار عنيف ينتشر عبر جسدي ، ومن التجربة المتكررة أدركت أن تلك أعراض التهاب اللوزتين . بمجرد وصولي إلى الدار في طوكيو ، جعلت الخادم ينشر الأغطية ، ودلفت على الفور إلى الفراش .

قبل مرور وقت طويل ، ارتفع رنين مفعم بالحيوية لصوت امرأة يتناهى من الطابق الأرضي ، ويرتطم بجبيني المحموم ، وسمعت شخصا يرقى الدرج ، ويقبل عبر الممشى ، فتحت عيني قليلا ، فرأيت الجزء الأسفل من كيمونو فضفاض .

- . . . ما هذا؟ يا لك من شخص كسول!

قلت :

- أوه ، مرحبا شاكو!

- ماذا تعنى بقولك «أو ، مرحبا» فقط بينما لم نتقابل منذ خمس سنوات تقريباً؟

كانت ابنة عائلة تربطها بنا قرابة بعيدة ، اسمها شيكو وقد حرف إلى شاكو ، وكان هذا ما ندعوها به ، كانت تصغرني بخمس سنوات ، والمرة الأخيرة التي قابلتها فيها كانت خلال حفل زفافها ، لكن زوجها لقى مصرعه بالجبهة خلال العام الماضي ، وشرع الناس في التقول عليها ، ذاهبين إلى أنها أصبحت أرملة طروبا ، على نحو غِريب ، الآن بدا جليا كم كان ذلك التقول في موضعه ، وفي مواجهة مثل هذه الحيوية المرحة ما كان بوسعي التقدم بالتعازي المألوفة ، التزمت صمتا يغمره الشعور بالصدمة ، محدثا نفسي بأنه كان من الأفضل لها أن تنزع من شعرها الزهور البيضاء الصناعية التي غرستها فيه .

قالت متحدثة عن أبي باسم التدليل لاسمه تاتسو :

- جئت اليوم لمقابلة تاتشان وبحث بعض الأعمال معه . جئت للاستفهام حول إخلاء أثاثنا ، لأن أبي قابل تاتشان أخيرا في مكان ما ، وقال تاتشان إن بمقدوره أن يوصى بموضع جيد ، يمكن أن نرسل أمتعتنا إليه .

- قال العجوز إنه ستأخر اليوم ي المجئ للدار . . .

حينما شاهدت شفتيها القرمزيتين أصابني القلق ، فتوقفت عن الحديث ،

وربما كان الأمر يرجع إلى الحمى التي أصابتني ، لكن ذلك اللون القرمزي بدا لي وكأنه ينصب إلى عيني ، وجعل رأسي تؤلمني بعنف .

- ولكنك تكثرين حقا ، كيف يمكنك هذه الأيام استخدام كل أدوات التجميل هذه ، دون أن يدفع ذلك المارة في الطريق إلى الحديث؟

- هل كبرت فعلا إلى حد ملاحظة زينة المرأة؟ تبدو لي وأنت راقد هكذا تماما مثل رضيع فطم لتوه .

- يا لك من مشاغبة! دعيني وحدى!

دنت مني عامدة ، لم أرد أن تراني في منامتي ، فجذبت الأغطية حتى بلغت رقبتي ، مدت فجأة يدها ، وضعت راحتها على جبيني ، حاكت البرودة الجليدية ليدها على جلدي طعنة خنجر ، مع ذلك كان ملمسها طيبا .

-أنت مصاب بالحمى . . هل قست درجة حرارتك؟

- إنها 103 درجات تماماً .

-ما تحتاج إليه هو كمادات ثلج .

- ليس بالدار ثلج .

- سأتدبر هذا .

اندفعت مغادرة الغرفة في مرح ، وكما الكيمونو الذي ترتديه يحتك أحدهما بالآخر ، هبطت الدرج ، سرعان ما عادت ، وجلست صامتة .

= أرسلت ذلك الفتى في طلب الثلج .

- شكراً .

رحت أحدق في السقف . التقطت الكتاب الموضوع قرب الفراش ، فمست كم ردائها الحريري البارد بوجنتي .

فجأة رغبت في هذين الكمين ، شرعت أطلب منها أن تضعهما فوق جبيني ، لكنني عندئذ توقفت . شرعت عتمة الشفق تغمر الغرفة .

قالت :

- يا له من خادم بطئ!

من يصب بالحمى يرصد مرور الزمن بدقة مرضية . كنت أعلم أن الوقت لا يزال مبكرا حتى تشرع شيكو في تأكيد بطء الخادم ، بعد دقائق قلائلا تحدثت مرة أخرى :

- يا للبطء! ترى ما الذي يمكن أن ينغمس ذلك الغلام فيه الآن؟

صحت بعصبية :

- أقول لك إنه ليس بطيئا .

- أوه ، يا للمسكين ، تشعر بالضيق ، أرجوك أغمض عينيك ، لطفا لا تحاول التحديق في السقف بمثل هذه النظرة الفظيعة .

أغمضت عيني ، غدت سخونة جفني عذابا حادا ، شعرت فجأة بشيء يمس جبيني ، ومعه زحف نفس واهن على جلدي ، أشحت بوجهي ، ندت عنى تنهيدة عبثية ، في هذه اللحظة اختلط نفسي المحموم بصورة غير مألوفة

بنفسها . غطى شيء ثقيل ودهنى شفتى ، ارتطمت أسناننا مثيرة الضجة ، خفت أن أفتح عيني وأحدق فيما أمامي ، عندئذ أمسكت خدى في حزم بين راحتيها الباردتين .

تراجعت شيكو بعد لحظة ، فرفعت جسمي هونا ، هناك في العتمة راح أحدنا يحدق في الآخر . كان من المعروف أن أخوات شيكو كن من النساء اللاتي خلعن العذار ، الآن أدركت بوضوح أن الدماء نفسها تجري حتما في عروقها ، لكن شعورا غريبا عصى التفسير راودني حول وجود تماثل بين الانفعال الذي يتقد في بدنها والحمى التي أشعلها مرضي . اقتعدت الفراش وقلت :

- مرة أخرى!

على هذا النحو تابعنا قبلاتنا ، التي لا تنتهي إلى أن عاد الخادم ، كانت لاتنى تقول :

- تقبيل فقط ، تقبيل فقط . .

لم أدر ما إذا كنت قد شعرت بأية رغبة جنسية خلال تبادل هذه القبلات ، أيا كان الأمر ، ومن حيث أن ما يسمى بالتجربة الأولى هو نوع من الشعور الجنسى في ذاته ، فربما يكون مما لا طائل وراءه أن نضع تمييزا محددا في هذه الحالة ، وما كانت هناك جدوى من محاولة استخراج العامل الجنسي العادي للقبلة من الانفعالات السكرى لتلك اللحظة . كان الأمر المهم هو أنني أصبحت «رجلا يعرف القبلات» طوال الوقت الذي أمضيناه متعانقين لم أفكر إلا في سونوكو ، تماما كصبي يعطي بعض الحلوى بعيدا عن الدار ، فتساوره الرغبة للتو في أنه يستطيع منح بعضها لأخته الصغرى ، منذ ذلك الوقت

تركـزت جمـيع أحلام يقظتي على تقبيل سـونوكو ، وكـانت تلك أولى ضروب إساءة التقدير التي اقترفتها وأكثرها خطورة .

على أية حـال ، فمع تواصل تفكيري في سـونوكو أصبحت هذه التجربة الأولى بشعة تدريجيا ، حينما حدثتني شيكو هاتفيا في اليوم التالي كذبت ، وأخبرتها بأني عائد على الفور إلى الترسانة ، بل إني لم أهذب إلى لقائنا الذي تواعدنا عليه . أعمت عيني عن واقع الحقيقة المتمثلة في أنني أحسست بالبرود نحوها بصورة طبيعية ، لأنني لم استشعر لذة في تلك القبلات ، رحت بدلا من الإقرار بهذه الحقيقة أؤكد لنفسي أن تلك القبلات بدت بشعة ، لا لشيء إلا لأني أهوى سونوكو ، كانت تلك هي المرة الأولى التي استخدمت فيها حبي لسونوكو كتبرير لمشاعري الحقيقية .

تبادلت الصور مع سونوكو ، شأن أي فتى وفتاة في حبهما الأول ، كتبت تقول إنها وضعت صورتي في مدلاة علقتها في قلادة تتهدل على صدرها ، لكن الصورة التي أرسلتها لي كانت كبيرة ، بحيث تلائمها حقيبة صغيرة بالكاد ، لما لم يكن بوسعي وضعها في جيبي ، فقد حملتها مغلقة داخل لفافة ، ولخشيتي من نشوب حريق في الترسانة والصورة فيها كنت أحملها معي حينما أذهب للدار .

ذات ليلة كنت بالقطار عائدا إلى الترسانة حينما دوى صوت صفارات الانذار فجأة ، وانطفأت الأنوار ، في لحظات دوى صوت إشارة اللجوء إلى المخبأ ، تلمست بيدي على رف المتاع باحثا عن الحزمة الكبيرة التي وضعتها هناك ، فألفيتها قد سرقت ، ومعها ضاعت اللفافة التي تحوى صورة سونوكو . لما كنت أميل بصورة موروثة إلى التطير ، فقد هيمنت عليّ منذ تلك اللحظة فكرة ضرورة

مقابلة سونوكو على جناح السرعة .

دفعتني غارة الرابع والعشرين من مايو تلك . التي كانت مدمرة شأن غارة منتصف ليلة التاسع من مارس ، إلى اتخاذ قرار نهائي ، ولربما كانت علاقتي بسونوكو تقتضي ذلك الجو عفن الأبخرة ، الذي يمجه ركام المصائب هذا ، ربما كنت تلك العلاقة نوعا من المركب الكيميائي الذي لا يمكن تحضيره إلا بحمض الكبريتيك .

غادرنا القطار ، احتمينا بالملاجئ العديدة ، التي حفرت على امتداد خط تتفتح التلال عنده على السهل . من مجثمنا رحنا نرقب السماء ، وهي تتحول إلى اللون القرمزي فوق طوكيو ، وبين الفينة والأخرى ينفجر شيء ما ، فتنعكس صوة الانفجار فوق صقال السماء ، وفجأة في قبل السحب نتمكن من رؤية سماء زرقاء مروعة ، كأنما في رائعة النهار ، تتخايل قضة سماء زرقاء للحظة في قلب الليل .

لاحت الكشافات الضوئية اقرب إلى ابراج إرشاد ترحب بطائرات العدو ، فتمسك الأجنحة المتألقة بإحدى هذه الطائرات تماما وسط أضواء كشافين تقاطعت للحظة ، ثم تجتذب الطائرة بلطف فتنقلها من ضوء إلى آخر ، وفي كل مرة تدنو من طوكيو ، كما لم تكن المدفعية المضادة للطائرات ثقيلة للغاية في تلك الأيام ، وبارتياح كانت الطائرات طراز بي - 29 تحلق فوق طويكو .

وما كان ليحتمل أن يستطيع أحد ، من حيث كنا ، أن يميز بالفعل الصديق من العدو في المعارك الجوية التي دارت رحاها فوق طوكيو ، مع ذلك ارتفعت جوقة من الهتافات من جمهرة النظارة في كل مرة كان أفرادها يرصدون ، بإزاء

الخلفية القرمزية ، طائرة مصابة تهوى ، كان العمال الصغار بصفة خاصة شديدي الجلبة ، ويتردد صوت التصفيق والهتاف من مداخل الانفاق المتاثرة ، كأنه يخرج من مسرح ،أما عن المشهد الذي بدا من هذه المسافة فلم يكن ثمة فارق جوهري بين أن تكون الطائرة المتهاوية لنا أو للعدو ،وتلك هي طبيعة الحرب . .

وما أن أطل الفجر بنوره حتى شرعت في العودة للدار ، بدلا من المضي إلى الترسانة ، اضطررت للسير طوال منتصف المسافة التي يمتد عبرها خط أحد قطارات الضواحي ، وكان متوقفا مضيت عبرالوصلات ، التي لا تزال تحترق ، عابرا الجسور عن طريق المماشي الجانبية الضيقة ، فيما كنت أقترب من الدار اكتشفت أنه ما من شيء أفلت من الاحتراق ، في ذلك القطاع من المدينة بأسره . فيما عدا المنطقة المجاورة لنا مباشرة ، وأن دارنا لم تصب بسوء ، تصادف أن كانت أمي وأختي وأخى بالدار في تلك الليلة ، وألفيتهم مبهجين رغم الحريق الليلي ، كانوا يحتفلون بنجاتهم بتناول بعض الحلوى ، التي استخرجوها حيث كانت مخزونة .

أقبلت أختى ، طويلة اللسان ذات الأعوام الستة عشر ، في وقت لاحق من ذلك اليوم ، إلى غرفتي ، وقالت :

- أخى يهيم حبا بإحداهن . أليس كذلك؟

- من قال لك مثل هذا الأمر؟

- أعرف تماما .

- طيب . . أهو خطأ أن يقع المرء في حب إحداهن؟

- أوه . . . لا . . . متى ستتزوجان؟

غاصت كلماتها في أعماقي ، ساورني شعور هارب من وجه العدالة ، حينما يتصادف أن يقول شخص لا يدري بما جنته يداه شيئا له عن جريمته .

- نتزوج؟ أنا لم أفكر مجرد تفكير في الزواج .

- يا خبر! ما أسوأ هذا! أنت متيم بفتاة دون أن تعتزم الزواج منها؟ أوه ، هذا مقزز ، حقا إن الرجال لأشرار .

- إذا لم تغادري هذه الغرفة مسرعة لأقذفنك بهذه المحبرة .

لكن حتى بعد مغادرتها الغرفة لم استطع انتزاع كلماتها من ذهني ، فشرعت أحادث نفسي : هذا حق ، ثمة شيء في هذه الدنيا اسمه الزواج والأطفال كذلك . عجيب أني نسيت هذا ، أو على الأقل تظاهرت بأني نسيته ، كان وهما ما حدثت به نفسي من أن الزواج هو سعادة عابرة ، حتى تكاد لا توجد في ظل اقتراب الحرب من النهاية ، الفاجعة ، بالفعل كان الزواج يمكن أن يكون بالنسبة لي سعادة خطيرة ، خطيرة بما يكفي- رويدا دعنى أتبين- طيب ، بما يكفي ليقف شعر جسدي .

استحثتني هذه الأفكار كذلك للوصول إلى الحسم المرتكس حول ضرورة زيارة سونوكو في أقرب وقت ممكن . ترى أكان ذلك الشعور حبا؟ ألم يكن في الحقيقة قريبا من ذلك الشكل الغريب والمحموم من الفضول الذي يبديه الرجل تجاه خوف يكمن في أعماقه ، نحو رغبة في اللعب بالنار؟

كنت قد تلقيت دعوات عديدة لزيارتهم ، لا من سونوكو وحدها ، وإنما من أمها وجدتها كذلك . ولعدم رغبتي في النزول بدار خالتها كتبت لسونوكو طالبا

حجز غرفة بفندق لي ، وعبثا سألت في جميع فنادق قرية «ن» فقد غدت جميع الفنادق إما مكاتب فرعية لبعض الإدارت الحكومية ، أو خصصت لاحتجاز الأجانب الذين استسلمت دولهم للعدو .

فندق . . غرفة خاصة . . . مفتاح . . نوافذ أسدلت عليها الستائر . . مقاومة فاترة . . اتفاق مشترك على الشروع في المعابثات يقينا سيكون بمقدوري عندئذ ، بالقطع في ذلك الوقت ، سأستطيع القيام بالأمر ، مؤكد أن العادية ستندلع ألسنة من لهيب في أعماقي ، مثل وحي إلهي ، يقينا سأولد من جديد شخصا مختلفا ، رجلا مكتملا ، كأنما أطلق سراحي فجأة من إسار سحر روح شريرة ، في هذه اللحظة سأتمكن من احتضان سونوكو دونما تردد وبكل طاقاتي ، فأعشقها حقا ، ستزاح كل الشكوك والهواجس تماما ، سأصبح قادرا على أن أقول لها من أعماق قلبي «أحبك» ومنذ ذلك اليوم سأجوب الشوارع خلال الغارة هاتفا بأعلى صوتي «هذه هي حبيبتي» .

يهيمن تشكك مراوغ في النزعة العقلية على الشخصية الرومانسية غالبا ما تؤدي هذه الحقيقة إلى الحدث اللاأخلاقي الذي يدعي بأحلام اليقظة ، وعلى عكس الاعتقاد الشائع ، فإن أحلام اليقظة ليست عملية ذهنية ، وإنما هي بالاحرى هرب من النزعة إلى أعمال الذهن .

لكن حلمي بالفندق قدر له ألا يتحقق ،فحينما كلل السعى للعثور على غرفة في أحد الفنادق بالإخفاق ، كتبت سونوكو لي مرارا تدعوني للنزول بالدار معهم ، أخيرا وافقت ، وفي التو تملكني شعور بالارتياح ، يحاكي الإعياء ، وبغض النظر عما لجأت إليه محاولا إقناع نفسي بأن شعوري كان إحساسا بالاستسلام المصحوب بخيبة الأمل . فإني لم أستطع تجنب حقيقة أن هذا

الشعور كان ارتياحا محضا .

انطلقت إلى قرة «ن» . في الثاني من يونيه ، وفي ذلك الوقت كان كل شيء في الترسانة غارقا في الإهمال واللامبالاة إلى حد أن أي عذر كان كافيا للحصول على إجازة .

كان القطار قذرا وخاويا . وإني لأتساءللم تبد ذكرياتي عن القطارات خلال الحرب ، ما عدا ذلك المثال السعيد مع سونوكو ذكريات بائسة على هذا النحو؟ فيما كنت في الطريق إلى قرية «ن» ومع كل اهتزازة من اهتزازات القطار ، تدافع مقبلا عذاب هاجس طفولي بائس ، كنت قد عقدت العزم على ألا أرحل دون تقبيل سونوكو ،لكن تصميمى كان مختلفا عن ذلك الشعور المفعم فخراً ، الذي يحل حينما يناضل شخص ما لتحقيق رغبته رغم الخوف ، أحسست كما لو كنت ذاهبا للسرقة ، شعرت بالشعور الذي يمك أن يراود مبتدئا جزءا في عالم الجريمة ، أجبره على أن يصبح لصا زعيم عصابة ، كانت سعادة أن أكون محبوبا قد اخترمت ضميري ، ولربما كنت في توق إلى المزيد من التعاسة الحاسمة .

قدمتني سونوكو إلى خالتها ، أردت أن أترك انطباعاً طيبا ، حاولت ذلك بأقصى ما في وسعي ، بدا الجميع وكأن أحدهم يسائل الآخر في صمت : لماذا تقع سونوكو في حب «جدع كهذا؟ يا له من عاشق كتب شاحب! ما الذي يعجبها فيه بحق الجحيم؟

كنت أعتزم ذلك العزم الجدير بالثناء ، والمتمثل في جعل الجميع يكونون فكرة طيبة عني ، فلم أشكل مجموعة منفصلة مع سونوكو على نحو ما فعلت

في تلك المرة بالقطار ، وإنما رحت أساعد أختيها في دروس اللغة الإنجليزية ، وأصغى باهتمام إلى أقاصيص الجدة عن أيامها النائية في برلين . من الغريب أن سونوكو بدت أكثر قربا مني في مثل هذه الأوقات ، كنت أتبادل الغمزات الطائشة معها خلسة في وجود أمها وجدتها ، خلال تناول الطعام كانت أقدامنا تتلامس تحت المائدة ، أصبحت هي تدريجيا غارقة في هذه اللعبة . ذات مرة ، فيما كانت الجدة تضجرني بحكاياتها ، انحنت سونوكو على نافذة استطيع أن ألمح عبرها أوراق الشجر ، الخضراء تحت السماء المفعمة بالسحب لموسم المطر ، من خلف جدتها ، وبحيث يكون بمقدوري وحدى رؤيتها ، أمسكت بالمدلاة التي تتهدل على صدرها وأخذت تؤرجحها تحت ناظري .

ما كان أشد ابيضاض الصدر الذي تطل مطالعه من فتحة عنق ثوبها هلالية الشكل! كان ابيضاضا كالفجاءة . فيما كنت انظر إلى ابتسامتها ، وهي تنحنى على النافذة ، استطعت أن أفهم إشارة شكسبير إلى «الدم الملهوف» الذي صبغ وجنتي جوليت ، ثمة ضرب من الخيلاء يليق بعذراء فحسب ، يختلف عن خيلاء المرأة الناضجة ، يفتن الناظر ، لكأنه رياح هادئة ، ضرب من شيء سيئ ، لكنه بشكل ما ورغم ذلك فاتن ، يحاكي على سبيل المثال الرغبة في مداعبة طفل وليد .

في لحظات كهذه يتعرض ذهني لإغواء سعادة مفاجئة ، لوقت طويل لم أقترب من الثمرة المحرمة المسماة بالسعادة ، لكنها كانت الآن تغريني بإصرار محموم ، أحسست وكأنما سونوكو هوة ، أقف متجمدا عند حافتها .

هكذا مر الوقت ، حتى لم يبق إلا يومين على موعد عودتي للترسانة ، لم أكن قد وفيت بعد بالإلتزام الذي أخذته على نفسه بأن أقبلها .

التفت التلال جميعها في غلالة من رذاذ الموسم المطير . استعرت دراجة ومضيت إلى مكتب البريد لأرسل خطابا . كانت سونوكو تعمل في فرع لإحدى الإدارات الحكومية لتتجنب إرسالها بعيدا للقيام بعمل تطوعي ، لكنها وعدت بمقابلتي في مكتب البريد و«التزويغ» من العمل في فترة الأصيل . في طريقي إلى هناك مررت بملعب تنس مهجور ، بدا المكان موحشا هناك ، في قلب الشبكة السلكية الصدئة التي كانت قطرات المطر تتساقط منها ، مر إلى جواري فتى ألماني فوق دراجة ، تألقت قطرات المطر فوق شعره الأشقر ويديه البيضاوين .

مكثت لحظات قصار داخل مكتب البريد عتيق الطراز ، وخلال ذلك الوقت ، خفت عتمة السماء قليلا . توقف المطر ، لكنه كان توقفا عابرا ، فلم تنقشع السحب ، وكان الضوء مفضض الحواف فحسب .

أوقفت سونوكو دراجتها وراء الأبواب الزجاجية . كانت لاهثة الأنفاس ، نهداها يرتفعان ونخفضان في تتابع سريع ، لكن ابتسامة كانت ترف فوق وجنتيها المترعتين عافية ، حدثني شيء قائلا :«الآن عليك بمطاردتهما!» كنت حقا أشعر تماما كما لو كنت كلب صيد ، يستحث للمطارة ، بدا الأمر كما لو كنت اتحرك تحت وقر إلتزام أخلاقي ، فرضة عليّ شيطان ، قفزت فوق دراجتى ، ومضيت جنبا إلى جنب مع سونوكو على امتداد الشارع الرئيسي .

ابتعدنا بدراجتينا عن القرية ، مضينا عبر أجمة من أشجار التنوب والقبقب والبتولا الفضية التي تقاطر المطر منها . كان شعر سونوكو جميلا ، وهو يتموج وراءها في الريح برشاقة ، كان فخذاها القويان يرتفعان وينخفضان ، وهي تمضى قدما بالدراجة ، بدت كأنها الحياة ذاتها ، عند مدخل أرض ممهدة

للجواف ، غدت مهجورة ، ترجلنا ، وسرنا على امتداد ممشى مبلل على حواف الطريق .

كنت متوتراً ، مثل مجند حديث العهد بالجندية . رحت أحدث نفسي : هناك على مبعدة أجمة ، وظلالها مناسبة تماما ، هناك خمسون خطوة تفصلنا عنها ، بعد أن نقطع عشرين خطوة أخرى سأبدأ في محادثتها لتخفيف التوتر ، عبر الخطوات الثلاثين التالية سيكون من المناسب الإمساك بخيوط حوار عادي ، عند الخطوة الخمسين سنوقف الدراجات لنتطلع إلى المشهد الممتد نحو الجبال ، عندئذ سأضع يدي على كتفها ، بوسعى القول في صوت خافت : إن أكون هنا على هذا النحو كان حلمى ، عندئذ ستطرح ردا بريئا من نوع ما ، سأشدد ضغط اليد القابعة على كتفها جاذبا إياها نحوى ، عندئذ سيكون الأسلوب الذي أحتاج إليه هو ذاته الذي استخدم من قبل في تلك المرة مع شيكو . . .

أقسمت أن أقوم بدوري بإخلاص ، ولم تكن لك علاقة لا بالحب و لا بالرغبة .

كانت سونوكو بالفعل بين ذراعي . لاهثة ، توردت وجنتاها كالنار ، فأغمضت عينيها ، كانت شفتاها جميلتين جمالا صبيانيا ، لكنهما لم تثيرارغبة في أعماقي ، مع ذلك واصلت مطاردة الأمل في أن شيئا سيحدث بداخلي في أية لحظة . . . يقينا حين أقبلها بالفعل ، عندئذ سأكتشف قطعا عاديتي ، هواى الحقيقي .

كانت الآلة تسرع مندفعة . وما كان بوسع أحد وقفها .

غطيت شفتيها بشفتى ، انقضت ثانية ، لم أشعر بأدنى إحساس باللذة ،

مرت ثانيتان وما اختلف الأمر ، أدبرت ثلاث ثوان . . فهمت كل شيء . .

انسحبت نائيا عنها ، وقفت للحظة أرقبها بعينين حزينتين ، لو أنها نظرت إلى عيني في تلك اللحظة لتلقت يقينا إيماءة للطبيعة العصبية التحديد لحبي لها ، وأيا كان الأمر لم يكن بوسع أحد أن يؤكد إيجابا أن مثل هذا الحب كان ممكنا إنسانيا ، لكن سونوكو وقد غلبها الحياء وفرح بريئ ، أبقت عينيها منكستين ، شأن عروس صغيرة .

لم أنبس بكلمة ، أمسكت بذراعها ، كما لو كانت طفلة صغيرة ، وشرعنا في السير نحو الدراجات .

رحت أحدث نفسي بأن عليّ أن ألوذ بالفرار ، عليّ أن أهرب دون انتظار للحظة واحدة ، أصابني الهلع . ولتجنب إثارة الشك بالظهور بمظهر الاكتئاب ، الذي كنت أستشعره ، تظاهرت بالمرح على نحو يفوق المعتاد . وضعني نجاح حيلتي في موقف أكثر دقة ، فخلال العشاء توافق مظهري السعيد تماما مع شرود سونوكو العميق ، حتى أن الجميع توصلوا إلى الاستنتاج الواضح .

بدت سونوكو أصغر سنا وأزهىِ من المعتاد ، كان ثمة شيء يلف وجهها وقوامها يوحى دائما بأنها خارجة لتوها من بين دفتي رواية ، الآن ثمة شيء يرف حولها ويذكر المرء ، على وجه الدقة ، بمظهر وسلوك فتيات الروايات ، حين يقعن في الحب . أدركت بجلاء بالغ فيما كنت أرى قلبها العذرى الساذج عاريا أمامي ، على هذا النحو ، أنه لا حق لي في معانقة هذه الروح الجيلة ، رغم محاولاتي لمواصلة التظاهر بالمرح سرعان ما فتر حديثي ، وحينما لاحظت أم سونوكو ذلك أبدت قلقها على حالتي الصحية ، وتسرعت سونوكو بالقفز إلى

استنتاج أنها تعلم على و جه الدقة فيما أفكر ، ولتجذب انتباهي هزت مدلاتها باتجاهي ، وكأنها تشير قائلة :«لا تدع القلق يساورك» رغما عنى رددت لها الابتسامة .

بدت وجوه الكبار المصطفة على المائدة انعكاسا لمزيج من الصدمة والضيق ، إزاء تبادلنا الجرئ للإبتسامات ، فجأة أدركت أن الخيال القابع خلف صف الوجوه يكدح ، مستحضرا تصورات لمستقبلنا معا ، ومن جديد اخترمنى الرعب .

في اليوم التالي ، مضينا إلى البقعة ذاتها ، قرب أرض الجولف ، لاحظت مجموعة من الأزهار البرية ، كنا قد وطئناها لدى رحيلنا ، أزهار بابونج صفراء ، تذكار أمسنا ، أما اليوم فالنجيل جاف .

العادة شيء مخيف ، فقد كررت القبلة ، التي ندمت عليها أشد الندم ، لكنها كانت هذه المرة شبيهة بالقبلة التي يمنحها المرء لأخته الصغرى ، رغم ذلك فإنها بهذا القدر ذاته تفوح بالمزيد من اللاأخلاقية .

قالت :

- ترى متى سأراك مرة أخرى .

رددت :

- طيب ، إذا لم يقم الأمير كيون بابرار قواتهم قرب الترسانة ، فسيكون الحصول على إجازة في غضون شهر .

كنت آمل . . لا بل الأمر يتجاوز الأمل إلى اليقين الأسطوري ، أنه خلال

ذلك الشهر سيهبط الأمير كيون يقينا في خليج «سى» وسنرسل جميعا ، باعتبارنا من جيش الطلاب ، لنلقى حتفنا حتى اخر رجل ، أوأن قنبلة مخيفة لم تدر بخيال أحد قط ستودى بي ، أيا كان الملاذ الذي اعتصم به . . ترى أكان ذلك هاجسا أقرب إلى النذير بقدم القنبلة النووية ، التي كان من المقدر لها أن تهوى عاجلاً؟

ثم مضينا نحو المنحدر المستحم في وهج الشمس ، كانت شجرتا بتولا تلقيان بظلالهما عليه . وقد بدت كأختين رقيقتين ، قطعت سونوكو ، وهي تسير منكسة العينين ، الصمت قائلة :

- أية هدية ستحضرها لي حينما نلتقى في المرة المقبلة؟

في يأس أجبت مدعيا عدم فهم ما تقصده :

- أما عن الهدية التي أستطيع إحضارها ، في هذه الأيام ، فافضل ما يمكنني تقديمه طائرة لم يكتمل صنعها ، أو مجرفة غارقة في الوحول .

- لم أعن شيئا متجسدا .

- إحم . . . ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء؟ إنه لغز حقيقي أليس كذلك؟ سأفكر فيه خلال عودتي بالقطار .

قلتها ، شاعرا بأنني كلما أوغلت في التظاهر بالجهل زاد حصاري في ركن معزول شدة .

قالت ، ونغمة صوتها يوشيها مزيج غريب من تمالك النفس والكبرياء :

- نعم ، فكر فيه ، أريدك أن تعدني بإحضار تلك الهدية .

شـددت على كلمـة «تعـدني» . لـم يكن ثمـة مـا أعـتـصم به للدفـاع عن نفسي إلا مواصلة ادعائي المرح .

قلت متنازلا : بديع! دعينا نعقد الخناصر على هذا .

عـقـدنا خنصـرينا مـعـا ، على نحـو مـا يفـعـل الأطفـال ، حين يكرسـون وعـودهم ، بدت تلك الإشـارة بالغـة البـراءة ، لكن خـوفـا عـرفتـه في طفولتي داهمني ، تذكرت كيف كان الأطفال يقولون إن الخناصر تتحلل إذا نكثت وعدا عقدتها تأكيدا له ، بل إن خوفي كان له سبب أكثر واقعية ، فحتى إن لم تقل سونوكو ذلك صراحة فإنه من الجلى أن حديثها عن الهدية كان طلبا للتقدم للزواج منها . كان خوفي يحاكي ذلك الخوف الذي يستشعره طفل ، في عتمة الليل ، حين يخشى أن يمضي وحيدا عبر ممر مظلم .

في تلك الليلة ، وقبل أن أوى إلى فراشي ، جاءت سونوكو إلى باب غرفتي ، احتجبت هونا خلف الستائر المسدلة هناك ، رجتني والشجن يلفها أن أبقى يوما آخر لم أتمالك عن التحديق فيها ، وكأنما أدهشني شيء ما ، كان تقديري بأسره ، الذي اعتقدت على هذا النحو أنه بالغ الدقة ، قد حطمه اكتشاف الخطأ الذي ارتكبته من البداية ذاتها ، من ثم لم أدر كيف أحلل المشاعر التي راودتني حينما رحت أحدق في سونوكو .

- أينبغي أن ترحل حقا؟

- أجل ، هذا ضروري .

شعرت بما يوشك أن يكون سعادة ، فيما كنت أدلى بهذا الرأى . مرة أخرى شرعت آلية الهزيمة تتحرك في أعماقي بسطحية في البداية ، لم يكن

شعوري بالسعادة إلا الانفعال الذي يخالج المرء لدى هربه من خطر هائل ، لكنني فسرته باعتباره ناشئا من شعور بالتفوق إزاء سونوكو ، من المعرفة بأنني أمتلك الآن قدرة جديدة على تعذيبها .

كان خداع الذات هو شعاع الأمل الأخير بالنسبة لي ، فالشخص الذي يصبه جرح لا يطالب بأن تكون الضمادات التي تنقذ حياته ناصعة البياض ، أوقفت نزيفي بضمادات خداع الذات ، التي كانت على الأقل شيئا مألوفا بالنسبة لي ، ولم يشغل تفكيري إلا العدو نحو المستشفى ، لقد وصفت عامدا تلك الترسانة المتسيبة لسونوكو باعتبارها أكثر الثكنات صرامة ، وأكدت على أنني إذا لم أرجع إليها في الغد فربما يتم إيداعي بالسجن الحربي .

أطلت صبيحة رحيلي ، ألفيت نفسي أحدق بتركيز في سونوكو شأن مسافر يلقي للمرة الأخيرة نظرة على مشهد يوشك أن يرحل عنه . أدركت الآن أن كل شيء قد انتهى . . حتى على الرم من أن المحيطين بي كانوا يعتقدون أن كل شيء يوشك على أن يبدأ . . . وحتى رغم أنني كنت أرغب بدوري في خداع نفسي ، والاستسلام لمناخ الاهتمام الهادئ ، الذي كانت عائلتها تحيطني به .

رغم ذلك فإن الهدوء الذي يلف سونوكو جعلني أحس بالقلق ، ساعدتني في حزم حقيبتي ، راحت تبحث على امتداد الغرفة عن شيء ربما نسيته ، بعد فترة وقفت أمام النافذة ، مضت تحدق عبرها دون أن تتحرك ، لم يكن ثمة اليوم من جديد ، على نحو متميز ، اللهم إلا السماء المثقلة بالحسب والأوراق الخضراء اليانعة أرجح مرور سنجاب خلف فرع بإحدى الاشجار . فيما كنت أحدق في ظهرها ، أوضح شيء ما بجلاء أنها كانت تنتظر ، في هدوء صبياني ، لما كنت

مصابا بالانضباط ، الذي ما كان بوسعي معه أن أمضى في تجاهل هذا بأكثر مما أحتمل مغادرة الحجرة دون إغلاق أبواب خزانة الثياب ، فقد دنوت منها ، وعانقتها في رقة .

- ستأتي مرة أخرى يقينا . أليس كذلك؟

تحدثت في يسر وبنغمة تشى بالثقة الكاملة ، بدت كما لو أنها لا تضع ثقتها فيّ وإنما في شيء أعمق ، شيء يتجاوزني . لم يرتعش كتفاها . كان الشريط المزخرف الذي على قميصها الخارجي يعلوم ويهبط كأنما في فخار وكبرياء .

- إحم ، ربما إذا كنت لا أزال على قيد الحياة .

شعرت بالتقزز من نفسي خلال نطق هذه الكلمات ، كنت أوثر ذهنيا لو أنني قلت : بالطبع سأحضر! لا شيء يمكن أن يمعني من المجيئ إليك ، لا تشكي في هذا ، ألست الفتاة التي ستصبح زوجتي؟

عند كل منعطف كان هذا التناقض الواضح بين وجهات نظرى وانفعالاتي يطل متصاعدا ، كنت أعلم أن ما جعلني أتخذ مثل هذه المواقف الفاترة التي يجدها قولي «إحم ، ربما» لم يكن هنة في شخصيتي يمكنني تغييرها ، وإنما أمر وجد حتى قبل أن يكون لي شأن بالأمر ، وباختصار كنت أعرف بوضوح أن الخطأ لم يكن خطأي .

لكني ، لهذا السبب ذاته ، تعودت إخضاع تلك الجوانب من شخصيتي التي كنت مسؤولا عنها لنصائح سديدة وعاقلة للغاية ، حتى لتبدو مضحكة ، وكجزء من نظام الانضباط الذاتي ، الذي يعود إلى طفولتي ، اعتدت أن أحدث

نفسي باستمرار بأنه خير لي أن ألقى حتفى من أن أغدو شخصا فاترا ، متجرداً من الرجولة ، لا يعرف بوضوح ما يحب وما يكره ، ينشد أن يعشقه الآخرون فحسب دون أن يعرف كيف يحب ، وبالطبع فهذه النصيحة قابلة للتطبيق على تلك الجوانب من شخصيتي التي كنت أحملها على كاهلي ، ولكن فيما يتعلق بالجوانب الأخرى ، التي لم أكن مسؤولا عنها ، كانت هذه النصيحة شيئا مستحيلا منذ البداية ، هكذا فإنه في الحالة الراهنة ما كانت قوة شمشون لتكفي لجعلي أتخذ موقفا رجولياً وحاسما إزاء سونوكو .

هكذا إذن فإن هذا الرجل الفاتر الذي كانت سونوكو تراه الآن ، ذلك الشيء الذي بدا لي شخصيتي أثار تقززى ، وجعل وجودى بكامله يبدو لي بلا قيمة ، ومزق ثقتي بنفسي إربا ، أرغمت على نزع ثقتي بكل من إرادتي وشخصيتي ، أو على الأقل فيما يتعلق بشخصيتي لم أستطع إلا الاعتقاد بأنها شيء زائف . من ناحية أخرى ، فإن هذه الطريقة في التفكير ، التي تشدد على الإرادة ، هي في ذاتها مبالغة ، توشك أن ترقى إلى مرتبة الوهم ، فحتى الشخص العادي لا يستطيع أن يحكم سلوكه بمقتضى الإرادة وحدها ، وأيا كان مقدار عاديتي فمن المحقق أن هناك سببا للشك فيما إذا كنت وسونوكو مناسبين في كل شيء لحياة زوجية سعيدة سببا كان يمكن أن يبرر رد ذاتي العادية نفسها بالقول :«إحم ، ربما» . لكنني كنت قد اكتسبت عمدا عادة صم أذني ، حتى في مواجهة مثل هذه الافتراضات الواضحة ، كأنما كنت أرغب في ألا أهدر هذه الفرصة لتعذيب نفسي . . وتلك حيلة مبتذلة ، غالبا ما يلجأ إليها الأشخاص الذين حيل بينهم وبين سبل الهرب الأخرى ، فيتراجعون إلى ملاذ آمن ، يتمثل في نظرهم إلى أنفسهم باعتبارهم موضوعات لمأساة .

قالت سونوكو بصوت هادئ :

- لا تقلق لن تلقى مصرعك ، وحتى لن تصاب بجرح خفيف ، في كل ليلة سأصلي لليسوع ، من أجلك وصلواتي دائما مقبولة .

- أنت قوية الإيمان . ألست كذلك؟ ربما هذا هو السبب في أنك تحظين بمثل هذا السلام الذهني ، إنه يخيفني .

تساءلت ناظرة إليّ بعينين سوداوين حكيمتين :

- ولِمَ؟

سقطت أسيرا بين نظرتها وسؤالها البرئ ، الخاليين كلاهما من الشك ، خلو قطرات الندى منه ، فغلبتني الحيرة . وعجزت عن التفكير في رد ، كنت حتى ذلك الوقت قد أحسست برغبة قوية في هز هذه الفتاة ، التي بدت وكأنها غرقت في نومها في تلافيف سلامها الذهني ، أظل أهزها حتى تستيقظ ، لكنما نظرة عينها هي التي أيقظت شيئا كان هاجعا في أعماقي . . .

حان وقت ذهاب أختى سونوكو للمدرسة ، فأقبلتا لتوديعي ، لم تكد الأخت الصغرى تمس راحة يدي وهي تقول إلى اللقاء ، وهرعت بالابتعاد عبر الأبواب ، حاملة صندوق طعامها القرمزي ذي الابزيمين الذهبيين ، في هذه اللحظة عينها تصادف أن أشرقت الشمس مطلة من بين الأشجار فرأيتها تلوح بصندوق طعامعها لي عاليا فوق رأسها .

جاءت الأم والجدة معا لوداعي ، لذا كان فراقي لسونوكو عند المحطة عابرا وبريئا ، رحنا نتبادل النكات ونتصرف برباطة جأش ، سرعان ما جاء القطار ،

فاحتللت مقعدا إلى جوار النافذة ، كانت فكرتي الوحيدة متمثلة في صلاة لرحيل القطار سريعا .

ناداني صوت صاف من اتجاه غير متوقع ، يقينا كان صوت سونوكو ، ونظرا لتعودي سماعه عن قرب أذهلني سماعه كصيحة بعيدة مطلقة السراح ، تدفق إدراك أنه صوت سونوكو إلى قلبي كسنا الشمس في البكرة ، حولت عينيّ نحو الاتجاه الذي جاء منه . . . كانت سونوكو قد تسللت خلسة من بوابة الحمالين ، وتشبثت بالسياج الخشبي الأسود القريب من الرصيف ، كانت كتلة من زخارف قميصها الخارجي منسربة من سترتها محكمة الإغلاق وترف مع النسيم ، كانت عيناها الفمعمتان بالحيوية تحدقان نحوى على اتساعهما ، شرع القطار في التحرك ، بدت شفتاها الثقيلتين هونا كما لو كانتا تشكلان كلمات ، وعلى هذا النحو اختفت من أمام ناظري .

سونوكو! سونوكو! رحت أكرر الاسم لنفسي ، مع كل اهتزازة من اهتزازات القطار ، رن غامضا على نحو لا يمكن اجتراح نطقه . سونوكو! سونوكو! مع كل تكرار يزداد قلبي ثقلا . مع كل نبضة من اسمها يتعملق إعياء قاطعاً ، مفعماً بالعقاب ، ممتدا ، عميقا ، وغائرا في أعماقي كان الألم الذي استشعره جليا ، لكن طبيعته فريدة وعصية الإدراك ، حتى أنه ما كان بوسعي إيضاحها ، وإن حاولت ذلك جاهدا ، كان بعيدا عن الدرب المطروق للانفعالات الإنسانية ، حتى أنني وجدت صعوبة في إدراكه باعتباره ألما ، ولو أني حاولت وصفه لما كان بوسعي ألا أن أقول إنه ألم كذلك الذي يحسه شخص ينتظر في ظهيرة مشرقة هدير مدفع الظهر ، وحينما يمر وقت إطلاق المدفع في صمت ، يحاول اكتشاف الخواء المنتظر في مكان ما من زرقة السماء . إن ألمه هو نفاد الصبر الممزق ، النابع

من انتظار شيء طال الحنين إليه . وحل أوانه ، هو الشك المفزع في أنه قد لا يجئ في النهاية أبدا ، إنه الرجل الوحيد في الدنيا الذي يعلم أن مدفع الظهيرة لم يطلق عاجلا في منتصف النهار .

غمغمت لنفسي :

- انتهى كل شيء ، انتهى كل شيء .

حاكي حزني ذلك الحزن الذي يحس به طالب اخفق في اجتياز اختبار ، فتصدع فؤاده : أخطأت! أخطأت! ببساطة لأنني لم أحل ذلك الطرف المجهول في المعادلة ، أصاب الخطأ كل شيء . لو أنني أوجدت فحسب حلا لذلك الطرف المجهول ، منذ البداية ، لسار كل شيء على ما يرام ، لو أنني استخدمت تلك الطرق الاستدلالية التي يلجأ إليها الآخرون كافة لحل معادلات الحياة الرياضية كان أسوأ ما فعلته أن سرت حتى المنتصف على درب المهارة والحذق ، فقد اعتمدت وحدي على المنهاج الاستقرائي ، ولهذا السبب البسيط أخفقت .

كانت حالة الجيشان الذهني التي أعانيها من الوضوح ، حتى أن الراكبتين الجالستين في المقعد المقابل شرعتا ترمقانني في تشكك . كانت إحداهما ممرضة بالصليب الأحمر ، ترتدي زيا رسيما قاتم الزرقة ، والأخرى قروية فقيرة ، بدت أم الممرضة حينما انتبهت لنظراتهما ، ألقيت نظرة على الممرضة ، فرأيتها فتاة ممتلئة القوام ، لها بشرة محمرة مثل كرز الشتاء ، فاجأتها وهي تنظر إليّ مباشرة ، ولتغطى ارتباكها شرعت تلاطف أمها :

- من فضلك يا أمي ، إنني جائعة .

- لا ، لا يزال الوقت مبكرا .

- لكنني جائعة ، من فضلك من فضلك!

- لا تكوني لجوجة هكذا!

لكن الأم استسلمت أخيرا ، أخرجت صندوق طعامها ، جعل بؤس محتوياته غذاءهما ، أكثر فظاعة ، حتى من الطعام الذي يصرف لنا في الترسانة ، كان ثمة أرز مطبوخ فقط ، وقد مزج بكثير من جذور القلقاس ، وتبل بشريحتين من الفجل المخلل ، لكن الفتاة شرعت في ازدراده باستمتاع شديد .

لم تبد لي عادة تناول الطعام بشكل ما مثيرة للسخرية على هذا النحو ، فركت عيني ، وفي الحال أدركت أن وجهة نظرى تلك جاءت من فقدي للرغبة في الحياة كلية .

حينما بلغت دارنا في الضواحي تلك الليلة ، فكرت جديا في الانتحار ، للمرة الأولى في حياتي ، لكن الفكرة غدت مضجرة بصورة متفاقمة ، حينما أمعنت التفكير فيها ، أخيرا انتهيت إلى أنها ستكون أمراً مضحكا . كنت أكن كراهية موروثة للإقرار بالهزيمة ، رحت أحدث نفسي بأنه إضافة إلى هذا ما من حاجة تدعوني إلى القيام بمثل هذا العمل الحاسم بنفسي ، على الأقل ليس في وقت يحيطني فيه هذا الحصاد الوفير من ألوان الهلاك : موت في غارة جوية ، موت في موقع العمل ، موت في الخدمة العسكرية ، موت في الميدان ، موت بصدمة سيارة ، موت من جراء الإصابة بمرض ، يقينا أن اسمي قد أدرج في إحدى هذه القوائم ، والمجرم الذي صدر الحكم بإعدامه لا يقدم على الانتحار ، لا ، أيا كان تقليبي للأمر ما كان الموسم مناسبا للانتحار ، بالمقابل انتظرت مقدم شيء ما يسدى إليّ جميل قتلى ، ذلك في التحليل النهائي يعادل القول بأنني

كنت في انتظار شيء ما يسدى إليّ جميل إبقائي حيا .

عقب عودتي للترسانة بيومين ، تلقيت خطابا ملتهب العاطفة من سونوكو ،لم يكن ثمة شك في أنها غارقة في هواي ، أحسست بالغيرة ، كانت غيرتي تحاكي تلك الغيرة عصية الاحتمال التي تشعر بها لؤلؤة صناعية نحو لؤلؤة طبيعية . أم ترى ثمة في الدنيا شيء كشعور رجل بالغيرة من المرأة التي تحبه بسبب حبها ذاك على وجه الدقة؟

كتبت تقول إنها ، بعد وداعي بالمحطة ، ركبت دراجتها عادت إلى العمل ، إلا أنها كانت شاردة إلى الحد الذي دفع زملاءها إلى سؤالها عما إذا كانت تشعر بتوعك ، ارتكبت أخطاء عديدة في وضع الأوراق بالملفات ، ثم عادت إلى الدار لتناول طعام الغداء ، لكن خلال عودتها إلى العمل عقب الغداء قامت بجولة مارة بأرض الجولف ، حيث توقفت ، تلفتت حولها ، وشاهدت موضوع أزهار البابونج التي رقدت تماما كما تركناها ، بعد أن داستها أقدامنا ، عندئذ وفيما كان الضباب ينجاب لحت جوانب البركان تلتمع متألقة بلون أكسيد الحديد المحروق ، مطلة كأنما غسل الجبل غسلا ، ورأت شجرتي البتولا الفضيتين مثلما شقيقتين عاشقتين وأوراقهما ترتعد ، كأنما رهبة من هاجس كالنذير . .

وقد كنت في هذ الوقت بعينه في القطار أقدح زناد فكرى باحثا عن طريقة للإفلات من الحب ذاته الذي غرسته بنفسي في قلب سونوكو! . . مع ذلك كانت ثمة لحظات أشعر فيها بالثقة وأسلم نفسي لحجة تبرير موقفي ، التي كانت برغم بؤسها ربما أكثر قربا إلى الحقيقة ، كانت هذه الحجة متمثلة في أن عليّ الهرب منها ، للسبب ذاته الذي أحببتها من أجله .

واصلت كتابة رسائل متتابعة لسونوكو ، وبينما حرصت على ألا أقول شيئا يمكن أن يدفع الأمر قدما ، استخدمت في الوقت نفسه نغمة لا تفصح عن أي تراجع من جانبي . في خلال أقل من شهر كتبت تخبرني بأنهم سيمضون جميعا لزيارة كوسانو مرة اخرى في الفوج ، الذي نقل قرب طوكيو حثني الضعف على مصاحبتهم ، ومن الغريب أنني ، رغم قراري الحاسم بالهرب منها ، كنت لا أزال مجتذبا على نحو لايقام نحو لقاء آخر .

حينما التقيت بها تبينت أنني تغيرت تماما ، فيما ظلت هي على ما كانت عليه دائما ، غدا من المستحيل عليّ الآن إلقاء نكتة واحدة ، لاحظت سونوكو وكوسانو ، بل وحتى أمها وجدتها ، التغير الذي طرأ عليّ ، لكنهم عزوه إلى أني جاد في مقصدى ، وخلال الزيارة أبدى كوسانو ملاحظة لي جعلتني أرتجف ترقبا ، رغم أنه طرحها بهدوئه المألوف :

- سأرسل لك في غضون أيام قلائل خطابا بالغ الأهمية فترقبة! هل ستحرص على ذلك؟

بعد أسبوع مضيت لدار الضواحي ، حيث كانت العائلة تقيم ، فألفيت خطابه قد وصل كتب بذلك الخط الذي يميزه ، ويفصح من خلال افتقاره للنضج ذاته عن إخلاص صداقته :

« . . . تبدى العائلة كلها اهتماما بك وبسونوكو ، وقد عينت سفيرا مطلق الصلاحية في الأمر ، وما يتعين عليّ قوله ليس كثيراً ، أريد ببساطة أن أسألك عن شعورك حيال الأمر ، من الطبيعي أن سونوكو تعتمد عليك ، وكذلك الجميع أيضا ، بل إن أمي شرعت فيما يبدو بالتفكير في موعد الحفل . ربما كان

الوقت لا يزال مبكرا بالنسبة لهذا ولكن أتصور إنه سيكون مما لا غبار عليه أن نمضي قدما ونحدد موعدا للخطوبة الآن ، لكننا بالطبع نخمن فحسب ، ذلك هو السبب في أنني أريد أن أسألك عن شعورك بإزاء الأمر . وترغب العائلة في تسوية كل شيء ، بما في ذلك إجراء ترتيبات مع عائلتك ، بمجرد تلقينا لرد منك لكنني بالتأكيد لا أقصد إجبارك على القيام بخطوة لست مستعدا لها بعد ، وما عليك إلا أن تبلغني بشعورك نحو الأمر ، فأكف عن القلق بشأنه ، وحتى إذا كان ردك سلبا ، فلن يكون ذلك مأخذا عليك ، كما لن يغضبني منك ، ولن يؤثر على صداقتنا ، بالطبع سأسر إذا كان الرد إيجابا ، لكن إحساسي لن يجرح ، حتى إذا كان الرد بالسلب ، ما أريده إنما هو ردك الصحيح ، دونما ضغوط . آمل مخلصا أنك سترد ، دونما شعور بالإرغام أو الإلتزام ، وفي انتظار ردك سأظل صديقك المخلص . . .» .

صعقت ، تلفت حولي ، وقد خالجني شعور بأن أحدا ربما كان يرقبني ، خلال قراءتي للخطاب .

أبدا لم يخطر لي قط على بال أن ذلك يمكن أن يحدث ، لم أضع في اعتباري أن سونوكو وعائلتها قد يكون لهم موقف إزاء الحرب يختلف كثيرا عن موقفي ، كنت طالبا ، لما أبلغ الواحدة والعشرين بعد ، وأعمل في مصنع للطائرات[1] . أضف إلى ذلك أني فكرت كثيرا وقد نشأت عبر سلسلة من الحروب في التقلب الرومانسي للحرب ، غير أنه حتى في غمار أوقات الكوارث العنيفة كتلك التي مضت بنا الحرب إليها كانت الإبرة المغناطيسية للأمور

1- كذا في الأصل، لاحظ أن ميشيما أشار قبل سطور إلى العمل في ترسانة بحرية لا في مصنع للطائرات . (هـ م).

الإنسانية لا تزال تشير في الاتجاه ذاته كعهدها أبدا . كنت حتى الآن أظن أنني غارق في الحب ، فلماذا لم أدرك أن الأمور اليومية ومسؤوليات الحياة تمضي قدما حتى في زمن الحرب؟

مع ذلك ، وفيما كنت أعيد قراءة خطاب كوسانو ، تلاعبت ابتسامة غريبة ، واهنة ، على شفتي ، وأخيرا تنامى بداخلي شعور عادي تماماً بالتفوق . رحت أحدث نفسي : إنني قاهرة . إن شخصا لم يعرف السعادة يوما لا حق له أن يسخر منها ، لكنني أفلحت في اتخاذ مظهر للسعادة ، لم يستطع أحد أن يرصد فيه صدعا واحدا ، هكذا فإن من حقي أن أسخر منها كالآخرين .

رسمت ابتسامة شيطانية على شفتي ، رغم أن قلبي فاض بقلق وأسى لا يوصفان ، رحت أحدث نفسي بأن ما عليّ القيام به هو القفز فوق عائق واحد صغير ، كل ما عليّ إتيانه هو النظر إلى الشهور القليلة الماضية باعتبارها عبثا ، واتخاذ قرار بأنه من الآن فصاعداً لن تربطني صلة الحب بفتاة اسمها سونوكو ، ليس بمثل هذه الطفلة الصغيرة ، وأن أومن بأن ما دفعني هو عاطفة تافهة (يا للكاذب!) وأنني قد خدعتها ، عندئذ لن يكون هناك سبب يدعوني إلى العجز عن رفضها ، يقيني أن مجرد تبادل قبلة لا يلزمني! .

ابهجتني الخاتمة التي وصلت بي أفكاري إليها :«إنني لا أحب سونوكو» .

يا له من شيء رائع! لقد أصبحت رجلا يستطيع إغواء امرأة حتى بغير شعور بالحب نحوها ، ثم حين يتوهج الحب في أعماقها ، يتخلى عنها دون أن يعير الأمر كبير اهتمام . ما أبعد ما كنت عن الطالب المتفوق المستقيم أخلاقيا والورع دينيا الذي كان مظهري يوحي به . . . مع ذلك ما كان ممكنا أن أكون

جاهلا حقيقة أنه ليس هناك فاجر يتخلى عن امرأة دون أن يحقق غرضه أولا ، لكنى تجاهلت مثل هذه الأفكار . كنت قد اكتسبت عادة صم أذني تماما ، شأن عجوز عن أي شيء لا أرغب في سماعه .

كان الشيء الوحيد الذي تمس الحاجة إليه هو الوصول إلى طريقة للإفلات من الزواج ، وقد عكفت على هذه المهمة ، تماما كما لو كنت عاشقا غيورا يتصدى للحيلولة دون إتمام الزواج بين الفتاة التي يهواها وشخص آخر .

كانت حديقة الخضر الشاسعة تتألق تحت أشعة شمس الصيف القوية . رفعت صفوف من ثمار البندورة والباذنجان رؤوسها الظمأى نحو الشمس متحدية وعلى نحو حاد . واصلت الشمس سكب أشعتها الحارقة كثيفة على الأوراق قوية العروق ، على امتداد البصر ، كانت الوفرة القائمة لحياة الخضر تنسحق تحت الألق ، الذي يهوى على الحديقة ، امتدت أجمة من الأشجار ، فيما وراء الحديقة ، حول ضريح كان يواجهني على نحو كئيب ، امتد وراء ذلك أرض سهلية كانت قطارات المترو تمضى عبرها دون أن يطالها النظر بين الفينة والفينة ، مفعمة أرجاء الريف بالاهتزازات . لقد ظل اندفاع لاه لعامود القاطرة المرتفع كان السلك يبقى متأرجحا في تكاسل ، وهو يومض في سنا الشمس .

فتحت النافذة ، وناديت أمي .

ردا على ندائي ارتفعت قبعة ضخمة من القش ومنديل ذو شرائط زرقاء من قلب حديقة الخضر . كانت أمي . أما خالي الذي يضع قبعة القش على رأسه ، وكان الشقيق الأكبر لأمي ، فقد وقف ساكنا ومنحنيا ، كأنه زهرة عباد الشمس متهدلة ، دون أن يلتفت للحظة ناحيتي .

في غمار طريقة حياة أمي الآن لوحت الشمس بشرتها هونا ما ، كان بمقدوري أن ألمح وميض أسنانها الناصعة ، فيما هي تقبل نحوى ، حينما اقتربت بحيث يصلني صوتها ، نادتني بصوت طفولي عالي النبرة :

- ماذا هناك؟ إذا كانت تريد محادثتي بشيء فتعال هنا!

- إنه أمر مهم ، تعالى لحظة!

دنت أمي متمهلة ، كأنها تسجل اعتراضها . كانت تحمل سلة مثقلة بالبندورة الناضجة ، حينما بلغت الدار وضعت السلة على حافة النافذة ، وسألتني عما أريده .

لم أعرض الخطاب عليها ، وإنما حدثتها باختصار عما يتضمنه ، في غمار حديثي نسبت سبب مناداتي لها ، ربما كنت أثرثر لأقنع نفسي فحسب ، قلت لها إن من ستكون زوجتي سيتعين عليها يقينا أن تتحمل العيش في الدار ذاتها مع أبي العصبي اللجوج ، وإنه ليس ثمة أمل في الحصول على دار منفصلة في أوقات كهذه ، إضافة إلى هذا فإنه من المحتمل أن توجد خلافات الدنيا بأسرها بين عادات عائلتنا العتيقة وما وصفته بأسرة سونوكو المتدفقة بالحياة التي تميل للمأخذ السهل للأمور ، أما عني فإنني لا أرغب في تحمل قلق المسؤولية عن زوجة بهذه السرعة . . طرحت جميع هذه الاعتراضات المبتذلة ببرود ، آملا أن تقرني أمي ، وتعارض في عناد أي تفكير في الزواج ، لكنها كانت هادئة ومتسامحة كعهدها .

قاطعت حديثي ، كأنهالا تبدي اهتماما كبيرا بالأمر :

- تلك طريقة مضحكة للحديث ، إذن ما هو شعورك حقا؟ أتحبها أم لا؟

غمغمت قائلا :

- بالطبع ، فإنني أيضا . . . طيب . . . لكنني لم أكن جادا بشأن الأمر إلى هذا الحد على الاطلاق ، لقد أخذت الأمر بين الجد والهزل فحسب ، ثم أصبحت هي جادة ، واجتذبتني إلى منطقة الخطر .

- إذن ليست هناك مشكلة . أليس كذلك؟ كلما أسرعت في إيضاح الأمر كان ذلك أفضل لكما معا ، وفي النهاية فإن الخطاب يحاول فحسب تبين شعورك بالنسبة لهذا الأمر ، فخير لك أن ترسل ردا واضحا . . . سأعود . كل شيء على ما يرام الآن . أليس كذلك .

أجبت بتنهيدة قصيرة :

- إحم .

مضت أمي حتى البوابة المصنوعة من الخيزران ، التي ينمو القمح حولها ، ثم عادت مسرعة في عصبية إلى النافذة حيث كنت ، كان التعبير الذي يعلو ملامحها الآن مختلفاً .

حدجتني بنظرة غريبة ، كأنها امرأة غريبة تنظر نحوى للمرة الأولى :

- إصغ ، فيما يتعلق بما كنا نتحدث عنه توا ، فيما يتعلق بسونوكو ، أنت . . . هي . . . لو أنكما كنتما . . . طيب . . .

أدركت ما تقصد ، ضحكت ، وقلت :

- لا تكوني حمقا ، يا أمي ، أتعتقدين أنني أتيت أمرا كهذا؟

هل ثقتك بي محدودة إلى هذه الدرجة؟

شعرت بأنني لم أضحك قط بهذه المرارة .

عادت إلى هدوئها المرح ، مخفية حرجها ، وقالت :

- أوه ، كنت أعلم ، لكنني فقط أردت التأكد ، هذا هو واجب الأمهات . . . إن يقلقن بشأن مثل هذه الأمور ، لا عليك ، إني أثق بك . . .

في تلك الليلة سطرت خطاب رفض غير مباشر ، بدا مصطنعا ، حتى بالنسبة لي ، كتبت أقول إن الأمر كان مفاجئا للغاية ، وإن مشاعر لم تمض إلى هذا الحد تماما .

في طريق عودتي إلى الترسانة وصباح اليوم التالي توقفت عند مكتب البريد لأرسل الخطاب ، نظرت المرأة الجالسة أمام شباك البريد المسجل في تشككك إلى يدى المرتعدتين . رحت أحدق في الخطاب وهي تمسك به بيديها الخشنتين القذرتين وتختمه بحذق ، استشعرت راحة لدى رؤية تعاستى تعالج بمثل هذه الطريقة العملية الموفقة .

غيرت الطائرات المعادية أهدافها الآن ، أخذت تهاجم المدن والبلدان الأصغر ، بدا الأمر وكأن الحياة قد أعتقت من الخطر كله ، وغدت وجهات النظر المتعاطفة مع الاستسلام شائعة في صفوف الطلاب ، شرع أحد الأساتذة المساعدين الشبان في طرح إيماءات موحية إلى السلام ، محاولا اكتساب رضا الطلاب . لدى رؤيتي للطرف المتشامخ لأنفه القصير ، فيما هو يعبر عن أكثر وجهات النظر إثارة للتشكك رحت أحدث نفسي قائلا :«لا تحاول خداعى!» . وكنت ، من ناحية أخرى ،أزدرى المتعصبين ، الذين لا يزالون يؤمنون بالانتصار .

تساوى عندى أن ننهزم في الحرب أو ننتصر كان الشيء الوحيد أريده هو بدء حياة جديدة .

فيما كنت في زيارة للدار بالضواحي ، أصبت بحمي شديدة الوطأة ومجهولة السبب ، رقدت محدقا في السقف ، الذي بدا وكأنه يدور بتأثير الحمى ، رحت أردد اسم سونوكو لنفسي بلا انقطاع ، كأنه تعويذة مقدسة ، حينما تمكنت أخيرا من مبارحة الفراش سمعت نبأ تدمير هيروشيما .

كانت تلك فرصتنا الأخيرة ، ردد الناس أن طوكيو ستكون الهدف التالي . إرتديت قميصا أبيض وسراويل قصيرة ، وجبت الشوارع ، بلغ الناس حدود اليأس ، وأصبحوا يعكفون الآن على أمورهم بوجوه مرحة ، بين لحظة وأخرى كان الشيء المرتقب يواصل الغياب ، سادت استثارة مرحة كل مكان ، وكنت كمن يواصل نفخ بالون منتفخ بالفعل ويتساءل :

«ترى أينفجر الآن؟ ترى أينفجر الآن؟» ومع ذلك لا يقع شيء بين لحظة وأخرى . دامت هذه الحالة عشرة أيام تقريبا ، ولو أنها استمرت أكثر من ذلك لما أمكن أن يحدث شيء إلا أن يجن المرء .

ذات يوم شقت بعض الطائرات المموهة طريقها ، عبر نيران المدفعية المضادة الخرقاء . أمضرت من سماء الصيف مشورات دعائية ، وقد تضمنت أبناء عن مقترحات الاستسلام ، في ذلك المساء أقبل أبي من مكتبه مباشرة إلى الدارة بالضواحي ، عبر الحديقة تحدث فور جلوسه في الشرفة .

قال :

- إصغ!

أراني نسخة من النص الانجليزي الأصلى ، كان قد حصل عليها من مصدر موثوق به .

أمسكت النسخة بيدى ، ولكن حتى قبل أن يتاح لي الوقت لقراءتها كنت قد أدركت بالفعل صحة الأنباء ، لم تكن صحة الهزيمة ، إنما بالنسبة لي- بالنسبة لي وحدي- كانت تعنى أن أياما مخيفة تبدأ الآن ، كانت تعنى أنه ، شئت أم أبيت ، وعلى الرغم من كل شيء خدعني ، ودفعني إلى الاعتقاد بأن مثل هذا اليوم لن يأتي أبدا ، فان عليّ أن أبدأ في اليوم التالي ذاته تلك «الحياة اليومية» التي يعشها عضو المجتمع الإنساني . ولشد ما جلعتني الكلمات ذاتها أرتعد!



الفصل الرابع

خلافا لتوقعاتي ، لم تلح أدنى إمارات بداية تلك الحياة اليومية التي كنت أرهبها ، بدا الأمر كما لو أن البلاد كانت غارقة في ضرب من الحرب الأهلية ، لاح الناس وكأنهم يبدون اهتماما أقل بالغد عما كانوا يفعلون خلال الحرب الحقيقية .

أعفى رفيق الدراسة الذي أقرضنى الزي الجامعي من الجيش ، فأعدته إليه ، عندئذ اعتادنى لبعض الوقت وهم التحرر من إسار الذكريات ، من ربقة ذكريات ماض بأسره .

ماتت أختى ، فنالتني لمسة من راحة ذهنية ، نبعت من اكتشافي أن إنسانا مثلي بوسعه أن يسفح الدمع .

خطبت سونوكو رسميا ، وسرعان ما تزوجت إثر وفاة أختى ، أتراني أصيب كبد الحقيقة حين أقول بأن رد فعلى إزاء هذا الحدث كان شعورا بأن وقرا أثقل كاهلي قد رفع عنى؟ تظاهرت أمام نفسي بأني مسرور لذلك ، وتفاخرت بإزائها بأن ذلك لا يعدو أن يكون أمرا طبيعيا ، حيث أننى أنا الذي نبذتها ، لا هي .

كنت أصر منذ وقت طويل على تفسير الأمور التي يجبرني القدر على

إتيانها ، باعتبارها انتصارات لإرادتي وذكائي ، الان نمت هذه العادة السيئة ، فغدت صلفا مجنونا ، كمنت ، في غور ما كنت أدعوه بذكائي ، لمسة من شيء غير مشروع ، لمسة من الدعى الدجال الذي اعتلى العرش من خلال صدفة نادره ، وما كان بوسع هذا الدعى الأبله أن يتنبأ بالانتقام الذي سيحل لا محالة بطغيانه الأحمق .

أمضيت العام التالي بمشاعر غامضة ، متفائلة ، كانت هناك دراساتي للقانون ، التي رحت أمارسها دونما حماس ، وترددي جيئة وذهابا على الجامعة . . لم أكن أكترث بشيء ، ولم يكن شيء يبدى اهتماما بي ، اكتسبت ابتسامة مجرب ، كتلك التي ترتسم على شفتي كاهن شاب ، راودني شعور بأني لا أموت ولا أحيا ، بدت رغبتي السابقة في الموت الانتحاري الطبيعي والعضوى وكأنها قد تآكلت تماما ، وأدركها النسيان .

الألم الحق يقبل تدريجيا فحسب ، إنه كالسل تماما ، من حيث أن المرض يكون قد تمكن من المريض ، قبل أن يدرك أعراضه .

ذات يوم توقفت في مكتبة ، حيث كانت إصدارات جديدة تعاود الظهور بالتدريج ، تصادف أن وقعت في يدى ترجمة ذات غلاف ورقى خشن ، كانت مجموعة من عبارات بليغة لكاتب فرنسي ، فتحت الكتاب بصورة عشوائية ، وأمام عيني احترق أحد السطور ، إقتحمني شعور حاد بعدم الارتياح ، فأجبرني على طى الكتاب وإعادته إلى الرف .

صباح اليوم التالي ، في طريقي إلى الكلية ، تملكني شيء ما فأرغمني على التوقف عند المكتبة ذاتها ، التي كانت قريبة من البوابة الرئيسية للجامعة ،

وابتياع الكتاب الذي رأيته خلسة ، وضعته أمام كراستي المفتوحة ، وطاردت السطر ذاته عبر الصفحات ، الآن جعل هذا السطر شعورا أكثر تدفقا بالقلق ينتابني بالمقارنة بشعور الأمس :

. . . إن معيار قوة امرأة ما هو درجة المعاناة التي يمكن أن تعاقب بها عاشقها .

كان لي صديق بالجامعة يربطني الود به ، كانت أسرته تمتلك حانوتا عريقا لصنع الحلوى ، للوهلة الأولى بدا طالبا مجدا ، لا يثير الاهتمام ، أثارت النغمة الساخرة التي كان يستخدمها في مواجهة الناس والحياة ، وكذلك بنيته الهشة المماثلة لتركيبي الجسدي ، انجذابا متعاطفا فيّ نحوه ، لكن فيما كانت نزعتي الكلبية تنبعث من رغبة خلق الانطباع بهذا عنى ، وكانت موجهة للدفاع عن الذات ، فإن الموقف ذاته عنده بدا وكأنه يضرب جذوره في شعور أكثر تجذرا بالثقة في النفس ، رحت أتساءل عن المصدر الذي يستمد منه ثقته ، بعد انقضاء بعض الوقت خمن أني لست على خبرة بالنساء ، فاعترف لي ، وهو يتحدث في مزيج من الاستعلاء الغلاب واحتقار الذات ، بأنه يرتاد المواخير ، ثم مالبث أن عبر عن مشاعري إزاء هذا الموضوع .

- . . . هكذا فإن أحببت الذهاب ذات مرة فما عليك إلا مكالمتي هاتفيا ، وسأصحبك إلى هناك في أي وقت .

أجبت قائلا : إذا أحببت الذهاب ، ليكن . . . ربما . . . سأحسم رأيي قريبا .

بدا مرتبكا ، لكنه رغم ذلك لاح مبتهجا بالفوز ، عكس التعبير الذي

ارتسم على ملامحه شعوري بالخجل ، بدا كما لو كان يتفهم تماما حالتي الذهنية ، وأنه يتذكر ذلك الوقت الذي عايش فيه على وجه الدقة المشاعر ذاتها ، انتابني الضيق ، كان هناك ذلك الشعور القلق غائر الأعماق فيّ بالفعل بالرغبة في أن أحس بالإحساس الذي يظن أني أعيشه .

ليس الاحتشام المفرط إلا شكلا من أشكال الأنانية وسبيلا لحماية الذات ، تقتضيه قوة رغبات المرء ، لكن رغباتي الحقيقية كانت مغرقة في السرية ، حتى أنها ما كانت لتسمح لي حتى بهذا العكوف على الذات ، وفي الوقت ذاته سمحت لي رغبات خيالية ، أي فضولي البسيط والمجرد بشأن النساء ، بتلك الحرية الباردة التي تجذرت حتى لم تسمح بمجال لهذه الأنانية في تلك الرغبات الخيالية بدورها ، ليست هناك فضيلة في الفضول ، بل إنه في الحق قد يكون أكثر الرغبات التي تنتاب الرجل تجردا من الأخلاق .

ابتدعت ممارسة سرية بائسة ، كان قوامها اختبار رغبتي ، بالتحديق في ثبات إلى صور نسوة عاريات . . كانت رغبتي ، كما يسهل التصور ، لا ترد بالإيجاب أو السلب ، لدى انغماسي في عادتي السيئة تلك كنت أحاول ضبط رغبتي ، أولا من خلال كبح جماح أحلام يقظتي ، ثم عقب ذلك باستدعاء صور عقلية لنسوة في أكثر الأوضاع فحشا عنوة ، في مرات بدت جهودي مكللة بالنجاح ، لكن الزيف كان يكتنف هذا النجاح ، فيسحق قلبي سحقا ، ويحيله رمادا .

وصلت إلى القناعة بأن الأمر غدا قضية حياة أو موت ، اتصلت هاتفيا بصديقي ، طلبت منه مقابلتي في أصيل يوم من أيام الآحاد ، في الساعة الخامسة ، عند أحد مشارب الشاي ، كان ذلك في حوالي منتصف يناير في

العام الثاني لانتهاء الحرب .

ضحك مبتهجا عبر الهاتف ، قال :

- هكذا حسمت الأمر أخيرا؟ ليكن ، سأكون هناك ، إسمع ، سأكون هناك بالتأكيد ، لن أسامحك إذا لم تأت . . .

بعد أن وضعت سماعة الهاتف في موضعها ، ظل صوته الضاحك يتردد في مسمعي ، كنت أدرك أنني عجزت عن مقابلة ضحكه إلا بابتسامة حفية متشنجة ، رغم ذلك شعرت بشعاع من الأمل ، أو فلنقل خرافية ، كانت خرافة خطرة ، فالغرور وحده يجعل الناس يركبون المخاطر ، وفي حالتي كان الغرور المألوف القائم على رغبتي في ألا يعرف عنى أنني لا خبره لي بالنساء في الثانية والعشرين من عمري .

الآن فيما أتفكر في الأمر ، أذكر أني في يوم ميلادي قررت على هذا النحو أن أتجلد لمواجهة هذا الاختبار .

حدق أحدنا في الآخر ، كما لو كان كل منا يحاول سبر غور ذهن الآخر ، اليوم أدرك صديقي بدوره أن وجها متجهما أو ابتسامة عريضة سيكونان بلا معنى بالدرجة ذاتها ، فراح يمج دخان السيجارة مسرعا من شفتيه ، اللتين تجردتا من أي تعبير ، عقب كلمات تحية قلائل شرع في الحديث بصورة غير شخصية ، عن النوعية المتدنية للحلوى التي تقدم في هذا المشرب ، لم أكن أصغى إليه ، فقاطعت ملاحظاته :

- أتساءل عما إذا كنت قد حسمت رأيك بدورك ، أتساءل عما إذا كان

الشخص الذي يصحب أحدا لمثل هذا المكان للمرة الأولى يصبح صديقا طوال الحياة أو عدوا على امتدادها .

- لا تخيفني ، تعلم أي جبان أنا ، ولست أدري كيف أقوم بدور العدو طوال الحياة .

خففت وطأة الحديث ، قاصدا ، مدعيا الشجاعة .

قال ، وقد بدا جادا ، كأنه رئيس لإحدى اللجان : طيب ، إذن ، علينا أن نمضي إلى مكان ما لنحتسي شرابا فالأمر لا يثقل على المتبدئ إذا كان مخمورا .

شعرت بوجنتي تتثلجان ، فقلت :

- لا ،لا أريد شرابا ، سأذهب دون احتساء كأس واحد ، فأعصابي ستكون متماسكة بدونه .

في تتابع سريع توالت مسيرة بعربة كابية ، محطة مرتفعة غير مألوفة ، شارع غريب ، منعطف اصطفت عنده البنايات السكنية المهلهلة ، وأضواء وردية وحمراء ، بدت وجوه النساء تحتها منتفخة . كان العملاء يمضون على امتداد شارع رطب ، يمر أحدهم بالآخر صامتا ، ووقع أقداهمهم مكتوم ، كأنهم حفاة ، لم أشعر بأدنى رغبة ، لم يكن هناك ما ينخسني الآن غير شعور بعدم الارتياح ، تماما كما لو كنت طفلا يتبهل من أجل الحصول على وجبة خفيفة في الأصيل .

قلت : سيفي أي مكان بالغرض ، سيفي أي مكان بالغرض ، أقول لك .

شعرت كما لو كنت أرغب في التحول عائدا والإسراع بالهرب من الأصوات الخشنة الاصطناع للنسوة اللاتي يقلن : توقف لحظة يا حبيبي ، انتظر لحظة فحسب أيها الحبيب . .

- الفتيات في هذه الدار خطرات . . . أتروقك هذه؟ يا إلهى ، أي وجه هذا! لكن تلك الدار- على الأقل آمنة بصورة طيبة .

قلت : الوجه لا يخلق فارقا .

- ليكن ، إذن ، سأخذ الفتاة الجميلة لمجرد تحقيق فارق ، لا تحسدني على ذلك فيما بعد!

لدى مقدمنا ، هبت المرأتان ، كما لو كان شيطان قد تملك ناصيتهما ، دلفنا إلى الدار ، التي كانت من الصغر بحيث أن رؤوسنا بدت كما لو كانت تمس السقف فيما كنا ندخل ، اقتادتني المرأة النحيلة ذات اللهجة الريفية ، وهي تبتسم مفترة عن أسنانها الذهبية ولثتها ، إلى غرفة صغيرة ذات ثلاث حشايا .

دفعني شعور بالواجب إلى معانقتها ، أمسكت بها بين ذراعي ، أوشكت على تقبيلها ، فاهتز كتفاها الثقيلان في جنون الضحك .

- لا تفعل هذا! سيلطخك أحمر الشفاه ، هكذا .

فتحت العاهرة فمها الواسع وأسنانها الذهبية التي يؤطرها طلاء الشفاه ، أبرزت لسانها القوى كالعصا ، حذوت حذوها ، أبرزت لساني أيضا ، فتسافد طرفا لسانينا . .

ربما لن يفهمني أحد حينما أقول إنه كان هناك خدر يحاكي ألما وحشيا ،

شعرت بجسدي كله يصيبه الشلل ، إذ يخترمه ألم من هذا النوع ، ألم حاد ، رغم ذلك لا يمكن الشعور به على الإطلاق ، أسقطت رأسي على الوسادة .

بعد عشر دقائق لم يعد هناك شك في عجزى ، اصطكت ركبتاي ، لفرط شعوري بالعار .

أعتقد أن صديقي لم يساوره شك فيما حدث ، خلال الأيام القليلة التالية أسلمت نفسي على نحو مذهل لمشاعر النقاهة المريرة ، كنت كمن يعاني مرضا مجهولا ، ويعذبه الخوف ، ذلك أن مجرد معرفته باسم مرضه ، حتى وإن كان لا علاج له ، يمنحه شعورا مدهشا بسكينة عابرة ، رغم ذلك فإنه يعرف تماما أن هذه السكينة عابرة ، أضف إلى ذلك أنه يستشعر في قلبه يأسا أعمق ، لا نجاة منه ، يمنح بطبيعته ذاتها شعورا أكثر دواما بالسكينة ، لربما توقعت بدوري ضربة أكثر استحالة من حيث إمكانية تجنبها ، أو إذا شئنا التعبير عن الأمر على نحو آخر لقلنا إنى كنت أتوقع شعورا لا نجاة منه بصورة أكبر بالسكينة .

التقيت بصديقي في الأسابيع التالية بالكلية مرأت عديدة ، لكن أيا منا لم يشر لهذا الحداث ، عقب شهر من وقوعه ، أقبل ذات مساء لزيارتي ، مصطحبا طالبا آخر ، هو من بين معارفنا المشتركين ، كان اسمه يبدأ بحرف «ت» . وكان من المولعين بالنساء ، يجتاحه الغرور ، فيتباهي دائما بأن بوسعه الإيقاع بأية فتاة في خمس عشرة دقيقة ، سرعان ما تحولت دفة حديثنا إلى الموضوع الذي يخصني .

قال «ت» . محدقا فيّ عن كثب : لم يعد بمقدوري مواصلة الحياة دون هذا الشيء ببساطة لم أعد استطيع التحكم في نفسي ، وإذا كان أي من أصدقائي

عاجزا فإني أحسده حقا ، بل وأنحنى أمامه .

رأى صديقي لون وجهي يتبدل ، فحول الحديث إلى موضوع جديد مخاطبا «ت» . قال :

- لقد وعدت بإعارتي أحد كتب مارسيل بروست؟ أتذكر ذلك؟ أهو كتاب مثير؟

قال «ت» . مستخدما الكلمة الأجنبية : أقول بأنه مثير ، فبروست لوطي ، وكانت له غراميات مع الخدم .

تساءلت :«ما معنى لوطي؟» أدركت أني باصطناعي الجهل كنت أضرب الهواء بمخالبي ، يائسا ، متشبثا بهذا السؤال الصغير لأتماسك ، محاولا التوصل إلى مفتاح لأفكارهما ، إلى إشارة ما تنم عن أنهما لم يتشككا في فضيحتي .

- اللوطي هو اللوطي ، ألا تعلم ، إنه «دانشوكوكا» .

- أوه . . . لكني لم أسمع أبدا أن بروست كان كذلك .

كان بوسعي أن أحدس أن صوتي يرتجف ، لو بدا الضيق عليّ لكان ذلك مماثلا لتقديم دليل إيجابي لرفيقيّ ، خجلت من قدرتي على الاحتفاظ بمظهر كهذا المظهر المخجل ، القائم على التجاهل ، كان من الجلى أن صديقي قد اشتم سرى بشكل ما ، بدا لي أنه يفعل كل ما بوسعه لتجنب النظر إلى وجهي .

أخيراً غادر زائراي الرجيمان الدار في الساعة الحادية عشرة ، فاغلقت الباب على نفسي ، لأقضي ليلة مؤرقة في غرفتي ، بكيت منتحبا ، إلى أن طافت بي تلك الرؤى المخضبة بالدماء ، لتحمل لي العزاء عندئذ أسلمت نفسي

لها ، لتلك الرؤى الوحشية على نحو مقيت ، التي كانت أكثر أصدقائي حميمية وقربا مني .

كان بعض التغيير أمرا ضروريا ، فبدأت بصورة معتادة في ارتياد اللقاءات التي تشهدها دار صديق قديم ، عارفا بأنها لن تترك شيئا في ذهني إلا ذكرى الحوار البليد والمذاق الماسخ لما بعد الأحداث ، كنت أذهب إلى هناك ، لأن أولئك المترددين على هذه الحفلات من علية القوم- على عكس رفاق الدراسة- على قدر من الود ، وكان من اليسير التعرف بهم ، كان من بيهم العديد من الشابات المتكلفات ، مغنية سوبرانو شهيرة ، عازفة بيان متفتحة كالزهرة ، والعديد من الزوجات الشابات اللاتي لم يتزوجن إلا حديثا . كان هناك الرقص وقليل من الشراب ، والقيام بألعاب سخيفة ، من بينها ضرب مثير قليلا من ضروب لعبة المطاردة ، وفي بعض الأحيان كانت الحفلات تستمر حتى الفجر .

كنا نجد أنفسنا في الساعات الأولى للصباح ، وقد داهمنا النعاس ، فيما نحن نرقص ، ولكى نبقى على يقظتنا كنا نمارس لعبة ، تعتمد على إلقاء الوسائد على أرض القاعة والرقص حولها في دائرة ، إلى أن يتوقف الحاكى فجأة ، عند هذه الإشارة كان علينا ان نجلس كل اثنين منا على وساةد ، ومن يفشل في العثور على وسادة يجلس عليها كان عليه أن يؤدي عملا بهلوانيا ، وكان الراقصون يحدثون جلبة عظيمة وهم يلقون بأنفسهم متكومين على الوسائد ، مع احتدام اللعبة لتكرارها مرارا عديدة كان الجميع- حتى النساء- يفقدون اهتمامهم بمظهرهم .

لربما كان الأمر يرجع إلى أن أجمل الفتيات كانت مخمورة قليلاً ، لكني أذكر أني رأيتها ذات مرة تضحك ، على نحو مثير ، دون أن تلاحظ أنه في غمرة

الاضطراب الناشئ عن السقوط على الوسائد ، ارتفعت تنورتها عاليا ، فانبلج فخذاها ، كان لحم فخذيها يتألق بياضا ، ولو أن ذلك حدث قبل وقت قصير لربما قلدت النحو الذي يخجل به الشبان الآخرون من رغبتهم ، في مثل ذهه المواقف ، وباستخدام كل مهارتي في تمثيل دور لم أنسه للحظة واحدة ، كنت سأشيح بناظريّ على الفور ، لكنني تغيرت منذ هذا اليوم ، فدون أدنى شعور بالخجل ، أو بالاحرى دون أدنى خجل في أعماق صفاقتي المتصلبة ، رحت أحدق في هذين الفخذين بهدوء ، كأنني أفحص مادة جامدة .

فجأة أصابني ذلك الألم القابض ، الذي ينبع من التحديق لوقت أطول مما ينبغي في شيء ما ، صاح بي الألم : لست بشرا إنك كائن عاجز عن التفاعل الاجتماعي ، لا تعدوأن تكون مخلوقا لا إنسانيا ، تدعو إلى الرثاء على نحو غريب .

كان وقت التأهب لامتحانات الخدمة المدنية قد أزف ، لحسن الحظ ، وكان على أن أكرس كل طاقاتي لدراسة جافة كالتراب استعدادا لاجتيازها ، مكنني هذا بصورة تلقائية جثمانيا وذهنيا من إبعاد الأمور الأكثر تعذيبا عنى ، لكن هذا التنصل لم يكن فعالا إلا لفترة قصيرة في البداية .

عاودنى ذلك الشعور بالاخفاق . الذي ثار فيّ تلك الليلة تدريجيا ، انتشر إلى كل منعطفات حياتي ، فأصابني الإحباط ، ولأيام بطولها عجزت عن مدى يدي إلى أي شيء ، بدت الحاجة إلى أن أبرهن لنفسي على أنني أتمتع بضرب من القوة أكثر إلحاحا كل يوم ، بدا أنه من المستحيل أن أواصل الحياة دون مثل هذا البرهان ، مع ذلك لم أستطع أن أكتشف في أي مكان مفتاح غرابتي الكامنة في أغوارى ، لم تتح هناك فرصة الإشباع رغباتي غير العادية حتى في

أكثر صورها اعتدالا .

أقبل الربيع . تصاعدت عصبية مسعورة خلف واجهة الهدوء التي كنت اصطنعها ، بدا كما لو أن الفصل ذاته يناصبني العداء ، معبرا عن عدائه برياحه المتربة ، ولو أن سيارة أوشكت أن تدهمني لعنفتها بصوت عال قائلا : طيب ، لم لا تمضين فتمرين فوقي!

سرتنى الدراسة الشاقة والوجود الاسبرطي الذي فرضته على نفسي ، في بعض اللحظات خلال دراستي كنت أتريض ، غالباً ما كنت أدرك أن الناس ينظرون متسائلين إلى عيني الحمراوين ، حتى حين كان من يراني يعتقد أني أراكم يوما حافلا بالاجتهاد فوق آخر ، كنت أعلم فحسب ذلك الإرهاق القارض الذي يتخذ من الانحدار والتحلل والبلادة مطلقة التعفن قواما له ، وطريقة للحياة لا تعرف للغد سبيلا . لكن ذات أصيل وفي نهاية الربيع كنت في حافلة ، فجأة شعرت بخفقة قلب حادة ، بدت أنفاسي معها وكأنها قد توقفت .

كان ذلك لأني . فيما كنت انظر إلى الركاب الواقفين بالحافلة ، لمحت سونوكو ، جالسة على الجانب الآخر من الحافلة . هناك ، تحت حاجبيها الطفوليين ، كان بوسعي أن أرى عينيها المخلصتين الوادعتين ، برقتهما التي لا سبيل إلى وصف عمقهما ، كنت على وشك النهوض حينما ترك أحد الركاب الواقفين النطاق المطاطي الذي كان ممسكا به ، وشرع في التحرك نحو باب النزول ، عندئذ تكشف وجه الفتاة ،لم تكن سونوكو .

قلبي كان لا يزال على اهتياجه ، كان يسيرا أن أوضح لنفسي أن خفقات

القلب تلك كانت راجعة إلى المفاجأة ، أو إلى الضمير المثقل بالذنب ، غير أن مثل هذا الإيضاح ما كان بوسعه أن يطيح بنقاء الشعور الذي عايشته للحظات ، فتذكرت للتو المشاعر التي خالجتني عند مشاهدة سونوكو ، ذات صباح في شهر مارس ، كان الأمر تماما كما عشته الآن ، الشيء ذاته الأمر عينه ، حتى فيما يتعلق بذلك الشعور بالأسى الذي اخترم قلبي .

أصبحت هذه الحادثة الهينة أمرا لا ينسى ، فأيقظت خلال الأيام القليلة التالية فيضا من الاستثارة في أعماقي . من المؤكد أنني لا يمكن أن أكون على عشقي لسونوكو ، من المحقق أنني عاجز عن عشق النساء ، حتى اليوم السابق كانت تلك القناعات أتباعي المطيعين ، والموثوق بهم الوحيدين ، الذين كنت على يقين من ولائهم ، أما الآن فإنهم بدورهم يتمردون عليّ .

بهذه الطريقة استبدت بي ذكرياتي فجأة ، كان انقلابا اتخذ شكل عذاب محض ، فجأة تعملقت الذكريات «التافهة» التي كان عليّ أن أزيلها تماما ، وألقي بها بعيدا ، قبل عامين استردت الحياة على نحو غريب أمام ناظريّ ، تماما مثل ابن سفاح نسي أمره ، ثم عاد وقد اكتمل نموه ، لم تكن هذه الذكريات مشوبة بأجواء «العاطفة الرقيقة» التي افتعلتها ، في تلك المناسبات العديدة ، أو بذلك المناخ العملي ، الذي استخدمته فيما بعد للتخلص منها ، وإنما كانت ممتزجة بمناخ واحد قاطع ، قوامه العذاب ، ولو أن الشعور الذي خالجني كان إحساسا بالندم لكان بوسعي التوصل إلى سبيل لاحتماله ، بالسير على الدرب ذاته الذي أناره من سبقوني إلى مثل هذه الموقف ، لكن ألمي كان عذابا جليا ، وليس ندما غائما ، كان الأمر كما لو أجبرت على التحديق من نافذة في انعكاس ألق شمس الصيف ، الذي يقسم الطريق إلى مفارقة حادة بين الشمس والظل .

ذات أصيل غائم ، خلال موسم المطر ، تصادف أنني كنت أسير في حي آزابو في مهمة ، وكان حيا من أحياء المدينة نادرا ما طرقته ، فجأة ناداني أحدهم من خلفي ، كانت سونوكو ، حينما التفت وأبصرتها ، لم تعترني الدهشة ، على نحو ما حدث لي في الحافلة . حينما خلطت بينها وبين فتاة أخرى ، بدا هذا اللقاء طبيعيا تماما كأنني تنبأت به طوال الوقت ، أحسست بأنني كنت أعرف كل شيء عن هذه اللحظة منذ وقت طويل .

كانت ترتدي رداء بسيطا تحليه زهور نمطية كتلك التي تحلى أوراق الجدران الراقية ، ولا تتحلى إلا بقلادة ، تتدلى على فتحة الرداء عند الصدر ، لم يكن هناك ما ينم عن أنها أصبحت الآن امرأة متزوجة ، ربما كانت عائدة إلى الدار ، إثر الحصول على حصص الطعام ، التي توزع بالبطاقات ، حيث كانت تحمل دلوا ، وتتبعها كذلك خادم عجوز تحمل دلوا آخر ، صرفت الخادم إلى الدار ، وسارت متجاذبة أطراف الحديث معي .

- أصبحت أنحف قليلا ، أليس كذلك؟

- آه ، بسبب العكوف على الدراسة تمهيداً لاجتياز الامتحانات . - هكذا؟ اعتن بصحتك!

سادنا الصمت لبعض الوقت ، تسللت أشعة الشمس الرقيقة إلى الشارع الهادئ ، الذي أفلت من القصف ، إنسلت بطة مبللة بالماء من باب أحد المطابخ ، مضت صاكة بصياحها السمع عبر الوحل أمامنا ، شعرت بالسعادة .

تساءلت : ماذا تقرأين هذه الأيام؟

- أتعني الروايات؟ طيب ، قرأت رواية تانيزاكي «البعض يفضلون الأشواك» ثم . . . قاطعتها : «ألم تطالعي . . .؟» وذكرت اسم رواية كانت ذائعة وقتها .

قالت : تلك التي تعلو غلافها امرأة عارية؟

قلت مندهشا : أوه؟

- إنها مثيرة للاشمئزاز ، صورة الغلاف تلك .

قبل عامين ما كان بمقدورها أن تنظر في وجه أحد وتقول «امرأة عارية» . جلبت حقيقة أنها استخدمت هاتين الكلمتين ،وهي حقيقة تافهة في ذاتها ، إدراكا واضحا ، على نحو مؤلم ، معها لمكون سونوكو لم تعد تلك الفتاة الخفرة التي عرفتها .

توقفت ، حينما بلغنا منعطفا ، وقالت : هنا ينبغي عليّ الانصراف ، فداري في نهاية هذا الشارع .

استشعرت ألما إزاء فكرة مفارقتها ، نكست رأسي ، تطلعت إلى الدلو الذي كانت تحمله ، كان مليئا بالكنياكو ، كتلة هلامية رجراجة ، تسبح في سنا الشمس ، تبدو كجلد امرأة ، لوحته الشمس على شاطئ البحر .

قلت : سيفسد الكنياكو ، فلا يعود بالوسع تناوله ، إذا تركته في الشمس طويلا .

ردت سونوكو بصوت عال ضاحك : هذا صحيح ، إنها مسؤولية كبيرة .

- طيب ، إلى اللقاء .

- نعم ، حظا سعيدا .

قالتها ، وشرعت في المسير بعيدا .

ناديتها ، سألتها عما إذا كانت تذهب لزيارة عائلتها ، ردت في يسر بأنها ستذهب إلى هناك يوم السبت المقبل .

افترقنا ، للمرة الأولى لاحظت شيئا مهما ، بدت اليوم وكأنها قد صفحت عنى ، لماذا غفرت ليّ؟ أيمكن أن تكون هناك إهانة أعظم من مثل هذه الشهامة؟ حدثت نفسي بأن ألمي قد يكف إذا ما أهانتني إهانة جلية مرة أخرى .

تثاقل يوم السبت في إقباله ، كان كوسانو يدرس في جامعة كيوتو ، ولكن شاء الحظ أن يعود للدار في زيارة عائلية ، فمضيت لمقابلته أصيل يوم السبت .

فيما كنا نتبادل الحديث ، سمعت صوت عزف بيان ، لم يكن العزف متعثرا كعهدي به حينما كنت أزور دار سونوكو قبل زواجها ، وإنما كان عارم الزخم ، مفعما بالترددات ، التي بدت محلقة في انطلاق ، متئمة بالنغم ، متزلقة البريق .

تساءلت : من الذي يعزف؟

رد كوسانو دون أن يدري من الأمر شيئا : إنها سونوكو في زيارة لنا اليوم .

في ألق مؤلم عادت الذكريات العتيقة تترى واحدة إثر الأخرى .

أثر فيّ أن كوسانو ، لمشاعره النبيلة نحوي ، لم يقل كلمة واحدة عن

رفضي غير المباشر لسونوكو ، أردت دليلا واحدا على أنها قد جرحت مشاعرها .
في ذلك الوقت ، شاقني أن اكتشف بعض التعاسة يتفق مع تعاستي ، لكن «الزمن» تدخل مرة أخرى ، متعملقا كالأعشاب البرية ، حائلا بيني وبين كوسانو وسونوكو ، أصبح من المستحيل علينا أن نعبر صراحة عن مشاعرنا ، دون أن يلونها الكبرياء أو الغرور أو التعقل .

توقف العزف ، كان لكوسان من الذكاء ما تساءل معه عما إذا كان بوسعه أن يدعوها للإنضمام لنا ، خرج ، عاد بعد قليل معها ، شرع ثلاثتنا في الثرثرة ، التي صاحبها الكثير من الضحك المجرد من المعنى عن المعارف في وزارة الخارجية ، حيث كان زوج سونوكو يعمل .

سرعان ما نادت أم كوسانو ولدها . فمضى ليلبي النداء ، تركنا أنا وسونوكو وحدنا معا في الغرفة ، تماما على نحو ما كنا قبل عامين .

حدثتني ، بغير قليل من الكبرياء ، عن كيف أن جهود زوجها هي التي انقذت دار آل كوسانو من المصادرة على يد سلطات الاحتلال ، من البداية وجدت تفاخرها جذابا ، ذلك أن المرأة بالغة التواضع تفتقد الجاذبية ، تماما كالمرأة المغرورة ، كانت ثمة أنوثة بريئة حييه في تفاخر سونوكو الهادئ مكبوح الجماح .

قالت ولا زال حديثها هادئاً : بالمناسبة ، هناك أمر أردت بإلحاح أن أسألك عنه . لكني لم أستطع طرحه من قبل ، ظللت أتساءل لماذا لم نتزوج ، بعد أن تلقيت بالرد الذي أرسلته إلى أخي لم استطع فهم شيء على الإطلاق عن هذا العالم ، لم أكن أصنع شيئا كل يوم إلا التساؤل ، حتى الآن ليس بمقدوري أن أفهم لِمَ لم نستطع الزواج .

أشاحت بوجهها قليلا عني ، وقد وسم الغضب ملامحها ، فبدت وجنتاها متوردتين ، ثم مضت في حديثها ، كما لو كانت تطالع بصوت عال :

- أكان ذلك لأنك كرهتني؟

بدا سؤالها مباشرا ، كأنه سؤال في العمل ، فاستجاب له قلبي بضرب من البهجة العنيفة والمؤلفة ، في لحة تحولت هذه البهجة المنتصرة إلى ألم ، كان ألما مراوغا حقا ، ثمة قدر من الألم كان أصيلا ، ولكن فيما وراء ذلك كمن أيضا عذاب الكبرياء الجريح ، لدى اكتشاف أن بعث الأحداث «التافهة» التي انقضت قبل عامين ، أمك أن يجعل قلبي يتألم ، على هذا النحو ، أردت أن أتحرر منها ، لكني وجدت ذلك مستحيلا ، كذي قبل .

قلت لها : ما زلت تجهلين كل شيء عن أمور الدنيا ، تلك إحدى مزاياك ، جهلك بأمور هذا العالم ، لكني أصغي إليّ ، هذا العالم لم يخلق ليكون بمقدور عاشقين أن يتزوجا فيه دائما ، هذا هو على وجه الدقة ما كتبته إلى أخيك إضافة إلى ذلك . . .

شعرت بأنني مقبل على قول شيء أنثوي ، لكني لم استطع التوقف .

- . . . إضافة إلى ذلك ، فإنني لم أقل صراحة في أي موضوع من رسالتي إلى أخيك إنه لا موضع للحديث عن الزواج ، كما قلت فالأمر يرجع إلى أنني كنت لا أزال في الحادية والعشرين من عمري أواصل دراستي ، كان الأمر مفاجئا ، فيما كنت مترددا مضيت أنت فتزوجت بمثل هذه السرعة .

- طيب ، فيما يتعلق بي ليس لدى سبب يدعوني للندم ، فزوجي يحبني

وأنا أحبه كذلك ، إنني سعيدة حقا ، ليس هناك المزيد مما أريده ، رغم ذلك وربما كان أمرا سيئا أن أفكر على هذا النحو أتساءل أحيانا- ترى ما هي خير طريقة لقول ذلك- أحيانا أرى في صقال مرآة خيالي أني على وشك قول شيء لا يتعين عليّ قوله ، أحس بأنني بين يدي التفكير في أمر لا ينبغي أن أفكر فيه ، ويضايقني الأمر حتى لا يعود بوسعي احتمال ، وزوجي يقدم لي عونا عظيما في مثل هذه الأوقات ، إنه يعاملني برفق ، تماما كما لو كنت طفلة .

- قد أبدو مغرورا ، لكن هل أحدثك بما أعتقد؟ في تلك الأوقات تكرهينني ، إنك تكرهينني بعنف .

لم تكن سونوكو تعرف معنى الكراهية ، برفق ، بجدية تظاهرت بالتقطيب ، قالت :

- بمقدورك أن تعتقد ما يحلو لك .

على حين غرة ، وجدتني أبتهل ضارعا لها ، كما لو كان هناك ما يدفعني دفعا ، قلت : ألا نستطيع أن نلتقي مرة أخرى ، نلتقي معا بمفردنا؟ لن يكون هناك ما نخجل منه ، سيرضيني أن أرى وجهك فحسب ، لم يعد لي الحق في أن أقول شيئا ، حتى إن لم تقولي كلمة سأكون مغتبطا ، حتى ولو كان اللقاء لنصف ساعة .

- وما جدوى اللقاء؟ على أية حال إذا ما التقينا مرة ألن تقول فلنلتق مرة أخرى؟ في الدار تلتزم حماتي موقفا متشددا ، وفي كل مرة أغادر الدار تسألني إلى أين أمضى ومتى أعود ، وأن نلتقي بمثل هذه المشاعر القلقة . . . ولكن إذا . . .

تعثر حديثها للحظة ، أضافت : طيب ، هناك شيء اسمه القلب البشرى ، وما من أحد يعرف ما يجعله يخفق .

- هذا صحيح لكنك رقيقة ومتشائمة كعهدك دائما ، ألست كذلك؟ لم لا تفكرين بأشياء أكثر مرحا وانطلاقا؟ (أية أكاذيب كنت أطلقها!) .

- هذا مناسب لرجل ، لكنه ليس كذلك بالنسبة لامرأة متزوجة ستفهم الأمر تماما حينما تكون لك زوجة ، لا أظن أن بوسع المرء أن يكون حريصا فيما يتعلق بأمور كهذه .

- الآن يبدو حديثك كحديث الأخت الكبرى ، وهي تسدى النصح . . .

عندئذ على وجه الدقة عاد كوسانو ، وانقطع حوارنا .

حتى خلال حوارنا ، كان ذهني يحفل بأسراب لا نهاية لها من الشكوك ، أقسم بالله أن شعوري بالرغبة في لقاء سونوكو كان شعورا حقيقيا ، لكنه لم يكن يتضمن أدنى رغبة جنسية ، فأية رغبة إذن جعلتني أريد مقابلتها على هذا النحو؟ ألا يحتمل أنه خداع النفس مرة أخرى كانت تلك العاطفة التي تجردت على هذا القدر من الوضوح من الرغبة الجنسية؟ أيمكن في المقام الأول أن يكون هناك حب بلا أي أساس جنسي من أي نوع؟ أليس ذلك عبثا واضحا جليا؟

لكن خاطرا آخر راودني عند ذاك : لو أننا سلمنا بأن العاطفة الإنسانية تمتلك القدرة على الارتفاع عن كل عبث ، فكيف يمكن إذن القول بأنها تتمتع بالقدرة على الارتفاع عن ضروب عبث العاطفة ذاتها؟

منذ تلك الليلة الحاسمة ، نجحت بمهارة في تجنب النساء ، منذ تلك الليلة

لم أمس شفتيّ امرأة واحدة، وما مست الشفاة الاغريقية، التي كانت محط رغباتي حقا، حتى حينما كنت أجد نفسي في موقف يصبح فيه من الصفاقة ألا أفعل ذلك . . . ثم تهدد مقدم الصيف عزلتي، على نحو يفوق الربيع، وساط الصيف في سمته جياد رغبتي الجنسية، فالتهمت لحمي وأوغلت فيه عذابا، لذت بعادتي السيئة لا تحمل هذا العذاب، عاكفا عليها في بعض الأحيان خمس مرات في اليوم الواحد .

أنارت ظلمة جهلي قراءة نظريات هيرشفيلد، الذي يفسر عشق المثل باعتباره ظاهرة عضوية بسيطة، أصبحت أدرك أن تلك الليلة الحاسمة ذاتها كانت نتيجة طبيعية، وأنه ليس ثمة ما يدعو للشعور بالعار، اتخذ اشتهائي التصوري للفتية، على الرغم من أنه لم يتحول لمرة إلى ممارسة، شكلا محددا أظهر الدارسون أنه سائد بالدرجة ذاتها، ويقال إن الدافع ذاته الذي استشعره ليس بالأمر غير المألوف بين الألمان، وتقدم مذكرات الكوت فون بلاتين نموذجا مسجدا بصورة مثالية، وكان فينكلمان كذلك، وإذا ما اتجهنا إلى إيطاليا عصر النهضة لوجدنا أن من الجلى أن مايكل انجلو كانت له الدوافع ذاتها التي استشعرها .

لكن ذلك لا يعني أن حياتي العاطفية قد استقامت من خلال الاستيعاب الفكري لهذه النظريات . كان من العسير أن يصبح اللواط واقعا في حالتي، لأن الدافع ما كان يتجذر في أعماقي إلى أبعد من الجانب الجنسي، لم يكن يتجاوز كونه دافعا مظلما، يصرخ عبثا، مكافحا في عجز وعماء، بل إن الاستثارة التي كان يثيرها فيّ فتى جذاب المحيا كانت تقف دون مجرد الرغبة الجنسية، ولأطرح تفسيرا سطحيا أقول إن روحي كانت لا تزال تنتمي إلى

سونوكو . وعلى الرغم من أن الأمر لا يعني قبولي للمفهوم صراحة ، فإن بمقدوري أن استخدم بصورة مواتية تصوير العصور الوسطى للصراع بين الروح والجسد لجعل المعني الذي أقصده جليا : كان في أعماق انقسام محض وبسيط بين الروح واللحم ، بدت سونوكو لي تجسيدا لحبي للعادية ذاتها ، لعشقي لأشياء الروح ، عشقي للأمورالخالدة .

لكن مثل هذا التفسير البسيط لا يتخلص من المشكلة ، فالانفعالات لا تميل إلى النظام الثابت ، ولكنها شأن جسيمات في الأثير تحلق طليقة تسبح كيفما اتفق ، وتوثر أن تظل متأرجحة للأبد .

انقضى عام قبل أن أفيق أنا وسونوكو ، اجتزت امتحانات الخدمة المدنية بنجاح ، تخرجت في الجامعة ، عينت في وظيفة إدارية بإحدى الوزارت . خلال ذلك العام التقينا عدة مرات ، حينا بالمصادفة وحينا آخر بزعم القيام بعمل تافه ، لكن ذلك كان يقع كل شهرين أو ثلاثة شهور ، وفي وضح النهار ، لقاء لا يحدث خلاله شيء وافترق على النحو ذاته ، كان هذا هو كل شيء ، وما كان بوسع أحد أن يعيب عليّ سلوكي ، كما أن سونوكو لم تتقدم إلى ما يتجاوز التذكارات التافهة أو الأحاديث ضاحكة من وضعنا الراهن ، ما كان يمكن أن يطلق على ارتباطنا علاقة عاطفية بل إن المرء ليتردد في أن يدعوه علاقة . وحتى حين كنا نلتقى ما كنا لنفكر في شيء إلا في كيفية جعل فراقنا قطيعة .

كنت راضيا بهذا ، بل كنت أحس بالعرفان نحو شيء ما لهذا الزخم الصوفي لتلك العلاقة التي تفتقر إلى الهدف ، لم يكن يوم يمر دون أن أفكر في سونوكو ، في كل مرة نلتقى كنت أعايش سعادة هادئة ، بدا التوتر الهش والتناسق المحض للقاءاتنا كما لو كانا يمتدان إلى جميع منعطفات حياتي ،

ويفرضان عليها نظاما جليا وإن كان متزايد الهشاشة .

لكن عاما انقضى ، وأفقنا ، اكتشفنا أننا لم نعد نعيش في روضة من رياض الأطفال ، وإنما نحن سكان كون للبالغين ، يتعين أن يصلح فيه أي باب يتفرج قليلا في الحال ، كانت علاقتنا مثلا هذا الباب تماما ، باب لا يمكن أبدا أن يفتح إلى ما يتجاوز حدا معينا ، وكان من اليقيني أنه سيتطلب الإصلاح إن آجلا أن عاجلا ، أكثر من هذا كانت هناك الحقيقة القائلة بأن الكبار لا يمكنهم تحمل الألعاب المملة التي تبهج الأطفال ، لم تكن اللقاءات العديدة التي كنا نفحصها واحداً إثر الآخر إلا أمورا نمطية ، كل منها كالآخر حجما وسمكا ، حزمة من أوراق اللعب تضم فتنكمش إلى جزء من البوصة إذا ما وضع أحدها فوق الاخر .

أضف إلى ذلك أنني كنت أستل عامدا من هذه العلاقة بهجة لا أخلاقية ، كان بوسعي أنا وحدى أن أفهمهما ، كانت لا أخلاقيتي مراوغة تتجاوز الآثام العادية لهذا العالم ، ومثل سم نادر ، كانت فسادا محضا ، وبما أن اللاأخلاقية هي أساس طبيعتي ذاتها ومبدئي الأول فقد وجدت مذاقا متفاقم الشيطانية حقا للخطيئة السرية في سلوكي التقى ، في هذه العلاقة التي لا لوم عليها مع امرأة في سلوكي المشرف ، وفي كوني ينظر إليّ باعتباري رجلا له مبادئ سامية .

كنا قد مددنا أيدينا أحدنا نحو الآخر ، و بأيدينا المتضامة أسندنا فيما بيننا شيئاً ما ، لكن هذا الشيء الذي كنا نمسك به كان كنوع من الغاز الذي يوجد حينما تؤمن بوجوده ، ويتبدد حينما تشك في هذا الوجود ، وللوهة الأولى بدت مهمة إسناده يسيرة ، لكنها كانت تقتضي بالفعل صفاء في التقديرات

وحذقا بالغا ، استحضرت «عادية» مصطنعة لتحل في ذلك الفراغ بين أيدينا ، ودفعت بسونوكو إلى المشاركة في عملية خطرة ، قوامها محاولة الإبقاء على «عشق» وهمي تقريبا من لحظة إلى لحظة أخري ، بدت كأنها أصبحت شريكة في المؤامرة ، دون أن تدري ، ولربما كان افتقارها ذاك للإدراك هو السبب الوحيد في أن عونها كان فعالا على هذا النحو .

لكن سونوكو سرعان ما أصبحت تعى ، على نحو معتم ، بالقوة الغلابة لهذا الخطر ، الذي لا اسم له ، هذا الخطر الذي يختلف تماما عن الأخطار الخشنة المألوفة لهذا العالم ، في أنه له زخم محدد ، ولا مجال لسبر غوره .

ذات يوم في أخريات الصيف ، سونوكو كانت قد عادت لتوها من منتجع جبلي وكان ذلك في مطعم يدعى توك دور ، وما أن إلتقينا حتى أخيرتها باستقالتي من الخدمة المدينة .

- الآن ماذا ستصنع؟

- أوه ، دعى المستقبل يهتم بذاته!

- طيب ، إنها مفاجأة .

لم يكن عندها شيء آخر تقوله حول هذا الأمر ، وكان ذلك ضربان من قواعد السلوك يقوم على عدم التدخل ، كان قد استقر العمل به بالفعل بيننا .

كانت شمس الجبال قد لوحت جلد سونوكو ، فقد بياضه المتألق هناك عند مطالع نهديها ، اعتمت اللؤلؤة الضخمة في خاتمها بصورة كابية ، أما رنين صوتها العالي ، الذي كان دائما مزيجا من الحزن والتراخي ، فقد كان ملائما

لهذا الفصل من السنة .

أدرنا فيما بيننا لبعض الوقت حديثا مجردا من المعنى ، دائرا بلاانتهاء ، يفتقر للإخلاص ، كان يبدو في بعض الأوقات أنه لا يعدو أن يكون سقوطا في الخواء ، أعطانا الانطباع بأننا نسترق السمع إلى حوار يتبادله غريبان ، كان شعورا كذلك الذي يساور المرء عند التخوم بين النوم واليقظة حينما تجعل الجنود اليائسة التي يبذلها المرء للإغفاء مجددا دون الاستيقاظ من حلم سعيد استعادة هذا الحلم أمر أكثر استحالة ، أكتشفت كيف أن قلبينا ، وكأنما أصابهما فيروس خبيث ، كانت تمضغهما اليقظة القلقة التي تدب إلى حلمنا ، والبهجة العبثية لحلمنا الذي تراءى على أعتاب الوعي ، وكأنما استجابة لإشارة متفق عليها هاجم المرض فؤادينا معا في الوقت ذاته ، رددنا بإظهار المرح ، كما لو كان منا يرهب ما قد يقوله الآخر في أية لحظة فمضينا ، نهيل النكات إحداها فوق الأخرى .

رغم أن بشرتها التي لوحتها الشمس أضفت لمسة غير مألوفة عليها ، فقد كمن تحت قناع تجميلها الحديث الشامل الهدوء ذاته ، الذي كان يتدفق كعهده أبدا من عينيها الرقيقتين وشفتيها الثقيلتين هونا ، وحينما كانت النسوة الأخريات تعبرن مائدتنا كن دائما يرمقن سونوكو ، كان ثمة ندل يتحرك عبر القاعة حاملا صفحة فضية صفت عليها حلوى مثلجة صنعت على شكل بجعة ، كانت سونوكو تداعب برقة قفل حقيبتها المصنوعة من المطاط في رقة والخاتم يتألق في أصبعها .

تساءلت : أتشعرين بالملل من هذا؟

- لا تقل ذلك!

بدا صوتها مثقلا بالاعياء، الذي كان غريبا بشكل ما، بل كان يمكن أن يوصف بأنه جذاب، التفتت، راحت تتطلع عبر النافذة إلى الطريق الغارق في شمس الصيف، حينما تحدثت مرة أخرى تناهت كلماتها وئيدة.

- في بعض الأحيان أحس بالحيرة، أتساءل لم نلتق على هذا النحو، رغم ذلك فإني دائما أقابلك مرة أخرى.

- ربما لأن ذلك على الأقل ليس سلبا لا معنى له، حتى وإن كان إضافة عبثية بالتأكيد.

- لكني لديه شيء يسمونه زوجا، تذكر، وحتى إذا كانت الإضافة عبثية فلا ينبغي أن يكون هناك مجال لأية إضافة على الإطلاق.

- إنها معادلات رياضية مضجرة، أليست كذلك؟

أدركت أن سونوكو قد وصلت أخيرا إلى مدخل الشك، شرع الإحساس يراودها بأن الباب الذي ترك مواربا لا يمكن أن يظل على ما هو عليه. ربما لأنه الآن تسلل هذا الضرب من الحساسية إزاء الفوضى، ليمتص المشاعر التي كانت سونوكو تشاركني إياها، كنت لا أزال بدوري بعيدا عن العمر الذي يغدو فيه المرء على استعداد لقبول الأمور على نحو ما هي عليه.

رغم ذلك، بدوت كما لو كنت قد جوبهت ببرهان ساطع على أن خوفي الذي لا اسم له قد تسلل إلى وعي سونوكو، بل وأن الشيء الوحيد الذي كنا نشترك فيه هو مؤشر هذا الخوف من جديد عبرت سونوكو عن هذا الخوف،

حاولت ألا أصغى ، لكن فمي لم يفه إلا بردود ، هي من قبيل الثرثرة ، لا غير .

قالت : إذا مضينا على هذا النحو فماذا تظن أنه سيحدث ألن ندفع إلى منعطف لا مهرب منه؟

- أظن أني أحترمك ، وأنه ليس هناك ما يخجلنا أمام أحد ، ما الخطأ في أن يلتقي صديقان .

- سار الأمر على هذا النحو حتى الآن ، كان تماما على نحو ما تقول ، أعتقد أنك تصرفت على نحو مشرف للغاية ، لكنني لا ادري ماذا يمكن أن يقع في المستقبل ، حتى إن كنا لا نأتي شيئا نخجل منه فان أحلاما مخيفة لا تزال على نحو ما تراودني ، ثم أني أحس بأن الله يعاقبني على خطايا المستقبل .

جعلني الصوت الحازم ، الذي ترددت به كلمة المستقبل ، أرتجف .

واصلت حديثها قائلة : إذا ما مضينا على هذا النحو ، فإنني أخشى أن يحدث أمر يلحق الضرر بكلينا يوما ، وبعد ذلك ألن يكون أوان الاستدراك قد فات؟ أو ليس ما نفعله مشابها للعب بالنار؟

- ما الذي تقصدينه حين تتحدثين عن اللعب بالنار؟

- أوه ، كل ضروب الأشياء .

- لكنك لا تستطيعين اعتبار ما نفعله لعبا بالنار ، إنه فحسب كاللعب بالماء .

لم تبتسم ، كانت خلال لحظات الصمت العريضة تزم شفتيها بضراوة .

قالت : بدأت أشعر أخيرا بأني امرأة فظيعة ، لا أستطيع ان أفكر في نفسي إلا باعتباري امرأة سيئة ، وضيعة الروح حتى في أحلامي ينبغي ألا أفكر في أحد إلا في زوجي ، لقد حزمت أمرى ، وقررت أن أعمد هذا الخريف .

أعتقد أن سونوكو في هذا الضرب المتراخي من ضروب الاعتراف الذي يرجع إلى حد ما إلى تخدير رنين كلماتها ، كانت تقترب من اللغز النسائي المتمثل في قصد عكس ما تقوله ، وكانت ترغب بصورة غير واعية في أن تقول ما لا ينبغي أن يقال ، لم يكن لي الحق في الابتهاج لهذا أو الحزن إزاءه ، ففي المقام الأول كيف كان يمكنني ، أنا الذي لم أشعر بأدنى غيره من زوجها ، ممارسة هذه الحقوق ، سواء بالمطالبة بها أو برفضها؟ التزمت الصمت . أفعمنى مرأى يدي البيضاوين النحيلتين في سمت الصيف باليأس .

قلت أخيرا : والآن؟

خفضت صوتها قائلة : والآن؟

- نعم ، الآن ، فيمن تفكرين؟

- . . . زوجي .

- إذن فليس العماد ضروريا ، أهو كذلك؟

- أوه ، إنه كذلك . . فيما أخشى ، فلازلت أشعر بأنني أهتز بعنف .

- هكذا الآن؟

- الآن؟

رفعت سونوكو عينيها الجادتين ، كأنها تطلب النجدة من أحد ، اكتشفت في بؤبؤيها بهاء لم أره من قبل أبدا ، كانا بؤبوين عميقين ، لا يطرفان ، قدريين مثل غديرين يشدوان أبدا بعواطف لا تفتأ تتدفق ، ضاعت مني الكلمات كعهدي دائما حينما كانت تحول هاتين العينين تجاهي ، فجزة مددت يدي نحو منفضة السجائر عبر المائدة ، وأطفأت سيجارتي التي لم أدخن إلا نصفها ، فيما كنت أقوم بذلك انقلبت آنية الزهور الرشيقة في منتصف المائدة فبللتها بالماء .

أقبل نادل ، وأزال آثار هذا الاضطراب . جعل مرأى مفرش المائدة المبلل وهو يجفف شعورا تعسا يراودنا ، مما منحنا تعلة للإنصراف مبكرين قليلاً .

كانت الطرقات التي لفها الصيف بردائه مزدحمة على نحو يثير الضيق ، مرّ عشاق يزهون بعافتهم قريبا منا ، وقد برزت صدورهم وتعرت أذرعتهم ، شعرت بأن كلا منهم كان يسخر مني وكانت السخرية قوية كضياء شمس الصيف الذي كان يحترق منصبا عليّ .

بقيت نصف ساعة على موعد فراقنا ، ليس بمقدوري القول بما إذا كان الأمر يرجع إلى الألم النابع من فراقنا على وجه الدقة ، لكن ضيقا كئيبا وعصيبا ، يحاكي ضربا من ضروب العاطفة ، أثار شعورا بالرغبة في طلاء نصف الساعة ذاك بألوان غليظة كاللوحات الزيتية توقفت أمام مرقص كان مكبر الصوت فيه يمج دفقات وحشية من موسيقى الرومبا إلى الطريق ، فجأة ذكرت بأحد أبيات قصيدة كنت قد طالعتها منذ وقت طويل .

. . . لكنها كانت دائما رقصة بلا نهاية . . .

كنت قد نسيت بقية البيت ، لابد أنه من قصيدة لأندريه سالمون .

على الرغم من أن مثل هذا المكان كان خاج نطاق خبرة سونوكو ، فإنها أومأت موافقة . وصحبتني إلى المرقص لنمضى نصف ساعة من الرقص .

كانت القاعة تغص بموظفي المكاتب ، الذين كانوا يرتادون هذا المرقص كل يوم لقضاء ساعة أو ساعتين من الرقص ، مضيفين إلى ساعة الراحة وتناول الغداء على النحو الذي يناسب مزاجهم .

لطمت وجوهنا حرارة متقدة ، كانت الحرارة المحمومة ، الخانقة ، الراكدة في المكان تثير ضبابا لبنيا من ذرات الغبار بإزاء الأضواء المنعكسة ، ويضاعف من تأثير ذلك نظام التهوية المعيب والستائر الثقيلة المسدلة ، التي كانت تحجب الهواء الطلق ، وما كان المرء بحاجة إلى القول أي نوع من الناس أولئك الذين كانوا يرقصون هناك غير مبالين بالحرارة ، مصدرين روائح العرق والعطور الرديئة ودهون الشعر الرخيصة فشعرت بالأسف لإحضاري سونوكو إلى هذا المكان .

لكن أوان التراجع كان قد فات ، شققنا طريقنا دونما حماس وسط الجمع الراقص ، لم تفلح حتى المراوح الكهربائية القليلة في جلب نسمة هواء ، كان فتية يراقصون المضيفات ، وقد تلاصقت خدودهم المتصببة عرقا ، إسمرت جوانب أنوف الفتيات ، وبدا زرور وجوههن الغارقة في العرق كحب الشباب على بشرتين ، أما ظهور أثوابهن فقد بدت أكثر اتساخا وابتلال من مفرش المائدة قبل قليل ، وسواء رقص المرء أم لا فقد كان العرق ينتشر فيغلل جسده ، كانت سونوكو تلتقط أنفاسا لاهثة ، كأنها تختنق .

مضينا بحثا عن هواء متجدد ، عبر مجاز مقنطر ، محلى بزهور عتيقة إلى الباحة ، اقتعدنا مقعدين خشنين ، كان الهواء هنا متجددا حقا ، لكن الأرض

الأسمنتية كانت تمج حرارة كثيفة ، امتدت حتى المقاعد الموضوعة في الظل ، كان مذاق شراب الكوكاكولا عالقا بلعابينا ، بدت سونوكو بدورها وقد ألزمها الصمت العذاب ذاته الذي كنت أحسه ، والنابع من مقت كل شيء في هذا المكان ، بعد قليل لم يعد بوسعي احتمال هذا الصمت ، فشرعت في النظر فيما حولي .

كانت فتاة لحيمة تستند إلى الجدار في تراخ ، وهي تجلب الهواء إلى صدرها بمنديل ، كانت الفرق الموسيقية تعزف لحنا سريعا ، بدا وكأنه ينصب من آلاتها صبا . في الباحة كان هناك بعض النباتات دائمة الخضرة في مزهريات ترتفع ناتئة من الأرض الأسمنتية ، التي وضعت عليها ، شغلت جميع المقاعد في ظلال الظلة ، فلم يكن أحد يرغب في مواجهة أشعة الشمس .

غير أنه كانت هناك جماعة واحدة تجلس تحت أشعة الشمس ، وأعضاؤها يثرثرون معا ، كأنهم وحدهم في المكان ، كانت تضم فتاتين وشابين ، راحت إحدى الفتاتين تدخن سيجارة على نو متكلف ، أظهر أنها لم تعتد التدخين ، مصدرة سعالا خفيفا عقب كل مجة من دخان السيجارة ، وكانت الفتاتان كلتاهما ترتديان ثيابا غريبة ، بدت وقد أعدت نقلا عن مادة كيمونو صيفي ، لاحت الثياب بلا أكمام ، تكشف عن سواعد حمراء كسواعد بائعات السمك ، وقد رقشتها هنا أو هناك لدغات الحشرات ، في كل مرة كان الفتيان يلقيان بنكتة خشنة كانت الفتاتان تنظر إحداهما إلى الأخرى ، ثم تضحكان في تكلف ، ولم يبد أن شمس الصيف الوحشية التي كانت تلهب رؤوسهم تضايقهم بشكل خاص .

كان أحد الفتيين يرتدي قميصا مزركشا ، كان شائعا للغاية في ذلك

الوقت بين عصابات الشبان في المدينة ، كان وجهه شاحبا ، ماكر الملامح ، لكن ذراعيه كانا قويين ، وابتسامة شهوانية تطوف بلا انتهاء على شفتيه ، ظاهرة ثم معاودة الاحتجاب ، كان يدفع الفتاتين للضحك بدفع أصبعه بين نهودهن .

ثم لفت الفتى الآخر انتباهي ، كان شابا في الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين ، له بشرة خشنة ، وإن كانت رائقة وداكنة ، كان قد نزع قميصه ، وقف هناك نصف عار ، لف زنار حول وسطه ، غرقت المادة القطنية الخشنة في العرق ، اكتسبت لونا رماديا فاتحا ، بدا وكأنه يتلكأ عمدا في مهمته ويشارك باستمرار في الثرثرة والضحك مع رفاقه ، وشى صدره العاري بعضلات بارزة ، كاملة النمو ، محكمة التركيب ، كان فلع عميق ينطلق بين عضلات صدره المتينة نحو معدته ، كانت أوتار لحمه الغليظة الشبيهة بالقيود تضيق ، منسدلة إلى أسفل من شتى الاتجاهات ، نحو جوانب صدره ، حيث كانت تتداخل في طيات محكمة ، بدت كل طية متتالية من الزنار القطني الملوث وكأنها تسجن في إحكام وقسوة الكتلة الساخنة لجذعة الرقيق ، أما كتفاه العاريان اللذان لوحتهما الشمس فقد تألقا ، كأنما كان الزيت يكسوهما ، برز شعر الأبطين الأسود من ثناياهما ، متشبثا بنور الشمس ، متجعدا ، ومتألقا بومضات من ذهب .

أحدقت بي رغبة جنسية إزاء هذا المشهد ، وفي المقام الأول إزاء نبات الفاوانيا الموشوم على صدره ، جمدت نظرتي المحمومة على هذا البدن الخشن الوحشي ، الذي لا مثيل لجماله رغم ذلك ، كان صاحبه يقهقه هناك تحت الشمس ، حينما ارتد برأسه إلى الوراء ، استطعت مشاهدة عنقه العضلي الغليظ ، اخترقت رعدة غريبة سويداء قلبي ، وما عاد بوسعي أن أرفع ناظري

عنه .

كنت قد نسيت وجود سونوكو ، رحت أفكر في شيء واحد : في انطلاقة إلى طرقات الصيف تماما على نحو ما هو عليه ، نصف عار واشتباكه في شجار مع عصابة منافسة ، في خنجر حاد يغوض في ذلك الزنار ، مخترقا ذلك البدن ، في جثته الملطخة بالدم مسجاة على حامل مرتجل من إحدى النوافذ ، ثم تجلب إلى هنا . . .

بلغ صوت سونوكو المرتفع الحزين مسامعي ، فالتفت نحوها متعجبا : «لم تبق إلا خمس دقائق» .

في هذه اللحظة انشطر شيء ما بداخلي شطرين بقوة وحشية ، كان الأمر كما لو أن صاعقة انقضت فأطاحت بشجرة تتدفق بالحياة ، والنسغ ، سمعت البناء الذي كانت أشيده بكل ما أملك من قوة قطعة فقطعة ينهار على نحو بائس إلى الأرض ، شعرت وكأنني شاهدت اللحظة التي انقلب فيها وجودي إلى ضرب مخيف من ضروب العدم ، أغمضت عينيّ ، بعد لحظة تملكت ناصية شعوري الجليدي بالواجب .

- خمس دقائق فحسب؟ كان من الخطأ إحضارك إلى مثل هذا المكان ، أغاضبة أنت؟ إنسانة مثلك لا ينبغي لها أن تشاهد سوقية مثل هؤلاء الناس ، لقد سمعت أن هذا المرقص لا يتمتع ببراعة مراضاة عصابات السفلة ، وأنهم قد شرعوا في فرض أنفسهم ليرقصوا مجانا أيا كان الرفض الذي يجابهون به .

لكنني كنت وحدى أنظر إليهم ، أما سونوكو فلم تلاحظهم ، كانت قد دربت على عدم رؤية الأمور التي لا ينبغي أن تشاهد ، كانت قد ثبتت نظرتها

في شرود على الظهور العارقة التي كان أصحابها يتابعون الرقص .

لكن رغم ذلك بدا مناخ المكان وكأنه أفرز شيئا كيمائيا من قبل التغيير في قلب سونوكو بدورها ، دون أن تدرك ذلك ، في التو لاحت مطالع شيء كالابتسامة على شفتيها الخجولتين ، وكأنها كانت تستمتع مسبقا بما توشك على قوله .

- من المضحك طرح هذا السؤال ، لكنك مارست الحب بالفعل ، زلم تفعل ذلك؟ بالطبع مارسته أليس كذلك؟

كنت مرهقا تماما ، مع ذلك كان في ذهني ما يدفعني للانتباه فيرغمني على تقدمي رد مقبول بأسرع مما يقتضيه التفكير .

- أه ، لقد قمت بذلك بالفعل ، ويؤسفني قول ذلك .

- متى؟

- في الربيع الماضي .

- مع من؟

أدهشني مزيج السذاجة والتعقد في سؤالها ، كانت عاجزة عن تصوري مرتبطا بفتاة لن تعرف اسمها .

- لا أستطيع إخبارك باسمها .

- هيا ، قل ، من كانت؟

- من فضلك لا تسأليني!

صمتت على الفور ، ربما لأنها سمعت الابتهال الغارق في العرى خلف كلماتي ، بدت وكأنما أخافها الأمر ، كانت أبذل كل جهد بمقدوري القيام به للحيلولة دون ملاحظتها لانسحاب الدم من وجهي ، كانت لحظة الفراق تقف في الانتظار ، على نحو قلق ، انسابت في الزمن نغمات حزينة خفيفة ، ألفانا رنين الصوت العاطفي المنسكب من المكبر جامدين بلا حراك .

نظرت وسونوكو إلى ساعتيّ معصمينا ، في اللحظة عينها ، على وجه التقريب . .

كان الأوان قد جاء ، نهضت اختلست نظرة اخرى إلى تلك المقاعد تحت الشمس ، كانت المجموعة قد مضت فيما يبدو للرقص ، والمقاعد شاغرة تحت بريق الشمس ، كان نوع من الشراب منسفحا على سطح المائدة ، وكانت ترتد عنه انعكاسات متألقة ، مفعمة بالوعيد .

تمت



الفهرس

CONFESSIONS OF A MASK

رواية
NOVEL

اعترافات قناع

في العام ١٩٥٠ ، ظهر هذا الكتاب بعنوان (***كامن نوكوكو هاكو***) أو (***اعترافات قناع***) ، وإذا كانت رباعيّة (***بحر الخصب***) تعدّ أرقى القمم الّتي وصل إليها عالم ميشيما الأدبيّ ، فإنّ الاعترافات تقدّم ، في الحقيقة ، المفاتيح الّتي يستحيل دونها فهم أسرار ومغاليق هذا العالم .

لكنّ مأساة هذا العمل ، أو بالأحرى مأساتنا معه - وربّما كان هذا أيضاً أعظم ما فيه - هو قابليّته الفذّة للتفسير على أكثر من صعيد واحد ، وعلى عمق كبير داخل كلّ مستوى على حدة .

كان **ميشيما** نفسه ينظر إلى هذا العمل باعتباره [*تدريباً إسبارطيّاً للانضباط الذاتيّ*] ، إنّه هنا يتحدّث بتدفّق وعفويّة ، متخلّصاً من ولعه بالتراكيب الأدبيّة المغرقة في الخيال والاستعارات المحوّمة ، ثمّ إنّه يجالد الحقيقة عارية ، لأنّها - ببساطة - الحقيقة ، ولا مهرب منها ، والمنهاج الأفضل هو فهمها ومواجهتها ، وهذا هو ما تضمّه الاعترافات بين دفّتيها .

والكثيرون من النقّاد يرون في (***الاعترافات***) شكلاً شديد الخصوصيّة من أدب الاعترافات ، فهم ينظرون إليه باعتباره تقليداً ساخراً للاعتراف ، ويعدّونه الكتاب الأكثر تعبيراً عن **ميشيما** ، لا لأنّه صنع شهرته المدوّية ، أو لأنّه قمّة شامخة في أعماله ، الّتي تبلغ حوالي مئة عمل يضمّها حوالي أربعين مجلّداً ، وإنّما لأنّه الكتاب الأكثر إيغالاً في فهم العالم الداخليّ لمؤلّفه . وإذا قبلنا تفسير (***الاعترافات***) على هذا المستوى ، فإنّ هذا الكتاب يجعل اعترافات (***أندريه جيد***) ، الّتي صدمت العالم لدى صدورها ، تبدو تأمّلات تلميذ بريء في سيرته الذاتيّة .

من مقدّمة المترجم

ISBN 9953-36-622-5

